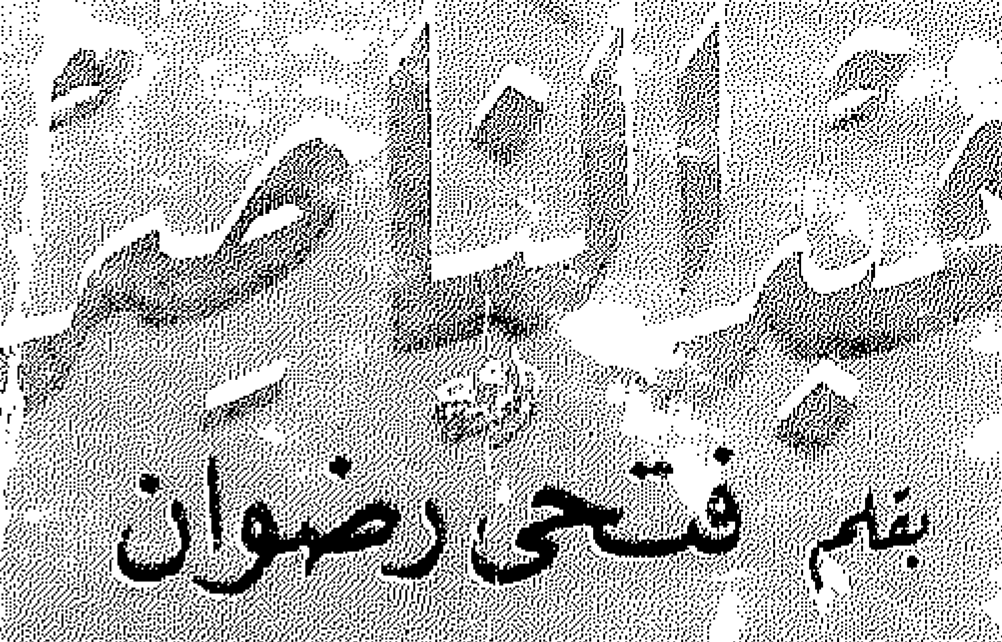
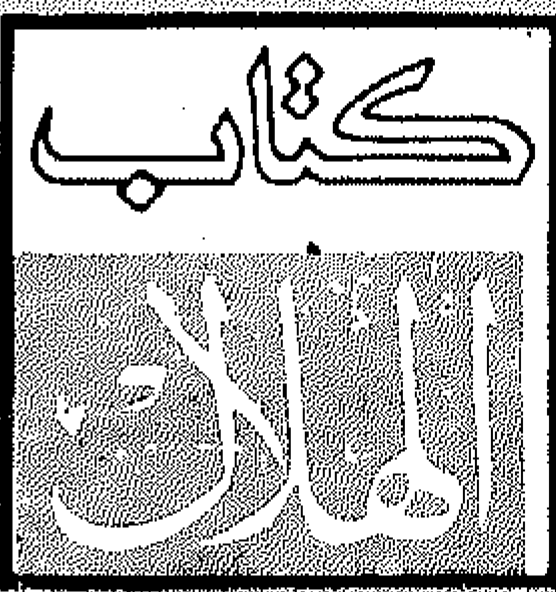
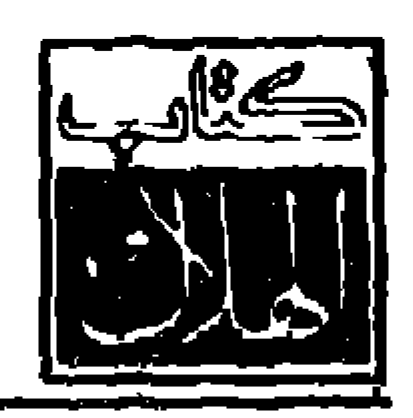




بقلم فتحي رضوان



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 487 - JU - 1991

العدد ٤٨٧ ذو الحجة - يوليو ١٩٩١

FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع للعدد فئة ٢٥٠ قرش

الاردن ٢ دينار ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٠ درهم ، البحرين ٢٠٠ر١ دينار ، الدوحة ١٠ ريال ، دبى / ابوظبى ١٠ درهم ، مسقط ١ ريال ، غزة والقدس والضفة ٥٠ر١ دولار ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريال ، لندن ٥٠ر١ جك .

عبد الناصر

بقلم
فتحى رضوان

دار الهلال

الغلاف لوحة

للفنان : جمال كامل

تقـــــديم

حينما نشرت هذه الفصول التى أقدمها ، فى « مجلة الفجر » التى كان الأستاذ حلمى سلام ، يرأس تحريرها فى الدوحة عاصمة قطر ، فاجأنى اقبال الناس عليها واهتمامهم بها (١) ، ولم أخطىء في تبين السر فى هذا الاقبال والاهتمام ، فقد كان العرب بعامة ، والمصريون بخاصة في شوق شديد إلى معرفة كل شيء عن ثورة سنة ١٩٥٢ ، وعن الرجال الذين قاموا بها ، وعن حقائق شخصيتهم ، وخصائص أخلاقهم ، والظروف التي أحاطت بهذه الثورة ، وصلاتها بالقوى العالمية ، فقد كان ماينشر عن كل هذه الجوانب قليل بالنسبة لضخامة الدور الذى لعبته هذه الثورة فى حياة الوطن العربى ، واتجاهاته ، والمستقبل الذى ينتظره ، والعقبات والصعاب التي تتعقب كل خطواته وتترصد كل حركاته .

الثورة العربية الأولى :

ولم يكن فى هذا ما يدعو إلى العجب .

فثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كانت الثورة العربية الأولى ، التى

---

(١) وقد نشرت هذه الفصول فى حياة فتحى رضوان فى كتاب بعنوان « ٧٢ شهراً » مع عبد الناصر .



الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .

استهدفت التغيير فى الأقليم الذى قامت فيه تغييرا يتناول الأسس ، وقد نجحت فى أمرين جد خطيرين : اولهما : قيام الثورة ، ذاته . والثانى : فى ثباتها واستقرارها .

أما أنها الثورة الأولى فهذه هي الحقيقة التي يؤيدها التاريخ ولا ينكرها فمنذ اندلاع الثورة العرابية فى ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ التى بدأت بحصار الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى لقصر عابدين ، مقر الخديو توفيق ، لم تقم فى الوطن العربى ، ثورة انفجرت ثم استقرت ، ثم غيرت الأمور فى الاقليم العربى الذى اندلعت فيه تغييراً اختفت له المعالم الرئيسية فى هذا الوطن .

لقد سبقت ثورة الشيشكلى فى سوريا التي اسندت زعامتها الرسمية لحسنى الزعيم ثورة ٢٣ يوليو ، ولكنها لم تلبث حتي سقطت وعادت الأمور فى سوريا سيرتها الأولى ومضت الأمور فى الوطن العربى ، على نفس الوتيرة التي كانت تجرى عليها حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ ، فكان انفجارها في ذاته حدثا يجب على المصريين والعرب أجمعين أن يزهوا به ، ويفخروا . ذلك لأن أكبر ما كان يوصم به المجتمع العربى ، هو أن العرب يركبهم حكامهم بالهوان ، ويستبدون بأمورهم أقبح استبداد ، فينهبون أموالهم ، ويبددون مصالحهم ، ويحرمونهم من كل حرية ، ويؤخرون تقدمهم . والشعب خائف خاضع لا يحرك أصبعاً ، ولا ينطق بحرف ، ولا يكف الشكوى بينه وبين نفسه ،

يتلفت يمينا ويساراً ، خائفاً من أن يسمعه سامع ، ولا يعرف أن الحرية لا ينالها الآملون فيها ، والعاشقون لها ، إلا بعد تضحية وبذل وأن الهامسين اذا اجتمع بعضهم لبعض ، ونظموا أنفسهم ، وساووا صفوفهم أصبحوا قوة لا تقاوم ، وأن الشعب الأعزل الذى يضرب ويسام الخسف ما اجتمع مرة ، إلا وكتب له الفوز ، وتحققت له الحرية .

ولذلك كان قيام ثورة ٢٣ يوليو ، واستمرارها ، فى مصر ، رداً لاعتبار المصريين والعرب ، وتعزية لهم على انهزام ثورة عرابى ، أمام النظام الملكى المؤيد بالاستعمار الغربى .

ولم يكن انتصار ثورة ٢٣ يوليو ، مجرد قيامها ، وتسليم جميع القوى المناهضة للثورة بها والتعامل معها ، على أساس أنها صاحبة الكلمة فى مصر ، إلى حد أن الملك حزم متاعه ، وجمع أهله وأتباعه ، ورحل عن مصر ، فى الساعة التى حددت له لم يتأخر دقيقة ، ونفذ جميع ما أمر به ، بل أنه راح - يرجو ممثلى الثورة أن يأذنوا له باصطحاب السنيور « بوللى » تابعه الإيطالى الأمين ، بحجة أنه لم يباشر من أمور السياسة شيئا ، وأنه مجرد خادم وقد تسابقت الدول ، كبيرها وصغيرها شرقها وغربها إلى الاعتراف بالثورة ، وقد كان كل هذا تكريما لمصر ، وتطهيرا لشرفها من عيوب الضعف ، وآفات العجز ، وقد مضت بعد ذلك الشهور تلو الشهور ، والسنون تلو السنون ، والثورة باقية ، وقد غيرت من أمور مصر ، أكبر أنظمتها ، ومن سماتها ، ومظاهر أقدم خصائصها .

فقد ازالت النظام الملكى ، وأنزلت الملكية الزراعية من عرشـها العالى ، وطاردت النفوذ الأجنبى فى كل مجالاته : فمصرت وأممت التجارة والصناعة التى استأثر بها الأجانب ، وجعلت التعليم بجميع درجاته مجانيا ، فأقبل أبناء الطبقات الفقيرة من الفلاحين والعمال ، على التعليم الجامعى ، وأصبح عشرات الألوف منهم قضاة وأساتذة جامعة وسفراء وأطباء ومحامين ، وتغيرت البنية الاجتماعية ، فقد أصبحت القمة فى المجتمع من أبناء الطوائف التى حرمت طويلا من التعليم ومن التقدم .

هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فقد كان أثر الثورة المصرية عميقاً وواسع النطاق ، حيث وجدت جميع حركات التحرر من الاستعمار على طول الوطن العربى وعرضه التأييد والدعم المادى والمعنوى من تلك الثورة وحكومتها ، فسقطت مراكز الاستعمار فى الجزائر وليبيا وعدن والعراق واليمن . وساد تيار التحرر والاستقلال هذا الوطن بعد نحو قرن من العبودية والتبعية فزالت القواعد الأجنبية فى السويس ، وفى الحبانية فى العراق ، وفى هويلس والعضم فى ليبيا وفى عدن . وأصبحت الوحدة العربية حقيقة بعد أن كانت مجرد حلم ، ولم يؤد سقوط الجمهورية العربية المتحدة ، وانفصال سوريا عن مصر ، إلى إنحسار المد العربى ، بل ربما أدى هذا السقوط إلى تأجج الرغبة فى إقامة تلك الوحدة على أسس سليمة قوية ، رداً على المؤتمرات والدسائس التى أفضت إلى سقوط أول دولة من دول الوحدة .



وقد قادت مصر الثورة حركة عالمية جديدة مع زعماء الهند ويوغسلافيا ، وهى حركة عدم الانحياز التى اقلقت الاستعمار العالمى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة وقد ارتفع مد هذه الحركة واشتد تأثيرها .

ثورة أم انقلاب :

ازاء هذه التطورات البعيدة المدى التى غيرت وجه المجتمع العربى . والتى ادخلت فيه العشرات من أسس الحكم وأساليب التفكير وبناء المجتمع وعلاقات مصر بالعرب وعلاقات العرب بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالعالم على أوسع نطاق ، ازاء هذه التطورات كان يجب أن ينحسم النزاع حول ما إذا كان ما وقع فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . ثورة أم انقلاباً ..

فالثورة هى تغيير اجتماعى يختفى فيه مجتمع بأسس تفكيره ، واتجاهاته وطموح أهله ، وهمومهم ، ويأتى بمجتمع جديد آخر بأسس واتجاهات وطموح وهموم لم يعهدها المجتمع المختفى .

وكان حسب حركة ٢٣ يوليو أنها أزالت الملكية فقط لتكون ثورة فالملكية المصرية هى أقدم الملكيات . نشأت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولم تنقطع قط . فالملكيات الأوربية كلها حديثة لم ينقض على ميلادها أكثر من ستمائة أو سبعمائة سنة . فى حين أن الملكيات اليونانية والرومانية والهندية والصينية ، إنتهت منذ قرون .

أما الملكية المصرية فقديمة قدم التاريخ الانسانى ، وقد اقترنت فى

بدايتها بالمعبود الخالق ، اذ اندمجت شخصية الملك بالإله ، فأصبح الإله هو الملك ، وأصبح الملك هو الإله ، ثم حدث الانفصال بين الاثنين ، فأصبح الملك ، ظل الله ثم أصبح ابنه ، ثم أصبح صوته . ولذلك كانت الملكية المصرية راسخة رسوخ العقيدة الدينية ، ولذلك أيضا كان سقوط الملك في مصر ، وبالتالي سقوط الملكية ، حدثا هائلا لا في تاريخ مصر وحدها ، بل في تاريخ الانسانية كلها ، وقد تم هذا السقوط على يد ثوار ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقد تم بسهولة ويسر عجيبين ، فالملك لم يقاوم ، إذ قامت الثورة في فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وخرج الملك من مصر مع زوجه وابنه وبناته وخدمه ومجوهراته وثيابه ، في الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو أي بعد أقل من ثلاثة أيام كاملة . وكان هذا أعظم استفتاء علي تمثيل الثورة لآمال الشعب المصرى ، فقد خرج الملك بعد هذه الأيام الثلاثة ، دون أن يرفع مصرى واحد يده بقصد الاعتراض فضلا عن المقاومة ، حتى حرس الملك ، الذى تمرغ فى نعمه ، وحظى بشديد عطفه لم يسفك من أجله دمعة ، ولم يطلق فى الهواء قذيفة . ووقف الكل يشاهدون اسدال الستار على حكمه وملكه وعهده ، لا يخالط مشاعرهم إلا الاسف الإنساني على رجل بدأ حكمه محفوفا باعجاب الشعب وحبه ، واستمر لسنوات قليلة ، معقد الآمال ، ولم يكن مطلوباً منه للمحافظة على هذه المكانة إلا أقل القليل ، كان لا يطلب منه الكثير من ألا يبدو لشعبه فى مواقف لا تليق بالملك ، وألا ينقل عنه ما يعيبه فى حياته الخاصة ، وأن يطبق الحديث الشريف : « اذا بليتم فاستتروا »

ولكنه للأسف الشديد جرى على تقاليد العائلة المالكة ولا سيما فى المراحل الأخيرة من حياته . هذه التقاليد التى تقضى بأن يبدأ الملك صغير السن جميل الطلعة ، قريبا من قلب الشعب ، لوطنيته ولعدائه لخصوم البلاد ثم يتقدم السن ، فيترهل جسمه ويتضخم ، ويزداد طمعه فى مال الشعب ، ثم يحيط نفسه ببطانة سوء ما يلبث سوء سلوكها وخروجها على تقاليد البلاد الخلقية والدينية أن يجعل الألسن تتناقلها ثم يتحاز الملك شيئا فشيئا لأعداء الوطن حتى يصبح عميلهم الأول ، وخادمهم الأكبر ، فينفذ أوامرهم ، ويطبق سياستهم ، ويتنأى عن الشعب ، ويتنكر له ، حتى يصبح ندا للشيطان .

بدأ كذلك محمد توفيق الذى كان يجتمع مع الوطنيين وهو ولى للعهد ، ويضيق بسياسة أبيه فى الاسراف ثم تولى الحكم ، فادار ظهره لأصدقائه القدامى ، وأمر بالقبض عليهم وخضع للانجليز واحتمى بهم ، فلما ضرب الأسطول البريطانى ميناء الأسكندرية لجأ إلى هذا الأسطول وتنكر للثورة العرابية ، وأمر بمحاكمة زعمائها ، وكرههم فبقى فى قصره وحيداً لا صديق له من الوطنيين ، ولا نصير ، حتى توفى ، وجاء بعده الخديو (عباس حلمى) سنة ١٨٩٢ ، فصادق مصطفى كامل الذى كان فى مثل سنه تماما كلاهما ولد سنة ١٧٨٤ ، وأصبح يقابل الوطنيين سراً فى مسجد القبة ، ويتامر معهم ضد الاحتلال البريطانى ، ويتصدى له ماوسعه التصدى ، ويضيق بالوزراء الذين يلوذون بالاحتلال

البريطاني ويصادقون ممثله السير ايفلنج بارنج الذى أصبح فيما بعد اللورد كرومر ملك وادى النيل غير المتوج ، وتهدد عرش الخديو عباس حلمي أكثر من مرة ولكنه كان يتماسك ويتجلد ويتمسك بالصبر ، ثم مال إلى مسالة الاحتلال الانجليزى شيئا فشيئا ، ولاسيما بعد أن أنعقد بين بريطانيا وفرنسا ، ماعرف بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ فقد كان الخديو عظيم الأمل في المعونة الفرنسية ، وكان يحسب أن حركة الوطنية المصرية بزعامة مصطفى كامل ، ودعم فرنسا ، قادرة على تحقيق الجلاء عن مصر ، فلما اتفقت فرنسا مع بريطانيا ، على ألا تقيم فرنسا العقبات والعراقيل أمام الاحتلال البريطاني ، على أن تفعل انجلترا الشئ ذاته بالنسبة للاحتلال الفرنسي للمغرب ، أحس الخديو عباس أنه أصبح وحيداً ، وأن مصر لم تعد قادرة على مقاومة الأنجليز فنفض يده من الحركة الوطنية ، وتنكر لها وقطع صلته بمصطفى كامل ، الذى أرسل إليه سنة ١٩٠٦ خطاباً مدويا أعلن فيه الزعيم الشاب أنه قرر أن يبعد عن الخديو حتى يحرج مركزه مع الاحتلال الأجنبي .. وواصل الخديو تدهوره حتى بات عدواً للحركة الوطنية يعمل ضدها ويتقرب لأعداء البلاد ، حتى عزل في بداية الحرب العالمية الأولى في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

وقد تم الأمر ذاته مع فاروق ولى العهد بعد وفاة أبيه في مايو سنة ١٩٣٧ ولم يكن قد اكتمل له سن الرشد ، فحكم مصر مجلس للوصاية يرأسه الأمير محمد على باشا شقيق الخديو عباس حلمي المعزول ،

ولكن رئيس الديوان الملكى على ماهر باشا لم يلبث أن استصدر من شيخ الأزهر فتوى بأن الملك يحسب عمره بالتقويم الهجرى ، فيكون قد بلغ سن الرشد ، وتولى الملك ، والناس شديدة الاعجاب بشبابه ووسامته ، وكان موكبه وهو يذهب كل يوم جمعة إلى الصلاة فى المساجد الفقيرة فى الأحياء الشعبية ، محفوفا بآلاف من أفراد الشعب الذين يتجمعون حول سيارته تعبيرا عن الحب والوفاء ، ولكنه فعل كل ما فى وسعه ليحقق ماسبقه إليه اسلافه الذين تولوا الملك فى مثل شبابه والذين بدأوا حياتهم ملوكاً مشمولين بالرعاية والحب ، حتى بلغ الذروة حينما أحاط الانجليز فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مقره بدباباتهم ، واقتحموا عليه مكتبه فى قصر عابدين ، بقيادة الجنرال ستودن ومعه السفير البريطانى اللورد كليرن وفرضوا عليه رئيس وزارة بذاته ولكنه بدأ يغير موقفه بعد هذا الحادث ، فبعد عن الشعب ، وأصبح صديقا للانجليز فمنحوه رتبة الجنرال الفخرية فى جيشهم وأصبح يخلص لهم الود وينفذ ما يطلبون وكلما اقترب منهم تورط فى مسلك شخصى غاية فى السوء ، حتى قضى آخر رمضان له فى مصر ، على شاطئ جزيرة كابرى فى جنوب ايطاليا ونشرت له صحف العالم صوراً وهو فى هذا المصيف تسئ إلى سمعته ، وتطلق ألسنة الناس فيه ، حتى عزلته الثورة فى مساء يوم ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٢ كما سبق القول .

وربما يكون الكلام عن الملك والملكية قد طال ، ولكن كان ذلك واجبا ، فالثورة قامت أول ماقامت ضد الملك وكان مطلبها الأول أن ينزل آخر

أعضاء أسرة محمد على عن عرشه وأن ينحى كل الذين أحاطوا بهذا الملك من الساسة الذين زينوا له مسلكه ، وحببوه فى أسلوب الحكم الذى اتبعه . وربما لو رزقت مصر فى تلك الأيام ملكا أقل سوءا ، وأدنى إلى الفضيلة والعمل الصالح لما وجدت الثورة طريقها ممهدا ، ولما التف الناس حولها كما التفوا بالفعل .

مقالات الملك فاروق :

ولم يكد فاروق يضع قدمه فى أوروبا ، حتى تلقفته أجهزة الاتصال بالجماهير أو الصحف ، والاذاعات المسموعة والمرئية لتتخذ منه بوقاً ضد الثورة .

فقد كان المعسكر الاستعمارى متمثلاً فى بريطانيا ، التى كانت جيوشها فى مصر ، عند قيام الثورة ، وعزل الملك ، وكانت بريطانيا مختلفة أشد الاختلاف مع الولايات المتحدة فى أمور عديدة أهمها مصير الملك فاروق ثم مصير الملكية .

فبريطانيا كانت تعتد بخبرتها الطويلة فى حكم مصر والمنطقة العربية أى فى مصر والسودان وفلسطين والعراق وجنوب اليمن وقبرص ، بل بخبرتها الاستعمارية فى الشرق البعيد والقريب أى الهند وبورما حتى هونج كونج ، ولذلك كانت تدل بهذه الخبرة على الولايات المتحدة ، وترى هذه الأخيرة ، من (المحدثين) الذين لايعرفون كيف يدار الشرقيون ، ومن هنا عارض الانجليز فى خلع فاروق أولا ، وفى اسقاط الملكية ثانيا ، وقد استمر هذا الخلاف فترة طالت شهورا . فبقى

النظام الملكى قائما فى مصر حتى يولية سنة ١٩٥٢ ، ففى هذا التاريخ رجحت كفة السياسة الأمريكية ، وتقرر اسقاط الملكية واعلان الجمهورية .

ولقد انتهز فاروق هذا الخلاف فى المعسكر الاستعمارى فشن حملة على الثورة ، ولكنه لم يجد نقطة ضعف فى البناء الذى تولى الحكم بعد عزله إلا شخص كاتب هذه السطور . ففى أول الثورة توارى مجلس قيادة الثورة ، فلم يتول من الضباط الشبان أو زعيمهم اللواء محمد نجيب شيئا من مناصب الدولة ، لم يعين منهم أحد فى مناصب الوزراء ، ولم يتول رئيسهم لا الوزارة ولا غيرها ، وكان هؤلاء الشبان مجهولين لم يسمع العالم عنهم شيئا قبل ثورتهم التى وضعتهم على رأس الحكم فى أشد نقط الشرق العربى حساسية ونفاسة .

ولذلك لم يحاول فاروق الهجوم على محمد نجيب ولا على أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكنت السياسى المدنى الوحيد ، وكان فاروق يعلم شيئا عن حياتى السياسية أثناء وجوده على العرش ، وكان السفراء الانجليز والأمريكان ، يحبون أن ينظروا إلىّ بوصفى شيوعياً وقد اثبتت المراسلات المتبادلة بين السفراء ووزارات الخارجية فى لندن وفى واشنطن أنهم كانوا لا يدخرون وسعاً فى إثبات لونى الشيوعى المزعوم . وقد أعانهم على ذلك أننى اخترت عضوا فى مجلس السلام العالمى الذى انعقد فى وارسو قبل قيام الثورة مباشرة ، ولم يغير فى الموقف الإستعمار ، أننى اخترت لهذه العضوية بدون الرجوع إلىّ أو



الكاتب الكبير فتحى رضوان مع البكباشى جمال عبد الناصر مفجر ثورة ٢٣ يوليو .

أخذ رأيي ، أو مجرد اخطاري ، هذا فضلا عن انني لم أحضر جلسة واحدة من جلسات هذا المؤتمر .

والدوائر الاستعمارية في انجلترا والولايات المتحدة وكل غرب أوربا جد حساسة لكل من تعاون مع الاتحاد السوفييتي قبل ثورة ١٩٥٢ ، لشدة خوفهم من زحف التيار الشيوعي المستمر ، فأحسنوا استغلال هذه الملابسات التي اتصلت بي ، بلا عمل ولا سعي ولا نشاط من جانبي ، في تعليقاتهم عقب اختياري وزيراً في الوزارة التي شكلت في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد قيام الثورة بشهرين ، واعلنوا بأعلى الصوت ، وفي كل مكان أن في صفوف زعماء الثورة شيوعيا هو فتحي رضوان ، وتلقف الملك فاروق هذه الدعوى ، واتفق مع صحفي بريطاني شهير من المحافظين ، يدعى (دارد برايس) ، على أن يكتب سلسلة من أربع حلقات ضد الثورة ، حشاها بحملة ضدي ، وسيرى القارىء تفصيل هذه الحملة في الفصول التي يتكون منها هذا الكتاب .

ولكن اكتفيت بالاشارة اليها ، لتوضيح موقف الملك فاروق من الثورة ، وكيف أن سوء سمعته ، في العالم أعان الثورة على تشديد قبضتها على البلاد ، وتثبيت قدميها في الحكم .

الثورة ثورة :

يبدو أنني فتحت قوساً كبيراً ، طال فيه استطرادي ، في موضوع هل ما حدث في ٢٣ يوليو كان ثورة أم انقلاباً .

واحسب أنه بعد هذا الذى سقته فى هذا الموضوع ، لم يعد ثمة شك فى أن ما جرى فى ذلك اليوم كان ثورة ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى لأن الانقلاب ، هو عمل مادى بحت يتغير به شخص الحاكم ، فيذهب حاكم ويأتى حاكم غيره ، دون أن يتغير شىء فى نظام الحكم أو فى أسسه ، فانقلابات أمريكا الوسطى ، التى يقوم بها ضابط كبير أو صغير ، ضد الحاكم القائم أو (الجنتا) الحاكمة أى الجماعة العسكرية الحاكمة ، لا تسمى ثورات . لأن التغيير المترتب على الانقلاب يكاد يكون معدوماً ويبقى كل شىء فى البلاد التى شهدت الانقلاب كما هو .

أما ما حدث فى مصر بعد ٢٣ يوليو ، فيعد تغييرا شاملاً ، لم يدع شيئا إلا غيره ، ولم يغير الهياكل الخارجية ، والمظاهر فقط ولم يغير الأسماء فقط ، بل غير الجوهر تماماً .

والذين لا يوافقون على التغيير الذى تم .. من حقهم أن ينقدوه بل من حقهم أن يرفضوه ويستنكروه ، من حقهم أن يثبتوا أن مصر كانت أحسن حالاً قبل الثورة ، فكل هذا لا ينفى أن ما حدث هو ثورة ، إذ لا يكفى أن يقع فى بلد ما ثورة ، حتى ينصلح حالها ، وينقلب الفساد خيراً ، والجوع شبعاً ، والاضطرابات نظاماً . فقد تفشل الثورة فى تحقيق أهدافها ولكنها تبقى ثورة . كذلك قد يبقى الانقلاب ويستمر ويحقق أهدافه ولكنه لا ينقلب بذلك إلى ثورة .

تماماً كما لو رزق انسان بنتاً ، وكان يتمنى ان يكون له ابن ذكر ، ومع ذلك فإن هذا الولد ، ولد عليلاً كثير الأمراض ، ولم ينجح لا فى

تعليمه ولا فى حياته العملية ، ولكنه يبقى ذكراً . وقد يرزق الرجل نفسه ببنت صحيحة البدن ، ذكية ، تنجح فى المدرسة وبعد المدرسة ، ولكنها مع ذلك تبقى بنتا . فالثورة والانقلاب جنسان مختلفان فى الطبيعة ، بغض النظر عن النجاح والفشل .

محمد نجيب :

وقد كان من أبرز سمات ثورة ٢٣ يوليو ، أنها كانت مجموعة من الشباب لم يبلغ أى منهم الأربعين من عمره ، ولكن كان على رأسهم رجل مكتمل الرجولة ، فى رتبة اللواء ، وهى أعلى رتب الجيش حتى سنة ١٩٥٥ . فلم يتجاوزها طوال زمن الاحتلال والزمن الملكي ، أحد سوى ضاط واحد ، قضى أكثر عمره فى وظائف الشرطة ، هو الفريق محمد حيدر مدير مصلحة السجون ، وياور الملك .

وقد كان محمد نجيب منذ اللحظة الأولى للثورة علامة إستفهام كبيرة ، وقد بقى هكذا حتى توفاه الله سنة ١٩٨٤ وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وقرب من التسعين .

كان محمد نجيب ضابطا حسن السمعة شجاعاً ، إمتاز دون أكثر زملائه ، برفضه الخضوع والاذعان لا للملك فاروق ، ولا الحاشية العسكرية والمدنية . وكانت له مواقف مذكورة من ضباط الملك ، الفريق محمد حيدر باشا الذى سبقت الأشارة اليه .

وقد شارك محمد نجيب فى حرب سنة ١٩٤٨ ضد اليهود فى فلسطين ، فأبلى بلاءً حسناً ، وأصيب ثلاث مرات أحداهما كانت فى الصدر فوق القلب ، ولذلك كادت تكون اصابة قاتلة .

وكان فوق ذلك موظفا عف اليد ، لم يطمع قط في المال العام ولم يأخذ منه مليماً واحدا .

ولذلك وقع اختيار الضباط الشبان عليه منذ اللحظة الأولى ، فكان اختياراً موفقاً ، فقد اثبتت الأيام بعد ذلك أنه كان يتمتع إلى جانب شجاعته الفائقة ، ونزاهته الكاملة ، بجاذبية لا تقاوم ولذلك ما كاد يقع نظر الشعب عليه وهو يلوح بقبعته العسكرية ، حتى تعلق به ، ووقع في حبه . فأصبح يجرى في أعقاب موكبه ، وهو منجذب اليه ، مشدود الى شخصيته ، يود أن يلمسه ، أو يقبله أو يعانقه لو استطاع وقد أمتحن محمد نجيب امتحانا عسيراً ذلك أنه ورث الزعامة الشعبية عن زعيم أحبه المصريون غاية الحب ، وتغنوا باسمه في المظاهرات والاحتفالات ، ذلك هو مصطفى النحاس باشا .

وقد كان الظن أن الزعيم الجديد سيبقى بعيداً عن قلب الشعب ، وفاء من الشعب لزعيمه القديم ، ولكن الذى حدث أن الزعيم الجديد أنسى الشعب حبيبه القديم بلا أدنى جهد فمحمد نجيب ، لم يبذل جهداً ليغزو قلب الأمة ، وليحتل في هذا القلب مكان البطل الأول المحبوب ، فمن اللحظة الأولى ، تعلم الناس ، كيف يرددون اسمه ، وكيف يشترون صوره ، وكيف يرفعون هذه الصور في المظاهرات والمواكب وكيف يلصقونها في الدور والأماكن العامة .

وقد كانت له خاصية تميز بها وتفوق على سلفه ، تلك هي حب الأطفال الشديد له ، فما من اجتماع عام إلا جاءت إليه الأمهات ومعهن

أطفالهن حتى تحلق الأطفال حول محمد نجيب ، يتعلقون به ، ويتسلقون اكتافه ، ويقبلونه ، وهو يحملهم فوق ذراعيه مثنى وثلاث ورباع ويقبلهم ويعودون إلى أمهاتهم وهم يتسابقون فى منظر جميل كأنهم الحمائم البيض . وجاء حب الأمهات بعد حب الأطفال ، فقد كن يقتربن من الزعيم الجديد ويقدمن له (الأوتوجرافات) ليوقع لهن باسمه ، فلا يمل ولا يتعب ويوقع المئات فى هذه الدفاتر ، وهو راض ومبتسم ، يوزع دعاباته ، التى تضحك وتزيد من حب الناس له ، وتعلقهم به .

وقد كانت لهذا الزعيم الجديد خاصية جديدة هى أن الأشاعة ، صنعت له نسباً فقد قيل أن امه سودانية ، أو نوبية ، وأعان على رواج هذه الاشاعة ، طريقته فى نطق اللفظ العربى شبيه بالنطق السودانى أو النوبى ولعل مرد ذلك أن والده وخاله وربما عمه أيضاً - قد كانوا ضابطاً فى الجيش المصرى بالسودان ، وأنهم ماتوا ودفنوا هناك . فتطبع بطبعهم ، وحاكاهم من حيث لا يدرى بنطقهم ، ولذلك أحبه أهل النوبة والسودانيون حباً شديداً وصدق بعضهم أن امه سودانية مع أنه كما قلت مصرى ولد فى قرية النجارية مركز كفر الزيات من أعمال محافظة الغربية ولكن محمد نجيب - وإن كان مصريا - قد أتاحت له نشأته فى السودان وتعليمه فى مدارسه ، فرصة التعرف على عدد كبير من رجالات السودان فى مقدمتهم عبد الرحمن المهدى باشا كما كان الفريق ابراهيم عبود زعيم الثورة السودانية التى أزال حكومتها جعفر النميرى سنة ١٩٦٩ - كان زميله فى المدرسة الحربية ، فى فرقة الملاكمة بها .



تحية من الرئيس جمال عبد الناصر الى شعبه الحبيب
ويقف خلفه المشير عبد الحكيم عامر وانور السادات .

وقد ثار جدل حول ما اذا كان محمد نجيب قد شارك فى تأليف جماعة الضباط الأحرار قبل الثورة أم أنه كان فى بيته فى الوقت الذى كانت فيه الثورة ، تبدأ أولى وقائعها بالنزول من معسكر الهاكستب ، لتحاصر مقر القيادة العامة فى كوبرى القبة ، أم أنه كان مشاركاً بالاعداد والتنظيم والتوجيه لهذه الأحداث الأولى .

والثابت فى هذا الصدد أن الضباط الأحرار تعرفوا على محمد نجيب ، وأحبوه ، ومنحوه ثقتهم قبل قيام الثورة . عرفوه عن طريق الصاغ عبد الحكيم عامر الذى كان أركان حرب اللواء الذى كان الأميرالاى محمد نجيب يقوده ، وقد أبلغ عبد الحكيم عامر زميله وصديقه جمال عبد الناصر باسم محمد نجيب ، وحدثه عن مزاياه ، وكل منهما فى خنادق القتال فى فلسطين . فلما انتهت الحرب ، وعاد الضابط إلى بيوتهم عرف بقية الضباط الأحرار محمد نجيب ، واعتبروه واحداً منهم . دون أن يشركوه فى اجتماعهم ، أو يسمعوا رأيه فى مداولاتهم ، وهو بلاشك كان فى بيته المتواضع جداً الذى لا يبعد كثيراً عن مقر القيادة العامة للجيش فى كوبرى القبة عندما كانت أولى عجلات (الطابور الميكانيكى) الذى خرج من الهاكستب وعلى رأسه بطل يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المقدم يوسف منصور صديق ، الذى يذكرنى دائما ببطل الثورة العرابية الأميرالاى (محمد عبيد) الذى ينتسب إلى نفس المركز الذى ولد فى أرضه محمد نجيب - مركز كفر الزيات .

ولكن لم يبق محمد نجيب فى بيته اتقاءً للمسئولية ، ولا خوفا منها ، إنما هكذا طلب منه ، وحينما اخبروه بأن الضباط الشبان وصلوا مقر القيادة العامة ، وأنهم يطلبونه ، ليتولى القيادة ، لم تكن الثورة قد نجحت ، ولم تكن المخاطر قد انتهت ، بل ان هذا هو بدء المخاطر والمتاعب ، فلو قررت حكومة فاروق المقاومة ، وأمرت قواتها بمحاصرة هذا المقر ، لاعتبر محمد نجيب قائد فتنة عسكرية ، ولضرب بالرصاص ، ولو مضت على الثورة أيام أو أسابيع . فقبول محمد نجيب تزعم الثورة في هذه الليلة وذهابه إلى مقر القيادة ، كان مجازفة تدل على شجاعته الكبرى وإيمانه بالثورة .

وبانضمامه إلى هؤلاء الشبان ، وضع رأسه على كفه ، وجازف بحياته وعمره ، ومنذ هذه اللحظة اصبح قائد الحركة أو أكبر المسئولين عن أعمالها . وقد حاولت وزارة نجيب الهلالى آخر الوزارات المدنية قبل الثورة أن تدخل مع محمد نجيب فى محادثات أو مفاوضات ، ولكن كان ذلك محاولة متأخرة جداً . فالثورة بدأت عجلاتها تسير ، وكان أعضاء هذه الجماعة الشابة قد أنتووا عزل الملك . ولم يدر بخلد أحد منهم ، ولا من الذين انضموا إليهم ، فى الساعات المبكرة مدى الأخطار التى يمكن أن تترصد خطاه فى أية لحظة ، تنتكس فيها الثورة وما أكثر انتكاسات الثورات .

جيلان يتصارعان:

لم يكن ممكنا أن يبقى محمد نجيب على رأس قيادة الثورة ، فقد

كان الفارق فى السن غير قليل ، شباب فى حدود الثلاثين مع رجل أو شيخ فى حدود الخمسين ولم يكن من مواهب محمد نجيب أن يحاول استمالة الشبان نحوه أو أن يوقع بينهم ليقسمهم ، ويبقى على رأسهم أو على رأس الأغلبية . وكان أحساسهم بأنهم تفضلوا عليه باسناد الزعامة إليه ، صحيح أنهم فى البداية كانوا فريحين بحب الشعب له ، وتعلق الجماهير به ، لأن ذلك الحب كان شهادة لهم بحسن الاختيار ، وكانوا يرون فى مظاهر التأييد الجارفة للزعيم الذى اختاروه ، دليلاً على نجاح ثورتهم ، واستقرارها ، وعلى ان المنافسة بين الثورة وخصومها ، قد حسمت لصالح الثورة ، بهذه الشعبية الضخمة التى ظفر بها محمد نجيب . وقد سمعت أكثر من عضو من الضباط الأحرار يعبر عن حبه لنجيب ، بل ذهب بعضهم إلى القول بأنه يحبه أكثر من أبيه . ولكن هذا التضامن بين عنصرى القيادة ، وحسن العلاقة بين هذين العنصرين لم يلبث حتى هزته الأحداث هزاً شديداً ، فقد نجح عدد من الضباط الشبان فى مختلف الأسلحة فى التعبير عن سخطهم لاستئثار أعضاء مجلس القيادة بالسلطة ، دون أن يبدو عليهم أنهم سيعيدون الحرية النيابية ولو بعد حين . وفى هذا الوقت نفسه إحس محمد نجيب أنه يبعد عن السلطة الحقيقية وقد سمعته ذات يوم فى أحد اجتماعات الصلح التى لم تكن تسفر عن شىء ، يقرأ تعليقا لاحدى الجرائد الانجليزية لعلها (جريدة التايمز) تقول فيه ان محمد نجيب آخذ فى الذبول ، وقال اللفظ الذى استعملته الجريدة ولكن كل محاولة صلح كانت غير مجدية ،

لأن أسباب الخلاف بين العنصرين لا سبيل إلى تجاهلها ولا إلى معالجتها . فمحمد نجيب مال فى مارس سنة ١٩٥٤ إلى خصوم الثورة ، فخشى الشبان أن يعاود محاولته في وقت لاحق .

وكان ممثلو النظام القديم قد تبينوا اتجاهات الثوار الشبان على وجه قاطع فأدركوا أن ليس لهم ولا لنظامهم القديم بقاء مع هؤلاء الشبان ، فزادوا من انحيازهم لمحمد نجيب ، والنظر اليه بوصفه رمز الحرية النيابية ، وتعدد الأحزاب فوسعوا شقة الخلاف بينه وبين جيل الشبان ، فكان لابد أن يختفي ، ولم يكن عنده - كما سبق القول - من وسائل المناورة ما يؤخر هذه النتيجة ، فضلا عن بساطته وصراحته وعدم وجود أنصار له فى الجيش يسندونه ، أو يخيفون أعداءه ، أما حب الشعب له وتعلق الجماهير بشخصه ، فلم يكن قوة يعتد بها ، لأنها قوة غير منظمة ، من جهة ، وغير مستعدة للنضال والقتال ، وكان أسلوبه يعين على خسارة المعركة لا كسبها ، فقد كان دائم التنقل بين وحدات الجيش ، وأماكن تجمع الجماهير ، دون أن يستقر فى مكتبه ، ليتابع تطورات الأمور ، ويحسن الاتصال بذوى المكانة أو التأثير والاستماع اليهم ، ووضع خطة عمل من أى نوع .

لذلك كان مصيره قد تقرر ، وكان عليه أن يتحمل آلام السقوط الرهيب ، الذى طال وقد زاد من هول هذا العذاب ، أن محمد نجيب لم يقبل التسليم بهذه النتيجة القاسية ، ولم يفقد الأمل فى إمكان تغييرها

حتى وافاه الأجل المحتوم فمضى معترفا من التايخ بفضله وبمزاياه الثلاث شجاعته ، ونزاهته ، وجاذبيته .

مع أعضاء مجلس قيادة الثورة وجها لوجه :

حينما دعيت لأقابل أعضاء مجلس القيادة مجتمعين في ظهر يوم أحد - بعد أن قابلت عبد الحكيم عامر وجمال سالم منفردين ، جلست في حجرة انتظار بمجلس القيادة في كوبرى القبة وأنا أتأمل في تطور الأحداث ، وسرعة تتابعها ، وفي أني لا أعرف من هؤلاء الشبان أحداً غير (أنور السادات) ، الذى تردد على مكتبى أكثر من مرة ، وكان في إحدى هذه المرات ، هاربا من وجهه البوليس والذى رأيته بعد ذلك في قفص الاتهام ، والذى لا أنسى قفزته من هذا القفص ، بعد أن فرغت من مرافعتى في قضية أمين عثمان باشا التى اتهم فيها أنور السادات ، بالتحريض على قتل هذا الوزير الوفدى ، وفيما أنا أدير هذه الذكريات في رأسى ، اذ بشاب يرتدى ملابس طيار يقف أمامى ويحييني بحرارة ، ذكر لى اسمه وذكرني بأنه حضر اجتماعا من اجتماعات حزبنا (الحزب الوطنى القديم) ، وأننا ذهبنا سويا بعد الاجتماع إلى دار جريدة الأخبار . استمعت لكل هذا ولم أكن أدرى أنه أحد أعضاد مجلس القيادة ، حتى دخلت إلى الحجرة التى اجتمع فيها أعضاء هذا المجلس . ففوجئت بهذا الشاب جالسا مع زملائه أعضاء المجلس وأنه عبد اللطيف البغدادى ، وفوجئت بعضو ثالث كان زميلى

في المدرسة الثانوية ببني سويف وهو يوسف منصور صديق ، وبذلك يكون من أعرفهم من صناع الثورة ، ثلاثة هم أنور السادات وعبد اللطيف بغدادى ثم يوسف منصور صديق .

ولكن حين أكتمل عقد المجلس ورأيت نفسي بينهم ، ورأيتهم جالسين مستعدين لسماع كلامي ، أحسست بسعادة عميقة فأنا مع الشبان الذين صنعوا الثورة ، شبان صغار ، لا يكفون عن مداعبة بعضهم بعضا ، فتفيض وجوههم بشرا ، وتعلو هذه الوجوه اشراقة الشباب ، والفرح بالنجاح ، والثقة بالنفس . وقد ذكرونى بالشباب الذى كان يولف اجتماعات الحزب الوطنى الجديد ، واجتماعات مصر الفتاة من قبل ، لقد سمعونا سنوات كادت تكمل العشرين عاما من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٥٢ ، وما كنا نظنه كلاما يذهب فى الهواء ، ثبت أنه أثمر ، فهؤلاء الشبان صدقوه ، وقرروا أن يحولوه إلى واقع ، وحقيقة ، وفعلا تم ذلك لهم . وحينما وصلوا إلى السلطة ، وواتت لهم الأمور ، وأصبحوا سادة انفسهم طلبوا منا ان نواصل الكلام معهم . ويومها شعرت بأن هذا الاجتماع يجب أن يسجل فهو صفحة من صفحات التاريخ الحديث . انتهى العهد القديم . انتهى عهد الخديو والملك ، وعهد البكوات والباشوات ، وعهد الكبار ، والفلاح المغلوب على أمره الذى يجد كسرة الخبز بشق النفس ، والعامل الذى لا يسمع له رأى فى شأن من شئونه هو أو شئون وطنه .

حضر أعضاء مجلس قيادة الثورة جميعا إلا اثنين : محمد نجيب لأنه لم يكن يسمح له بعد بحضور اجتماعات مجلس القيادة ، وجمال سالم الذى كان أكبر من أن يحضر اجتماعا سيتكلم فيه مدنى ، ومع ذلك فقد تحسنت فيما بعد علاقتى به ، وأصبحنا نجتمع سويا كثيرا ، ونتكلم طويلا ، ونضحك من أعماق القلوب .

وفى هذا الاجتماع حدث شىء يجب أن يسجل لأنه أصبح ذا دلالة فى قابل الأيام . فقد داعب أكثر الحاضرين ، ولا سيما كمال الدين حسين وصلاح سالم ، زميلهم أنور السادات ، مداعبات ثقيلة ، وعجبت أن أنور السادات قد احتملها فى حضورى ، فلم يبد عليه غضب ولا احتجاج ، ولم يتوقفوا عن هذا المسلك غير المفهوم حتى شغلهم الكلام الذى تبادلناه .

اسمان سقطا :

فى تاريخ سنة ١٩٥٢ اثنان أحدهما يذكر أحيانا ، ولكن دون أن يظفر صاحبه بما يستحق من الاجلال والتقديم ، وقد حاولت أن أرد اليه بعض حقه ولكنى أعتبر نفسى أنى لم أنجح تماما فيما قصدته .

أما الثانى فهو انسان غريب حقا ، عرف بين الذين احتكوا بالثورة وعانوا منها ، واحتكوا بها ولم يخاصموها ولم تخاصمهم ، ومع ذلك لا يقف أمامه المؤرخون ، ولا يحكمون ضده ، ولا يحكمون لصالحه كما فعلوا مع أشباهه الذين كانوا من أصحاب الأدوار التى تتم فى الخفاء

ولا يقع عليها النور ، ولا أقول الأدوار الثانوية ، لأن دوره كان خطيرا إلى أبعد الحدود .

أما الأول فهو المقدم يوسف منصور صديق ، الذى لولا خطأ وقع فيه فى صبيحة يوم ٢٣ يوليو بالذات لوئدت الثورة فى مهدها ، ولتعرض كل زعمائها أو على الأقل أكثرهم للموت .

وأما الثاني فهو حمزة البسيونى الذى وصل إلى رتبة اللواء ، والذى اسند اليه منصب مدير السجون الحربية ، والذى نسب اليه من الأعمال أو قل من الجرائم ، ما يرفضه الشيطان ذاته . ومع ذلك لم يظفر من الشهرة وذيوع الاسم مثلما ظفر زميله صلاح نصر مدير المخابرات .

وقد أبت الصدفة إلا أن تجعلنى قريبا من الاثنين عرفتهما قبل الثورة كثيرا ، ورأيتهما فى الحياة العادية ، ورأيتهما بعد الثورة ، وسمعتهما يتكلمان ورأيتهما يعترفان ، ومع ذلك بقيت علاقتى بكليهما من الظاهر ، فلم ادخل فى حياتهما بالقدر الذى يجعلنى صديقا وقد تأملت فى كليهما ، ووددت أن ارسم لكليهما صورة حتى ما أكتبه مرجعا لمن يريد أن يكتب عن هذه الثورة الكبيرة كتابة فيها تجرد واستقصاء .

أما يوسف منصور صديق ، فبطل بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، انضم إلى الضباط الأحرار ، وآمن برسالتهم ، وشاءت الظروف أن ينفرد وحده بدور حاسم فى الثورة ، تعرض فيه للموت أو الخطر الجسيم وهو يقوم به ، والثورة بعد لم تستقبل نور الحياة ولم يصدر القدر حكمه فى

شأنها : تبقى ام تطوى صفحتها ، وتنكس رايتها .

ومع أنه قد أدى دوره ، واحتمل عبئه ، واجتاز بالثورة مرحلة الخطر فإن بقاءه بين زملائه ، لم يطل يستمتع بالسلطة ويتذوق لذائذ الشهرة ، وصعد فى مراقى المجد ، كما صعد أخوانه وزملاؤه الذين لم يبذلوا بذله ، ولم يجاهدوا جهاده بل كان بعضهم أبعد ما يكون من الخطر ، يتلهى فى مكان للتسلية وازجاء الفراغ ، أو فى خارج القاهرة كلها ، بعيدا بمئات أو ربما بآلاف من الكيلو مترات ينتظر الأنباء بقلق ، ولكنه مع ذلك أمن على حياته .

كان على يوسف منصورصديق أن يقود طابورا (ميكانيكيا) من معسكر للجيش فى الصحراء ، كان اسمه (الهاكستب) وهو اسم امريكى اطلقته قيادة القوات التابعة للولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية التى استمرت سنة ١٩٣٩ حتى مايو سنة ١٩٤٥ وكانت ساعة الصفر المتفق عليها هى الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو ، ولكن لأمر ما ، تصور المقدم يوسف منصور أن الساعة الثانية عشرة هى الساعة الموعودة ، فحرك قواته ، فى اتجاه ضاحية هليوبولس مصر الجديدة حيث يوجد مقر قيادة الجيش الملكى فى كوبرى القبة وكان سر الثورة قد كشف بملابسة بسيطة ، ولكنها أدت إلى هذا الذى كان يمكن أن يقضى على الثورة تماما . فقد اجتمع فى عائلة واحدة ضابطان . احدهما مع الثورة والثانى ضدها . أما الضابط الذى انضم

إلى الثورة فقد كتم السر ولم يذعه إلا أنه قبيل ساعة الصفر ارتدى ثيابه الرسمية ، وترك داره ، فتساءلت أمه عن سبب تركه الدار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولم تكن تلك عادته ، فسألته إلى أين هو ذاهب ، فقال لها ، لمهمة طارئة ، فسكتت ، ولكن

لم يلبث حتى جاء ابنها الأكبر ، فى ملابسه المدنية ، ليرى أمه وأخاه ، فلم يجد الأخ الضابط فسأل عنه ، فأجابته أمه بما سمعت من ابنها ، فشرد ذهن أخيه ، وعرف في الحال ، ان هذه المهمة الطارئة التى تعلل بها شقيقه لا يمكن أن تكون إلا عملا ثوريا مخالفا للتعليمات ، لأن خروج ضابط من داره فى الليل المتأخر وبملابسه الرسمية لا يمكن أن يكون لعمل رسمي ، والا لعرف فهو ضابط مثل أخيه ، والحالة فى الجيش وفى البلد عادية وهادئة . فأسرع الضابط إلى رؤسائه ، ولأن الوقت كان صيفا ، فكل القادة فى الاسكندرية ، فقد اتصل بمقر القائد العام ، وفى الحال اتصل القائد العام بأعوانه فى القاهرة وفى الاسكندرية وأمرهم أن يجتمعوا فى مقر القيادة ، وأن يتصلوا بمعاونيهم ، ليذهبوا إلى مكاتبهم فى المعسكرات المختلفة ، ويراقبوا الأحوال ، ويتخذوا الاجراءات التى يستدعيها الموقف . ولو تأخر (الطابور الميكانيكى) الذى كلف يوسف صديق بقيادته حتى ساعة الصفر أى الساعة الواحدة لسبق المعسكر الملكى إلى المواقع الرسمية التى تمكن من قطع الطريق على الثوار ولكن رحمه الله ، وقوع يوسف صديق فى خطأ ، جعله يعجل بالذهاب إلى مقر القيادة العامة

حيث اجتمع كل القادة الرسميين ، ولم يكن الوقت قد اتسع لهم بعد ليصدروا الأوامر ويستدعوا رؤساء الفرق والوحدات ، وهناك فوجىء القادة بالطابور الميكانيكي يحاصرهم ، وعلى رأس هذا الطابور بطلنا يوسف صديق

وكان اجتماع هؤلاء القادة خدمة جليلة للثوار فقد سقطوا في قبضة الثوار دفعة واحدة ، ولو لم يحدث هذا لكان على الثوار أن يطوفوا ببيوت أو مكاتب هؤلاء الضباط الكبار واحدا واحدا ، وهذا يكلفهم جهدا وربما يعرضهم للخطر اذ كان من المحتمل أن الدولة تكون قد تنبهت لقيام الثورة واتخذت ما يلزم لمواجهتها ، ولذلك كان العمل الذى قام به يوسف صديق عظيما ، ولكن هذا العمل لم يقف عند هذا الحد فقد هاجم يوسف مقر القيادة ، فقاوم جندى على الباب ، واقتحم يوسف المدخل ، وسقط الجندى قتيلا ، وجرح على ما أذكر آخر ، وصعد يوسف إلى الدور الأول حيث كان القادة مجتمعين ، فألقى عليهم القبض جميعا ، وأودعهم بعدذلك في أماكن تابعة للقوات المسلحة تحت حراسة كافية وبذلك سقطت الدولة الملكية بعد هذا الهجوم المظفر ، حيث آلت الأسلحة المختلفة إلى القيادة الثورية ، وبهذا حرمت هذه الدولة من حماية الجيش .

ولكن يوسف صديق كان يساريا شديد الانحياز لليسار ، لذلك لم يكن ممكنا أن يتفق مع عبد الناصر وأخوانه ، ولما وقعت حوادث مارس

سنة ١٩٥٤ ، كان يوسف مع الداعين إلى إعادة الديمقراطية وقد كتب مقالا نشر في جريدة الجمهورية دعا فيه إلى تأليف وزارة محايدة برياسة المستشار وحيد فكرى رأفت . واشتد الخلاف بين يوسف وباقى الضباط الأحرار ، مما استدعى اعتقاله فى اسوان ، وتم اسناد وظيفة له في سويسرا على سبيل الابعاد ، ولما استقر الأمر لعبد الناصر أطلق سراح يوسف ، ويقى بعيدا عن الحياة العامة . حتى توفاه الله . هذا هو صاحب الاسم الأول .

أما صاحب الاسم الثاني فهو حمزة البسيونى . الذى عرفته شابا صغيراً عندما كان طالبا فى جامعة القاهرة قبل أن يتحول إلى الكلية الحربية وكان منتسبا إلى مصر الفتاة ، وزميلا ملازما لاثنين ، لايفترق عنهما هما عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين فيما بعد ، وعبد الوهاب حسنى الذى لعب دورا ظاهرا فى حركات الشباب ، فى الفترة السابقة على توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وما بعدها ، والذى كان نموذجا للشاب الفياض بالحيوية ، والقادر على مزج الدعابة بالجد ، والعنف باللطف .

ولما بدأت أحاديث وقصص التعذيب فى عهد الثورة ، تتكاثر ، أخذ اسم حمزة البسيونى يتردد على سمعى فكنت اسمعه ، دون أن اتوقف أمامه ، ولو للحظة ، إذ لم يخطر على بالى قط أن حمزة البسيونى الذى يذكر الناس اسمه مقرونا بقصص التعذيب يمكن أن يكون حمزة البسيونى الذى كنت أعرفه ، وتصورت أن بطل القصص التى تروى ،

شخص آخر غير حمزة الذى أعرفه جيدا وأن الأمر لا يعدو أن يكون تشابها فى الأسماء .

فقد كان حمزة البسيونى الذى أعرفه انسانا جميل الطلعة ، يبلغ من البساطة والطيبة ، حد السذاجة ، وكان يشارك فى مظاهرات الجامعة ، ويتصدى للبوليس بشجاعة ، وفى مرة رأيته فى حديقة الجامعة حافى القدمين يحمل فى يده خرطوم الماء الضخم ، ويصوبه إلى رجال الشرطة وهم يفرون أمامه ، وهو سعيد بهذه المطاردة كأنه طفل غرير .

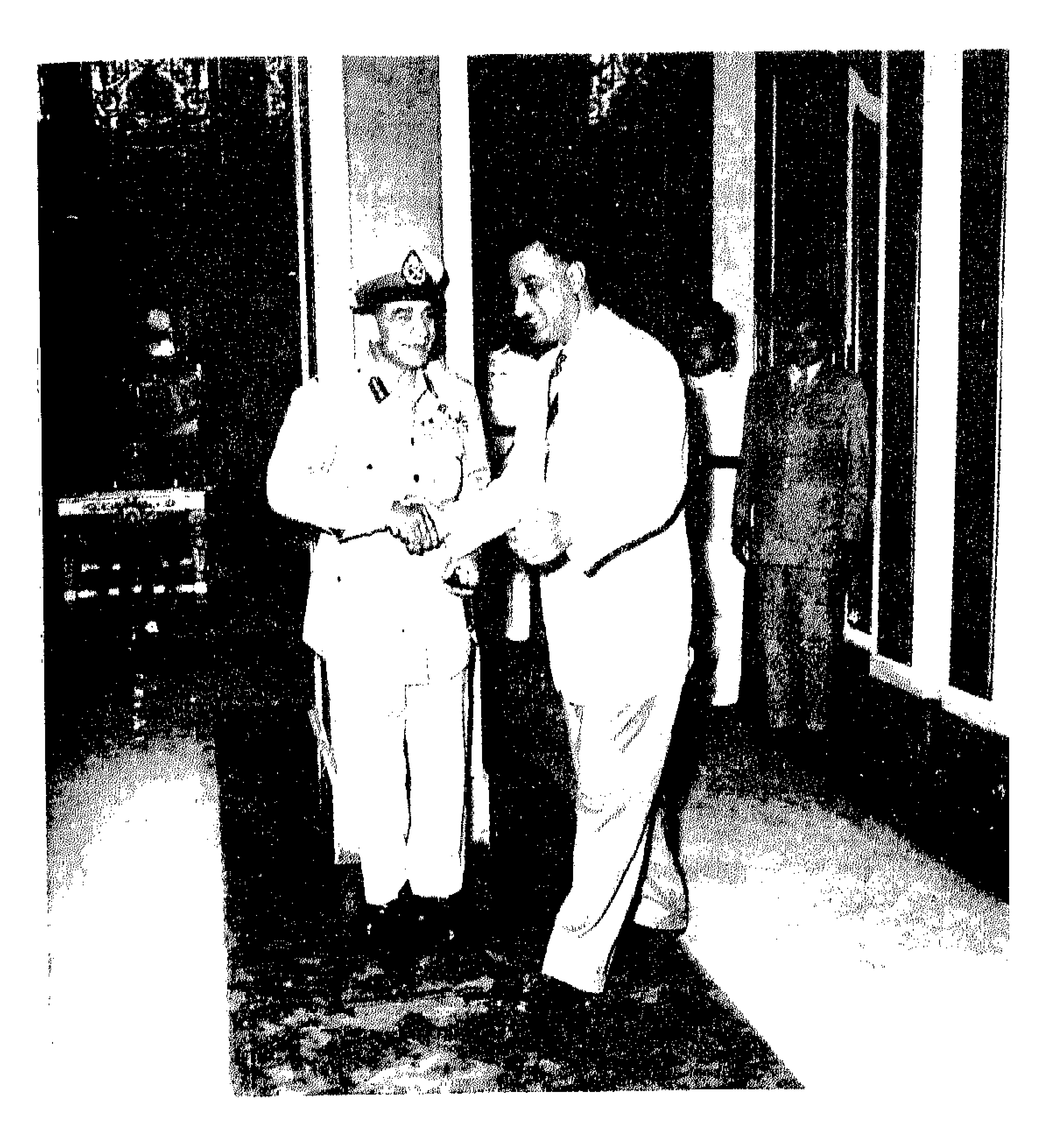
ثم حدث ظرف جعل حمزة البسيونى الذى أصبح ضابطاً صغيراً فى الجيش يتردد على مكتبى ، اذ اتهم بقتل زميل له خطأ فى شقة كان يستأجرها مع اثنين من زملائه الشبان العزاب ، فقد أقام الشبان الثلاثة وآخرون من زملائهم حفلة فى احدى المناسبات ، وأخذ حمزة يطارد زملاءه بمسدس كان يظنه فارغا ، وانطلقت منه رصاصة خطأ وأصابت أحد الضابط الذى توفى فى الحال وأقام أهل المجنى عليه دعوى ضد حمزة ، فطلب منى أن أحضر عنه فيها ، فلبيت طلبه وطال أمد هذه القضية لسنوات ، فكان يتردد على مكتبى ، وفى كل مرة أزداد ايمانا بأنه مثال البساطة والسذاجة ، وأحيانا كان يزورنى والده الذى كان من رجال القضاء الشرعي ، وكان يطيب لى التحدث معه ، فقد كان وجهه ، يفيض سماحة ولطفاً ، فضلا عن جماله وحسن قسماته . وانصرف ذهنى عن موضوع حمزة البسيونى الذى اسمع أموراً تكاد لا تصدق ، حتى كنت ذات يوم فى محطة مصر ، لأستقل القطار

إلى الأسكندرية وكنت وقتها وزيرا للمواصلات ، فإذا بضابط ضخم في رتبة اللواء يعترض طريقي ، ويحييني تحية عسكرية بحماسة شديدة ، فرددت التحية ، دون أن التفت كثيراً إلى وجهه لاعتقادى أنه أحد الضباط عرفني ، فحياني إلا أن هذا الضابط مد يده مصافحاً ، ووجه اليّ الكلام سائلا عن صحتي ، فنبهني صوته إلى شخصه ، فنظرت إليه فإذا هو حمزة البسيوني الذى أعرفه ، وقد تغيرت ملامحه ، فقد امتلأ جسمه وترهل ، وأصبح شاربه كثا غليظا ، ودب الشيب في شعر رأسه ، فسألته : أين أنت الآن يا حمزة . فبدت عليه الدهشة أو قل الارتباك الذى لم ألحظه . وقال باقتضاب . في الجيش يافندم . فتبادلت معه جملا مما يقوله الناس في هذه المناسبات ومضيت لألحق بالقطار . ولما أخذت مكاني في عربة القطار ، تقدم أحد الأشخاص ممن يعرفونني ، ولفت نظرى إلى أن حمزة البسيوني استمر واقفا على رصيف المحطة ، فاندهشت لحرصه الشديد على مجاملتي مع أن صلتي به كانت انقطعت لسنوات عدة . وحييته بايماءة برأسي ، وانشغلت اتصفح الجرائد في حين كان اسمه يتردد على ألسنة عدد من ركاب القطار . فعلمت أن حمزة الذى أعرفه ، هو حمزة صاحب الشهرة العريضة . ولما تحرك القطار ، نحيت الجرائد جانباً ، ورحت اتأمل في غرائب الحياة . فهذا الضابط الذى يعتمد في قسوته وشدته على تعذيب الناس ، وايلامهم ، وإخافتهم و هو نفسه هذا الشاب الذى كان من أشد الشبان كرها لاستبداد الحكومات وظلمها ، وأشجعهم في

مقاومة جنودها ، وهو بعد هذا الانسان الساذج الذى لا تتصور أنه يمكن أن يضمر فى نفسه شراً ، أو يلحق بإنسان أذى . وتساءلت . أيكون ما يذاع عنه اختلاقاً وتلفيقاً لا أصل له . أم يكون مبالغة من الناس وتهويلاً ، أم يكون خالصاً ، وأن حمزة البسيونى هو شخصان متناقضان كل التناقض احدهما ملاك وثانيهما شيطان .

فالعلم الحديث يقول الآن أن هناك من الظواهر النفسية ظاهرة ازدواج الشخصية . ثم نسيت كل شىء عن هذا الموضوع . وبعد شهور كنت اتمشى فى شارع السباق بمصر الجديدة التماساً للترويح وبعض الرياضة ، واذا بى وجها لوجه مع حمزة البسيونى وقد بدا عليه مزيد من آثار تقدم السن ، فأقبل علىّ محييا ، ولم أزد عن رد التحية ومضيت فى حال سبيلى ، وكان بوده أن أدعوه إلى السير معى ، أسأله عن حقيقة ما نسب اليه . ولكنى لم أفعل ...

ومضت سنون حتى علمت أنه توفى إلى رحمة الله فى حادث سيارة فاجع فأفلتت منى فرصة استجلاء هذه الظاهرة الفذة .



زيارة اللواء محمد نجيب لزعيم الثورة جمال عبد الناصر اثناء الاحتفال بيوم عيد الجمهورية المصرية « العام الأول » .

الفصــل الأول

غبــار التطهير وقـذائف بين نجيب وجمـال سـالم

● بعد قيــام ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد تأليف أولى وزارات الثـورة في السـابع من سبتمبر من تلك السـنة ، حدث أمر لم يقع من قبل في بلد غير مصـر ، ولعله لم يقع ، بعد ذلك ، في مكان آخـر . فقد كانت شكوى مصر ، منذ مطلع عهد الاحتلال البريطاني الذي بدأ في الرابع عشـر من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، من الأداة الحكومية ، ومن كثـرة الموظفين ، وتضـخم مـرتبـاتهم على مـر الأيام ، وقلة كفـايتـهم ، وانتشـار الرشوة في صفوف بعضـهم ، وتعقد القوانين وكثرة تغييرها . ومئات ، بل وآلاف ، من اسـباب الشكوى لم تنقطع - على تعدد الحلول وتنوع الأطبـاء . ومن هـنـا كـان أول مـا فكرت فـيـه الثـورة - بعـد الاصـلاح الزراعي - هـو « اصـلاح الأداة الحكومية » . وكان في رأي بعض وزراء الثورة ، أن الخطـوة الأولى لهذا الاصلاح هي طرد الموظف الفاسـد ، والمحظـوظ ، والعاجز .

ولكن .. كيف نضع أيدينا على هؤلاء وحدهم ودون غيرهم ، فلا نظلم معهم الأكفاء .. والمتشددين والمكروهين ، لأنهم « حنبليون » لا يستجيبون لدواعي المجاملة ، ولا يغمضون العين عن القليل من الفساد الذي يعتبره البعض (كالزيت) الذى لابد منه لتليين تروس الآلة ؟ .

اخيرا .. اهتدى المشرعون إلى طريقة قانونية (ديمقراطية) لاجراء ما سمى (بالتطهير) . وخلاصة هذه الطريقة ، أن ينتخب كبار الموظفين واحدا منهم يثقون فيه ، وينتخب صغارهم واحدا يثقون به . ثم يرأس الأثنين قاض من المحاكم بدرجة متوسطة . فلا هو من المبتدئين ، ولا هو من الكبار المشغولين بأعباء القضاء الكبرى . ولما كان عيب (الديمقراطية) الأصيل ، هو أن وسيلتها هى الانتخاب ، وأن الناخبين (بشر) ، تجوز عليهم الأكاذيب ، وينطلى الافتراء ويتأثرون بالهدية ، وبالرشوة ، وبالكلام المعسول ، كما أنهم يخافون القوى ، حاكما كان ، أو صاحب مال ، أو جاه ـ فالانتخابات لا تهتدى إلى « الرجل الصالح » لانه ، فى أغلب الأمر ، رجل متوسط الحال . صادق لا يكذب حى لا ينسب لنفسه الأفضال والمواهب . لا يوزع الوعود يمينا ويسارا بلا حساب ، فيفتح الطريق لأصحاب الأصوات العالية ، ولذى الوجوه الصفيقة ، ولمن عنده مال ، ولمن وراءه جاه فإذا المجلس النيابى صورة من هذا الفساد ومرآة له .. ولكن الانتخابات ، مع ذلك كله ، هى « الوسيلة » التى لم يستطع المصلحون . وأساطين التشريع ، أن ينصحوا بسواها .. ومن هنا قالت الثورة : « انتخبوا خياركم .. ليطردوا شراركم » .

● فماذا حدث ؟

● ● في أول عهدى بالوزارة ، كان مكتبى - كوزير للدولة - يقع في مبنى مجلس الوزراء .. وجاء أحد رؤساء اللجان المنتخبين لتطهير المجلس (مجلس الوزراء) من الفاسد ، والمرتشى ، فرأيت - برؤيته - أغرب وأعجب شخصية من المستخدمين والموظفين في مصر . ولما كان هذا الرجل نموذجاً لغيره ، وشديد الإتصال بالأحداث ، فإني أستأذن القارىء الكريم في أن أطيل الحديث عنه قليلاً ، ولكن لأن الرجل مات من جهة .. ولأنه من جهة أخرى ، لم يكن شخصية سياسية ، فسأدخل على الأحداث بعض التغييرالذى لا يمس جوهرها ، حتى لا أكشف عن شخصية إنسان أصبح في رحاب الله .

جاء سكرتيرى الخاص يوماً ليعلن . أن الأستاذ (ولنقل عبد السميع) يريد مقابلتى ، وسألت : من يكون الأستاذ عبد السميع هذا ؟ فقال السكرتير : « إنه موظف كبير ، وإنه رئيس لإحدى لجان التطهير » . فسألت سكرتيرى . « وما الذى يريده منى ؟ » . فأجاب : « إنه يقول إن الموضوع شخصى بحت ، وإن كان له جانب عام خطير إلى أبعد الحدود وقد رفض ، رفضاً باتاً ، أن يضيف إلى هذه الإجابة المثيرة حرفاً واحداً » .

وتحرك فضولى ، فأصبحت شديد اللهفة على مقابلته ، ومعرفة هذا الموضوع (الشخصى جداً) . وذى الإتصال بشأن عام ، وهام .

ودخل إلى مكتبي ، رجل تجاوز منتصف العمر ، يبدو عليه شيء من الإضطراب ، يسبغ على نفسه مظهراً من التأدب المبالغ فيه . فحييته ودعوته الى الجلوس .. فإعتذر عن قبول الدعوة ، فلما تشددت .. قبلها . وجلس على طرف المقعد ، وقبل أن يتكلم سألته عن وظيفته ، مؤهلاته ، والعمل الذي يباشره في مجلس الوزراء ، وعن رأيه في العمل قبل الثورة ، وما يستحسنه من أسلوب هذا العمل ، وما يستهجنه .. ولم أظفر منه بشيء ذي قيمة ولكني فوجئت به يقطع حديثه ، ويقف . وخيل إلي أنه يود أن ينصرف لأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه على أن يعود .. ولكني وجدته يقف ، ويستمر في الكلام واقفاً !!. فلم أفهم هذا التصرف ، وسألته : « لماذا وقفت ، هل تود الإنصراف الآن لنستكمل الحديث بعد حين ؟ » فإذا به يقول : « أبداً .. أبداً .. لم أصدق أن وقتك سيسمح بإستقبالي وسط المشاغل ، والمواعيد ، والمقابلات التي إستطعت بسبب وجودي في ديوان الرياسة ، أن أكون فكرة عن ضخامة عبئها » فقلت له متعجباً : « وفيم وقوفك إذن ؟ » . قال : « لأني هكذا أكثر إرتياحاً » . فقلت له : « تعني إنك تحسن الكلام واقفاً منك وأنت جالس .. أكنت مدرساً قبل أن تأتي إلى هنا ؟ » فصاح صيحة قصيرة ، وخافتة ، معلناً إعجابه الشديد بذكائي وقال إنه ، بالفعل كان مدرساً ولكنه لا يقف بسبب الإعتياد ، ولكن لسبب آخر . فقلت له : « وماذا يكون ؟ » وكم كانت دهشتي حينما سمعت هذا « المدير الكبير » يقول : « لأني أخشى أن تفسد معاليك أخلاقي » !.

وخيل إلى أن بعقل الرجل مساً ، ولكنى رأيته على حالة من التنبه والهدوء . وقبل أن أسأله : « كيف تفسد أخلاقه إذا جلس ، وكيف تنصلح أخلاقه إذا وقف ؟ » .. قال : « يا معالى الباشا .. إن الرؤساء جميعاً لا يطيقون أن يخاطبهم مرءوسوهم وهم جالسون .. ولم أر وزيراً يخاطب حتى وكلاء الوزارة إلا وهو جالس وهم وقوف بين يديه، لا يبدأون بالكلام إلا إذا وجه اليهم الخطاب . وقد ربيت على هذه المبادىء وأصبح الحرص عليها ، والتمسك بها ، ديدنى ورأيى ، فإذا إعتدت الجلوس أمام الوزير ، فإنى أخشى أن أستمرىء هذه العادة ، فأفعل هذا مع غير معاليك فأفقد عطفه إلى الأبد .. فلا تضيع على مستقبلى . ودعنى أتكلم واقفاً » ! وعبثاً حاولت إجلاس هذا « المدير الفذ » !

ولكن .. لقد كانت فى جعبته مفاجأة أكبر . فقد قال : « يا معالى الباشا أرجو ألا تغضب منى إذا علمت أننى جئت أتطفل على مائدة علمك ، وأن ألتمس منك فتوى قانونية ، وأنا أعلم أن هذا إجتراء منى ، وسوء خلق ولكنى مضطر إلى هذا إضطراراً » . فهدأت من روعه . وإن كنت لم أتأثر قليلاً ولا كثيراً بهذه الألفاظ التى كان يمكن أن تمس شغاف قلبى فى ظرف آخر ، فقلت له : « تفضل .. ماذا تريد ؟ » فقال : « إنى جئت أشكو إليك حظى العاثر الذى لا علاج له ، فأنا أخ شقيق لشرفى بك » . وتنبهت ، فى هذه اللحظة ، للشبه بين لقب هذا المدير ، ولقب « فلان بك » الذى أشار اليه . فقلت له : « وأى حظ عاثر

فى أن تكون شقيقه ؟ » قال : « لابد أنك عرفت أنه وجد فى شقته منتحراً » فقلت له : « أعرف .. رحمه الله . وماذا فى هذا ؟ » قال : « إنه إنتحر لأنه وجد أن له صلة ببعض النشاط المخالف للقانون ، ولذلك فإنى أود أن أتخذ إجراء أتبرأ به منه ، ولقد أمرت بعض أفراد الأسرة لينقلوا جثته من مدافننا ، ويلقوا بها ولو فى مقابر الصدقة » !.

وفهمت المعنى الذى قصد اليه هذا المدير ، وهممت بأن أطرده من مكتبى ، ولكنه إندفع يقول : « أرجو ألا تقسو علىّ ، وأن تفهمنى معاليك جيداً ، فلقد نشأت على أسس من الأخلاق تعد الخروج على القانون أشبه بالكفر . فماذا أفعل ليعلم الناس جميعاً أن (شرفى) ليس أخى .. وأننى أبرأ الى الله منه ومن علاقتى به » .

***

لقد خيل إلىّ هذا المدير المسكين أنه سيناله بعض الشر ، أو الشر كله لكونه شقيق « شرفى بك » .. وقد غلبنى الإشمئزاز من هذا التشوه الذى أصاب نفساً إنسانية فأخرجها عن طبيعة البشر ، فأحنيت رأسى خجلاً ، ولم أستطع أن أرفع وجهى حتى لا تقع عيناى على وجهه . وبعد فترة صمت قلت له ، وأنا أنتزع الألفاظ إنتزاعاً : « مثل هذا الكلام يضرك أبلغ الضرر ، وسأعتبر نفسى أنى لم أسمع منك شيئاً . وإذا أعدت منه حرفاً واحداً على مسمعى فى أى وقت آخر فلن أكتفى بطردك من وظيفتك ، بل سوف أطاردك أينما كنت » .

وحسبت هذا التهديد سيفزعه ، وسيجعله يكف عن هذا الغثيان المقزز .
ولكنه إندفع نحوى وهو يقول : « إفعل بى ما تشاء ، ولكن إنقذنى أولاً
من هذه الصلة التى لا يد لى فيها ولا ذنب » !

وكلما زدت أنا إمتعاضاً . وكلما بدا علىّ الإحتجاج . زاد هو
تضرعاً وتوسلاً . ولم يوضع حد لهذا الموقف الشاذ . إلا بأن أخرجته
بيدى من المكتب إخراجاً وهو يواصل تمثيله . دون أن يفقد من
تماسكه ، ومن ثقته بنفسه ، وإصراره على تمثيله المفضوح ،
قليلاً أو كثيراً .

***

لم يكن هذا سوى نموذج لموظف كبير ، حاز ثقة زملائه ، ونجح فى
أن يكون على رأس « لجنة تطهير » ولست أزعم أن أحداً من رؤساء
اللجان كان فى مثل سوئه . بل الذى أجزم به . أن الأغلب الأعم من
هؤلاء الرؤساء كانوا من أفاضل الموظفين وخيرتهم ، ولكن . يمكن
دائماً للسيئين فى إنتخابات عامة ، أن ينفذوا إلى أماكن ذات قيمة .
ولكن ماذا تفعل حكومة تريد أن تلتزم العدل ، وأن تنزل على مقتضياته.
إنها إن عينت رؤساء وأعضاء اللجان .. قيل أنها « لجان مرفوضة ..
وموحى اليها » . وإن هى تركت الأمر للإنتخابات ، كانت النتيجة
ما رأينا .. فأين طريق الخلاص ؟!.

***

ليس ذلك سوى مدخل إلى صدى عملية « التطهير » فى مجلس الوزراء الذى كان يرأسه عبد الناصر . وأول هذه الأصداء .. حكاية معروفة سبق أن ذكرتها فى مواضع أخرى . ولكنها لابد أن تعاد هنا بتفاصيلها . فقد كان النظام يقضى بأن يعرض كل وزير النتائج التى توصلت اليها « لجان التطهير » المشكلة فى وزارته ، مشفوعة برأيه .ثم تقرر بعد ذلك ، أن تعرض هذه النتائج على لجنة وزارية تشكل من ثلاثة وزراء قبل عرضها على مجلس الوزراء .. وحدث أن عرض وزير التربية والتعليم ، المرحوم الأستاذ إسماعيل القبانى ، ما قررته اللجنة المشكلة فى دار الكتب من وجوب إحالة الأستاذ توفيق الحكيم إلى المعاش - باعتبار أنه موظف غير منتج - وأفاض المرحوم القبان فى بيان « أن الأستاذ الحكيم لا يكاد يحرك ورقة من مكانها فى دار الكتب ، على الرغم من خطر هذه الدار ، ومن عظم الآمال التى تعقدهاالوزارة على هذا الجهاز التثقيفى . وهى آمال تتزايد لما تعتزم الوزارة من توسيع الدار وتزويدها بالأجهزة والأنظمة الحديثة ، فضلاً عن المراجع العلمية باللغات المختلفة » ..

وخيل إلى الوزير أنه ألقى بياناً مقنعاً ومؤثراً .. فإذا به يفاجأ بعبد الناصر يقول فى عبارة موجزة : « إنه من سوء التقدير أن أخرج فى عملية تطهير أحد كبار كتابنا الذين ترجمت كتاباتهم إلى اللغات الأجنبية .. ماذا يقول عنا الناس فى الخارج ؟ » .



اللقاء والتحية ووسام لتوفيق الحكيم عام ١٩٥٨ .

ولم يعلق الأستاذ القباني على هذا الكلام بحرف واحد ، حتى خيل إلى الجميع أنه وافق على الإعتراض وأن المسألة مرت بسلام .. ولكنه ما لبث أن إنسحب بعد قليل ، ومضى إلى بيته . وأدرك (عبد الناصر) أنه أهانه بقوله « سوء تقدير » .. وهو تعبير لم يقصده بحرفه ، وذهب إلى بيت الوزير ومعه الرئيس محمد نجيب وإسترضياه ، ورضى .

ولكن الذى أدهشني ، حقيقة ، أن (توفيق الحكيم) لم يجد بين الوزراء جميعاً نصيراً واحداً ينضم إلى الرئيس عبد الناصر ، ويدفع عنه تهمة العجز الإدارى ، أو يقيه من الفصل فى « حملة التطهير » ، إلى الحد الذى خيل إلىّ معه أنه لو سأل سائل الوزراء - كما يجرى الأمر فى برامج الإذاعة - « هل قرأ أحدهم شيئاً للحكيم ؟ » لما إستطاع أى منهم أن يذكر له كتاباً واحداً .. وقد كانت هذه نتيجة تدعو ، بلا شك ، إلى الأسف الشديد .

***

ولقد ساهمت فى تعقيد الموقف بعد أن كانت هذه الأزمة قد إنفرجت. فقد تحدث إلىّ الصديق الأستاذ حلمى سلام . عن شبهات وشكوك الناس فى نتائج . حملة التطهير ، فذكرت له خطوات التطهير .. من قرار تصدره لجنة منتخبة يرأسها قاض ، ثم لجنة وزارية ثلاثية ، ثم قرار من مجلس الوزراء . وضربت له - بأزمة إسماعيل القبانى وإصطدام الرئيس جمال به - مثلاً على أن قرارات الفصل لا تصدر

إعتباطاً . ورأى الأستاذ حلمى أن من واجبه أن ينشر هذا المثل ، تهدئة للرأى العام وتنويراً له . وكان إذ ذاك ، يرأس تحرير مجلة (التحرير) .. وأدركت عندما وقع نظرى على الخبر منشوراً فى المجلة أن المرحوم الأستاذ القبانى ، سيؤله هذا النشر . وقد يقوم فى ذهنه أن الرئيس عبد الناصر هو الذى أوعز للأستاذ حلمى سلام بنشر الخبر لاعتراضه على قرار الأستاذ القبانى فور سماعه له ورأيت أن من واجبى أن أبادر بزيارة الأستاذ القبانى فى بيته ، وأن أؤكد له أننى وحدى المسئول عن نشر هذا الخبر . وفعلاً وجدته - كما قدرت - متألماً ، ومنتوياً الإستقالة لكننى مازلت به حتى وثق من صدق كلامى ، وأدرك أن إستقالته لم تعد ذات موضوع فالإحتجاج علىّ أنا لا يكون بالإستقالة .

وعرف عبد الناصر لما نشر . وقال إنه لا يد لى فيه ، ولا أعرف كيف تسرب الخبر « لمجلة التحرير » . وأن الأخ القبانى لابد أن يكون غاضباً ، وله حق فى غضبه . فتوليت شرح الأمر كله .. وأنهيت إلى الرئيس جمال ، وإلى المجلس كله ، أننى أنا المسئول عن كل ما جرى ، وأننى أصلحت ما وقع منى وأن الزميل القبانى سيحضر المجلس فى الجلسة القادمة . وقد أخبرنى المرحوم صلاح سالم ، أننى لما أعلنت « أننى أنا المسئول عن نشر الخبر » ، قال لجاره فى المجلس : « إن هذه شجاعة من فتحى رضوان .. يحمد عليها » .. فاستنكرت أن يكون إعلان الحقيقة فى مسألة تفصيلية كهذه شجاعة تستحق التنويه ، فقال :

لقد أصبحنا نفتقد هذا القدر الضئيل من الشجاعة » !.



عبد الناصر والدكتور السنهورى وهما فى حديقة دار الدكتور ماهر لاتخاذ الخطوات الاولى فى سبيل الحكم النيابى فى البلاد .

ولكن « التطهير » كان قادراً على أن يلد أزمات صغيرة كهذه الأزمة . من ذلك أن إحدى اللجان الثلاثية الوزارية ، التى كانت برياستى ، وافقت على فصل عدد من كبار الموظفين ، كان أحدهم إبن خالة أحد الوزراء المدنيين . وكان آخر ، صهراً لأحد الوزراء العسكريين . وقد قال الوزيران - المدنى والعسكرى - بعد موافقة مجلس الوزراء على قرار اللجنة الثلاثية ، ان اللجنة الثلاثية لم توص بفصل أقربائهما . وطلبا إعادة الأمر على مجلس الوزراء ووافق الرئيس جمال على إعادة النظر فى القرارين مادامت هناك شبهة فى عدم موافقة اللجنة الثلاثية على القرارين ، ولكن ماكاد الموضوع يعاد عرضه .. حتى تبين « عبد الناصر » أن أحد الموظفين هو إبن خالة وزير مدنى ، وأن الثانى هو صهر لوزير عسكرى ، وعضو بمجلس قيادة الثورة وعندئذ صاح قائلاً « إذن المسألة هى هذه . سيقول الناس إننا لم نعد النظر فى قرار واحد من قرارات التطهير ، ونعيد النظر فى قرارين إثنين لمجرد أنهما يتعلقان بأقرباء الوزراء .. لا .. لا .. إن هذا سينزع الثقة بقراراتنا كلها . ليكن فى هذين القرارين من الظلم ما فيهما ، ولكن المصلحة العامة أولى بأن تراعى » .

وسكت الوزير المدنى وزميله العسكرى على هذا القول على مضض .. فقد كانت حجة « عبد الناصر » من القوة بحيث لا ترد .

ولكن الوزير العسكرى وجد سبيلاً لعرض الموضوع مرة أخرى ، وبطريقة يمكن أن نصفها - بلغة هذه الأيام - بأنها أكثر (درامية) !.

فقد حدث بعد صدور قرار مجلس الوزراء بالموافقة على فصل صهر عضو مجلس قيادة الثورة ، أن خاطبنى بوصفى الوزير المسئول عن الجهة الإدارية التى كان يعمل فيها صهر عضو مجلس القيادة ، عدد من أكبر الشخصيات ، إستشفاعاً له وثناء عليه .. كان منهم « صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا » رئيس لجنة الدستور فى ذلك الوقت . وكان منهم قانونى مصر الأكبر أستاذى المرحوم « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » . ولكن الدكتور السنهورى أضاف إلى حسن شهادته فى الموظف المفصول شيئاً إندهشت لصدوره من رئيس مجلس الدولة ، فقد قال لى : « هل لديك مانع من أن يأخذ القبانى (فلان) معه فى وزارة التربية والتعليم » . إندهشت لصدور هذا القول عن رئيس مجلس الدولة ، لأن تعيين موظف مفصول فى التطهير ، بعد قرار فصله بأيام قليلة ، يجعل قرارات التطهير كلها هزلاً لا معنى له . ويدعو إلى ثورة المفصولين فى هذا التطهير . فأجبته ، إحتراماً لمقامه عندى : « الأمر لم يكن إضطهاداً شخصياً لفلان حتى أمانع فى أن يناله خير على يد سواى . ولكن .. هل يمكن تعيين موظف مفصول فى التطهير عقب فصله بأيام ؟ » فأجاب : « ممكن » !! فسكت ، ولم أعقب .. وأنا مندهش – كما قلت – غاية الدهشة من صدور هذا الكلام عن الدكتور السنهورى ذاته !!.

***

وإنعقد بعد ذلك بقليل ما كان يسمى بـ (المؤتمر المشترك) ، وهو مجلس كان يضم الوزراء ، وأعضاء مجلس القيادة وفى نهاية إحدى جلساته - وكانت برياسة اللواء محمد نجيب - أمر رئيس الجلسة بإخراج جميع الموظفين الإداريين والكتابيين من قاعة الإجتماع . وكان يقوم بأعمال السكرتارية الدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن الذى عين ، سنة ١٩٧٥ وزيراً للتخطيط ، فخرج مع الخارجين . ثم قال الرئيس نجيب كلاماً لم أتبينه ، لأنى كنت مشغولاً بورقة في يدى . ولم يدر بخلدى قط أن هذا الكلام يخصنى ، وأنه يتضمن إتهامى بتهمة جد خطيرة . ولما إستمر في كلامه ، وأنا مشغول بما كنت أقرؤه ، نبهنى أحد زملائى بأن الكلام يخصنى ، فالتفت إلى الرئيس نجيب ، فإذا به يقول إن عضو مجلس قيادة الثورة الذى فصل صهره ، يتهمنى بأنى أذعت أسرار مجلس الوزراء !!

والحق أننى وجمت . لأننى أعلم يقيناً أننى لم أقابل أحداً قط وسمحت لنفسى بالتحدث معه عن أى شيء يجرى بحثه فى مجلس الوزراء حتى ولو كان أتفه الشئون . فسألت ، والدهشة تغمرنى تماماً : « أسرار ؟. أى أسرار ؟. أريد أن أعرف السر الذى أذعته .. ولمن أذعته ؟ » .

وبدا الإرتباك على الرئيس نجيب لأنه لم يكن محيطاً تماماً بنص التهمة ، فأعطى الكلمة لعضو مجلس القيادة الذى قال : « الدكتور

السنهوري إتصل بك في شأن إعادة تعيين صهري الذي فصلوه ظلماً في وزارة المعارف وأنك وافقت » . فقلت : « وهل هذا إذاعة لأسرار مجلس الوزراء ؟! إن قرار الفصل بلغ – حسب القانون – الموظف من الجهة التي يعمل بها ، فلم يعد سراً . أما البحث في إعادة تعيين صهرك في وزارة أخرى فأمر لم يعرض على مجلس الوزراء ، ولا يمكن لحديث جرى بين رئيس مجلس الدولة ، وأحد الوزراء أن يكون من أسرار الدولة » .

فقال عضو مجلس القيادة : « وكيف وافقت على إعادة تعيين صهري ؟ » فقلت له : « وهل موافقتي على إعادة التعيين من أسرار الدولة ؟. وهل أنا أملك الموافقة أو المعارضة في شأن موظف فصل نهائياً من الدولة ، ويراد تعيينه في وزارة لا تتبعني ، ولا إشراف لي عليها ، ولست رئيس مجلس الوزراء » . فإذا بعضو مجلس القيادة يقول : « موافقتك على التعيين ألقت في روع صهري أنني وراء قرار فصله ، وأن هذا أفسد علاقتي بأولاد عمومتي » .

وهنا لم أستطع أن أضبط نفسي فصحت : « وهل أنا مسئول عن علاقتك بأقاربك ؟! وهل أنا سعيت لهذا الإفساد ؟ » .

وحاول بعض الوزراء تهدئتي ، ولكني في الحقيقة شعرت بمرارة في حلقي ، وخيل إليّ أن بقائي في الوزارة ، لم يعد محتملاً . فلما إنفض المجلس ، أسرعت إلى قطعة ورق فكتبت عليها إستقالتي ، ودفعت بها

إلى الرئيس محمد نجيب ، فأخذها دون أن يقرأها ، إذ لم يحسب أننى إستقلت هكذا بسرعة .

وفى صباح اليوم التالى ، مررت على بيت « عبد الناصر » ، وتركت له صورة من الإستقالة .. فإتصل بى « عبد الناصر » - وسألنى : (ما الحكاية ؟) فرويتها له . فقال : « لقد حاولت أن أُفهم المسألة من خالد محيى الدين ، والظاهر أنه لم يكن متتبعاً لما جرى ، فلم أفهم منه شيئاً .. » .

وطلب منى « عبد الناصر » ، بإلحاح ، أن أسحب الإستقالة، وقال لى : « إنه ، هو وإخوانه ، تحدثوا إلى زميلهم عضو مجلس القيادة ، ولاموه على موقفه منى ، وطلبوا منه أن يمر علىّ في المنزل ليعتذر لى عما وقع منه فى حقى » .

وفى أصيل ذلك اليوم ، كان وزير القصر قد دعانا لمشاهدة معروضات القصور الملكية المصادرة فى قصر القبة .. وهناك ، تقابلت مع عضو مجلس قيادة الثورة الذى كان طرفاً فى هذه الأزمة ، فتبادلنا التحيات ، ولم أنتظر منه ، بعد ذلك ، زيارة ولا إعتذاراً ، فقد كان يكفينى أن يتبين الجميع أننى لم أخطىء .

ومع ذلك .. بقى فى جعبة التطهير طرائف ..

وفى أوائل سنة ١٩٥٣ ، كانت فرنسا تتحرش (بباى تونس) أى سلطانها أو ملكها الذى مال الى الوطنيين وأخذ صفهم .. وبدت فى

الأفق نذر تدل على أن فرنسا تنوى عزله ، وكان مجلس الجامعة العربية على وشك الإنعقاد فى القاهرة . وكنت ، فى ذلك الوقت ، وزيراً الخارجية بالنيابة .. بعد التعديل الوزارى الذى خرج فيه السفير العظيم أحمد فراج طايع من وزارة الخارجية .. فإستقبلت سفراء الدول العربية فى القاهرة توطئة لعقد مجلس الجامعة . فإذا بسفير اليمن – وهو السيد على المؤيد – يقول : « إلى متى ستبقى دول الجامعة وحدها فى مواجهة دول الإستعمار . لماذا لا ندعو سفراء الدول الآسيوية والإفريقية لينضموا إلينا ويقفوا معنا فى وجه فرنسا التى تهدد (باى تونس) بالعزل ، وشعب تونس بالقمع » .

وراقتنى الفكرة . فدعوت الدول الآسيوية والإفريقية جميعاً للإنضمام إلى سفراء الدول العربية . فبدا عددنا كبيراً . ثم تدفقت الأفكار من كل جانب وكان من بين هذه الأفكار تهديد فرنسا بعدم تموين طائراتها العسكرية المسافرة إلى الهند الصينية . ولم تكن فرنسا وقتها قد هزمت هزيمتها الحاسمة فى (ديان بيان فو) .. ولم تكن فرنسا لتجد مطاراً تموِّن طائراتها بالوقود من فرنسا حتى فيتنام إلا (مطار اللد) فى إسرائيل . وفيما عدا ذلك فجميع المطارات واقعة فى بلاد الكتلة الآسيوية الإفريقية . وقد قررت هذه أن تمتنع عن تموين طائرات فرنسا بما يلزمها من الوقود والزيت .

ولما كان بين سفراء دول الكتلة الآسيوية من يعرف الإنجليزية وحدها . ولا يعرف الفرنسية . ومنهم من يعرف الفرنسية ، ولا يعرف

الإنجليزية . ولم تكن الترجمة الفورية قد عرفت ، فقد إضطررنا ، في وزارة الخارجية المصرية ، إلى الإستعانة ببعض السفراء الذين يجيدون اللغتين للقيام بأعمال الترجمة .. ووقع الإختيار على الأستاذ حسين رشدى - أحد رجال السلك السياسى المصرى - ليقوم بأعمال الترجمة إلى اللغة الإنجليزية .

وفيما كان سفراء الدول الآسيوية والإفريقية والعربية مجتمعين في وزارة الخارجية ، وصل إلى مقر الإجتماع الرئيس محمد نجيب ، وشهد جانباً منه وكان الأستاذ حسين رشدى يقوم بالترجمة إلى الإنجليزية . فغاظ الرئيس نجيب تدخل الأستاذ رشدى ، فيما يتولى ترجمته ، بالتعليق عليه . وغاظه أكثر أنه لم يكن سريعاً بالقدر الكافى وذات يوم ، عرض إسم الأستاذ حسين رشدى ضمن الأسماء المطلوب إحالة أصحابها إلى المعاش ، فإذا بالرئيس نجيب يتذكر ما كان من الأستاذ رشدى فى يوم إنعقاد إجتماع الكتلة الآسيوية والافريقية فإذا به يصمم على إحالته إلى المعاش . ولكن الأستاذ رشدى كان صديقاً للمرحوم جمال سالم . وكان « جمال سالم » يحسن الظن بكفايته ، وخصوصاً بقدرته الفائقة على التكلم باللغة الإنجليزية !!. ووقف كل منهما على طرفى نقيض . محمد نجيب يهاجم رشدى ، وجمال سالم يثنى عليه . هذا يطلب فصله ، وذاك يصمم على إبقائه ، ثم ترقيته بعد ذلك ، وحار المجلس بين الإثنين !! فلم يكن ثمة مخرج من هذا الجذب والشد إلا بتأجيل القرار إلى جلسة تالية .

وفى الجلسة التالية ، تكرر المشهد . ووقع بين « جمال سالم » و « نجيب » عراك بالالفاظ تطايرت فيه النعوت والاوصاف .. كأنها قذائف بندقية !! وانتهت المعركة لصالح « جمال سالم » .. وبقى حسين رشدى فى مكانه حتى وصل إلى منصب السفير فى يوغسلافيا . ونسى الناس ما جرى فى مجلس الوزراء ونسوا التطهير ، ومضت الحياة على عادتها تصابح الناس وتماسيهم .. بكل جديد .

ولكن هذا الاجتماع الذى أثار كل هذا الخلاف الحاد ، كان مع ذلك نعمة وبركة . فإنه كان نواة الكتلة الأسيوية الأفريقية التى كانت ، قبل هذا الاجتماع ، مجرد تجمع لا تنظمه ضوابط ، يلتئم لمجرد تنسيق مواقف أعضاء الكتلة ازاء المسائل المعروضة فى الأمم المتحدة . فما لبث ، بعد هذا الاجتماع ، حتى اصبحت كتلة متماسكة لها دورها الواضح ، وخطتها المعروفة . وقد أفضت هذه الكتلة نفسها إلى ميلاد « عالم دول عدم الانحياز » الذى أفضى ، بدوره إلى العالم الثالث .

الفصل الثانى

عندما هبت العاصفة
على مجلس الثورة

● كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة فى ليلة باردة من ليالى شهر فبراير سنة ١٩٥٤ ، حينما دق جرس التليفون ، معلنا اننى مطلوب لمجلس قيادة الثورة الكائن بالجزيرة . وهو مبنى مطل على النيل ، كان الملك فاروق قد اعده ليكون مقرا لادارة اليخوت الملكية النيلية . وكتمت عن أهل بيتى فحوى هذه المكالمة غير العادية ، حتى لا اثير مخاوفهم ، وان كانوا قد ألفوا هذه المفاجآت ، ولم تصبح لديهم بالأمر الذى يخيف .. لا فى عهد الوزارة ، أو ما قبلها . ولكننى لا أكتم القارىء اننى فى تلك اللحظة التى تلقيت فيها هذه المكالمة - حرت تماماً - فى سر هذه الدعوة ، وملت إلى التشاؤم ، وقد لاحظت اننى رحت ارتدى ثيابى فى همة ، كشأنى فى اللحظات التي تبدو فيها نذر لا تطمئنني ، ولم يبد علىّ أثر من انزعاج أو قلق . فلقد كان التحدى يبعث فى شجاعة لا أتمتع بها فى الظروف العادية . والظاهر أن الذى

وجه الينا هذه الدعوة الغريبة ، والمفاجئة ، حسب حساب السيارات التى تقلنا . فقد وجدت سيارة تنتظرنى على الباب ، لعلها سيارة وزير العدل المرحوم المستشار أحمد حسنى الذى كان بيته لا يبعد عن بيتى إلا امتارا .

ومضت بنا السيارة تشق طريقها فى شوارع القاهرة المتألقة بمصابيحها ، وقد خلت من المارة أو أوشكت ، ونحن – زميلى وأنا – لا نجد عند انفسنا ميلا إلى حديث ، كأننا فى مأتم . فقد تبادلنا ، أول ما التقينا ، السؤال الطبيعى : ماذا تظن وراء هذه الدعوة ؟ .

ثم ضربنا اخماسا لاسداس ، فلما لم نهتد إلى رأى يمكن الاطمئنان اليه ، كففنا عن الكلام حتى وصلت السيارة إلى غايتها ، ورأيت الوزراء ينزلون من سياراتهم صامتين واجمين .. وقد بدا كل منهم فى معطفه الثقيل ، وخطواته البطيئة ، والتساؤل يبهظه ، كأنهم نقط سوداء تتحرك فى الظلام ، كأنها حبات تذروها الرياح إلى غير غاية ..

وكانت هناك رياح حقيقية طبيعية ، اذ كان قيام المبنى على شاطىء النيل داعيا إلى هبوب هواء بارد يلفح الوجوه ، فتطابقت الطبيعة مع السياسة .

● دهشة مضاعفة

وسلالم هذا المبنى ليست بالواسعة وليست بالمستقيمة .. فهى تدور

فى ارباع ودوائر تشبه سلالم اليخوت . ووجهنا الحراس إلى حجرة ، وجدناها اشبه ما تكون بالحجرة الخالية ، لولا أننا أحسسنا بحركة في جانب منها ، تكشف عن شخص طويل ، رشيق ، وقف ليحيينا ، فعرفنا للتو أن مضيفنا هو « جمال سالم » . فكان ذلك سببا فى مضاعفة الدهشة ، ففى مثل هذه الظروف الخطيرة التى تدعو الوزراء لترك بيوتهم ، أو قل مخادعهم ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل البارد ، يجب أن يكون مجلس قيادة الثورة كله مجتمعا . فان لم يفسر ذلك لسبب أو لاخر ، فلابد أن يكون جمال عبد الناصر موجودا فى الموقع الذى يتقاطر عليه الوزراء ، فما الذى خرق القاعدة ؟ وأين هو « جمال عبد الناصر » فى هذه اللحظة ؟ هل أصابه مكروه ؟ وماذا عسى أن يكون هذا المكروه ؟ هل عزل ؟ أم قتل ، أم شرع فى اصابته ؟.

ولقد كانت الأيام السابقة على هذه الليلة حافلة بدواعى التوجس والتوقع ، وكان كل شيء فيها ممكنا . ولم يطل انتظارنا . فقد تكلم « جمال سالم » .. وعلى غير عادته ، تكلم بصوت هادىء لا انفعال فيه ، وفي جمل قصيرة ، خالية مما اعتاد « جمال سالم » أن يحلى به أحاديثه من عبارات وتشبيهات تكشف عن قدرته في الحديث وتلوينه ، وقال : « اننى دعوتكم لاطلعكم على أننا قررنا – للأسف الشديد – تنحية (نجيب) .. فانه لم يعد ممكنا احتماله ، ولا أمل فى معالجته ، ولعلكم تذكرون جميعا أننا ابرزناه ، وقدمناه على أنفسنا ، حتى لم يعد

أحد فى مصر يعرف من قادة الثورة سواه . وقد تلقى ، لهذا السبب ، من الشعب تأييدا وحبا لا نهاية له . ولكن الرجل صدق أنه أهل لهذا الحب والتأييد ، وأنه هو الذى اكتسبه بجهده وعمله . وقد تركناه يسعد نفسه بهذا الاعتقاد تعويضا له عن كونه من غير أعضاء مجلس القيادة . ولكن .. لقد التف حوله عدد ممن ينتمون إلى فئات معادية للثورة ، أو من أصحاب الميول الانتهازية ، فأحبوا أن يستغلوا هذا الاعتقاد عنده ، وأن يؤكدوا له انه قادر على الاستقلال عنا ، والاستئثار بالثورة . وقد احتملنا هذا التطور السيىء طويلا ، وحاولنا - وخصوصا عبد الناصر - لأنى لا طاقة لى على هذه المحاولات .. محاولات التلطف والمجاملة والمداراة - حاولنا أن نبصره بسوء عاقبة هذا التطور ، فازداد اقتناعا بقوته وضعفنا وهنا تحركت الأحزاب القديمة وما خلفها . وخيل اليهم أن الفرصة قد أتيحت لهم ليطيحوا بالثورة ، فازدادوا تقربا اليه ، ومدحا فيه ، وازداد هو بعدا عنا وكرها لنا .. وقد كان من رأيى أن نحسم هذا الموقف ، ولكن اخوانى - و « جمال » فى مقدمتهم - كانوا يتهموننى بالتسرع والانفعال ، وأطالوا صبرهم حتى دخل « نجيب » في دور خطير للغاية .. وهو دور النفاق .. يشترك معنا فى اصدار قرار ما ، بعد المناقشة ، ثم يخرج ويعلن انه ضد هذا القرار ، وانه مغلوب على أمره .. وانه وحده مع الحرية ، ومع الحياة النيابية ، وضد اتخاذ أى اجراء ضد « الأحزاب » ، وزعماء الأحزاب ، مع انه فى أحوال كثيرة ، يكون اشد منا تنديداً بهذه الأحزاب وزعمائها ،

وبالماضى وعيوبه .. ولأن الأمر عنده كله لا يتجاوز شخصه ، فهو حائر ، لا يدرى أيكون مع الاجراءات الثـورية التى تبهره وتعجبه ، باعتبار انها اجراءات ، يدل الأقدام عليها على الشجاعة ، وعلى الرغبة فى التجديد الكامل .. أم يكون مع الأحـزاب ومـا تنادى به من وجوب عـودتنا إلى التكتات ، واعادة الأحزاب إلى مكانها القديم ، وتصفية الثورة ؟ » ..

● شىء مؤسف

ثم سكت « جمال سالم » ، وقد بدا على وجهه من علائم الألم ما تأثر به الحضور ، ثم ختم كلامه بتلويحة خفيفـة من يده ، وكأنه يقول : « لم يكن لدينا مع هذا المو قف حيلة » .

وسـاد المكان وجـوم شـديد ، وسـمع فى الخـارج صـوت الريح ، يشـتد ، واهتـزت الأشجـار التى وصلت بأطرافـها العليا إلى نوافذ الحـجـرة التى كنـا نجلس فـيـها . ولم يتـكلم احـد .. ولما لم يصـدر تعليق منا جميعا ، وقف « جمال سـالم » بقامته المشـوقة ، ومد يده المليئـة بالحيـوية ، فـصـافـحنا ونحن لا ندرى أكـان يعـزينا ، أم كان يتلقى منـا العزاء !! .

وفى هذه اللحظة سمعت صوت احد الزملاء يقول : « على كل حال هذا شىء مؤسف » . فأجاب « جمال سالم » على الفور « بلا شك » .

وهبطنا درجات السلم الملتوى ، وقد ازداد أحساسنا بالبرد ، وأخذ كل منا مكانه فى السيارة ، دون أن يجد عنده النشاط ، أو الاستعداد ، ليقول حرفا واحدا ، وعندما افترقنا ، وبدلا من أن يقول كل منا التحية التقليدية .. « تصبح على خير » .. قال : « ربنا يستر .. » .

وذهبت إلى فراشي ، وقد اصبحت رأسى مسرحا لحركة عنيفة من الخواطر والتأملات حتى مطلع الصباح . فنمت ساعة أو بعض ساعة ، ثم قمت مليئ بالنشاط العصبى ، منتظرا يوما حافلا ..

ولكن .. عندما طلع النهار ، خيل الىّ أنى رأيت على ضوئه حقائق جديدة ، عجبت كيف غابت عنى وعنا جميعا . فقد ادركت ، بعد هذا التأمل ، فى الليل الهادىء ، بعيدا عن جلبة المناقشة ، وضجيج الحياة اليومية وتدافعها ، ان ما حدث فى الليلة الماضية ، وما هو موشك على الوقوع على أثر تلك الليلة ، والقرار الذى اتخذ فيها – كان طبيعيا – وأن غير الطبيعى هو الا يقع ما وقع . كل ما فى الأمر اننا لم نكن ندرى طبيعة العلاقة بين « نجيب » ، وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولكن حينما نعرف هذه الحقائق على حقيقتها ، ثم بعد أن نحيط بمقدار الجاذبية التى ظهر أن الرئيس محمد نجيب كان يتمتع بها عند افراد الشعب ، يصبح ذلك الشقاق الذى وقع ، هو التطور المنطقى للأحداث ، ولم تكن ثمة قوة تستطيع أن تمنعه .

● بطل شعبى ..

إن المسئول الأول عن هذه الأزمة الخطيرة التى استمرت من اوائل سنة ١٩٥٤ ، هو ان محمد نجيب بدا بطلا شعبيا كاملا ، من اليوم الأول الذى ظهر فيه للناس . لم يحتج إلى زمن لتتكامل شخصيته كزعيم . ولا شك ان نصيبا كبيرا من هذا السحر ، يرجع إلى نجاح الثورة السريع ، وطرد الملك بلا تعثر ولا تردد ، وإخلاد القوات الأجنبية إلى السكون والصمت ، واذعان الملك لارادة الثورة ، وخروجه من مصر ، كل هذه الاحداث ، أثارت فى المصريين الاحساس بالكرامة ، فهؤلاء حفنة من أبناء مصر استطاعوا أن يدبروا لبلادهم فأحسنوا التدبير ، فطردوا آخر ملك من عائلة غير مصرية ، فتحت حياتها بصفحات مليئة بالعار وكان القول الشائع ان المصريين لا يحسنون عملا ، خصوصا حينما يقع هذا العمل تحديا للأجانب ، ولا سيما اذا كان هذا الأجنبى بريطانيا أو امريكيا . فهذه الثورة جاءت شهادة للمصريين بأنهم يحسنون كتمان ما يجب كتمانه ، ويحسنون التنظيم والتنفيذ ، ويلقون بالمهام الكبرى . وكان « محمد نجيب » ، هو رأس هذه الجماعة ، فما أحراه وأجدره بالحب والتكريم .. وبالاعجاب والاعزاز ..

ولكن « محمد نجيب » كان له نصيبه ، غير المنكور ، فى خلق هذه الشخصية التى تمتع بها ، وظهر على مسرح الأحداث وهو يرتدى طيلسانها . فهو وجه يتمتع بكل جمال الرجولة ، فضلا عن لطف أخاذ

وســحر خلاب ، وبساطة تلقائية ، لا تكلف فيها ولا تصنع ، مع سرعة في الحـركـة وكثـرة في التنقل ، وتآلف للناس ، لم تشـهـد الزعامـات المصرية له نظيرا .

وهذا كله جعل لمحمد نجيب شخصية مستقلة عن مجلس قيادة الثورة ، حتى في أحلك الظروف التي كثرت فيها الشكوى من الأحوال في مصر – ولا سيما الاقتصادية من هذه الأحوال – بقي « محمد نجيب » محبوبا ، كأنه لايد له فيما يجرى .

ولكن هذه « الجاذبية » هي نفسها التي جنت عليه آخر الأمر . فقد أفسدت العلاقة بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكادت تودى بالثورة كلها ، وهي لا تزال في سنتيها الأوليين . فقد جعلته قوة لابد أن يحسب لها حساب . ولكن هذه القوة كانت تعوزها الاداة التي تجعل هذه القوة حقيقة لا مظهرا . فقد كانت السلطة في يد « جمال عبد الناصر » واخوانه الشبان . ومن هنا ، تمتع « نجيب » بمظهر قوى .. وتمتع جمـال بالقوة فعلا . وحينما بدأ الصراع بينهمـا ، رجحت كفة « نجيب » في الجولة الأولى ، ذلك لأن الناس كانت معه بقلوبها ، ولكن التـأييد القلبي قصير ما لم يسنـده التنظيم الفعـال ، ولم يكن خلـف « نجيب » تنظيم على أية صورة .

وبعض الذين تمتعوا ، في التاريخ ، بتأييد قطاعات كبيرة من أهل بلادهم ، اخفوا هذا التأييد ، أو قللوا من مظاهره حتى يتيسر لهم جمع القوة الازمة للوصول إلى السلطة .. فلقد روى « كمال اتاتورك » ، أنه

أمر أن يصحب ولى عهد سلطان تركيا في رحلة إلى الخارج ، فلما قابل ولى العهد فى ديوانه الخاص بالقطار المسافر من استانبول إلى أوروبا ، رآه رجلا مغمض العينين ، يلقف انفاسه بصعوبة ، ولا يكاد يحرك أصبعا . فلما تحرك القطار ، وترك الحدود التركية ، عاد « كمال اتاتورك » ، أنه أمر ان يصحب ولى عهد سلطان تركيا فى رحلة إلى الخارج ، فلما قابل ولى العهد فى ديوانه الخاص بالقطار المسافر من استانبول إلى أوروبا ، رآه رجلا مغمض العينين ، يلقف انفاسه بصعوبة ، ولا يكاد يحرك أصبعا . فلما تحرك القطار ، وترك الحدود التركية ، عاد « كمال اتاتورك » إلى ديوان ولى العهد ، فرأى رجلا ممشوق القامة عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، ينظر من النافذة إلى الحقول التى كان يخترقها ، فخيل إلى « أتاتورك » أنه أخطأ الديوان فهم بتركه . لولا أن الرجل الذى كان واقفا فيه استوقفه . ثم تبين أنه ولى العهد الذى كان منذ لحظات شيخا هرما . ويتمارض ، ويتظاهر بالضعف أمام جواسيس أبيه « السلطان » حتى لا يقضى عليه بالسم ، أو بوسيلة أخرى من وسائل القتل الخفية . فلما أحس أنه بعد عن رقابة أبيه ، انتفض رجلا مليئا بالقوة ، وبالحيوية .. !

ولو كان لمحمد نجيب حظ أكثر من الدهاء السياسى ، لقلل من مظاهر وصور التفاف الشعب حوله ، ولحاول أن يتحاشى أسباب التصادم مع زملائه الشبان ، حتى يصل الطرفان إلى مرحلة التوافق التى كانت فى حاجة إلى صبر ، وجهد ووقت .

وأشـهد – للحـقيقـة ، والامانة التاريخـية – أنى سـمـعت « عبـد الناصر » فى منزله بمنشـية البكرى ، قبل أن يهدم هذا المنزل ، ويبنى على انقاضه البيت الذى عاش فيه « عبد الناصر » بعد ذلك ، سمعته يتحدث بسرور وارتيـاح عظيمين عن شدة تعلق الناس بمحـمد نجيب وكانت قد راجت فى تلك الأيام أغنية شعبية تقارن بين طهارة محمد نجيب ورائحة خبث الملك فاروق . فأخـذ « عبد الناصر » يردد الفاظ الأغنيـة وهـو يضـحك ، ويعلق على ذلك واشبـاهه من مظاهر التفـاف الشـعب حول « محـمـد نجيب » بقـوله : « لاحظ أن نجيب اسـتطاع أن ينسى النـاس (النحاس) وأنا اعرف مدى افتتانـهم به . ولا تنس أن (النحـاس) بنى مكانته عنـد المصريين على مـدى ثلاثين عـاما ، و (نجيب) لم يمض على ميلاد شهرته إلا أقل من سنتين » .

كما اشهد اننى سمعت أكثر من عضو من أعضاء مجلس القيادة يقولون بأنهم يحبونه أكثر مما يحبون آباءهم . ولقد كان شيئا ممتعا أن ترى نجيب عائدا من الخارج إلى احدى جلسات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء وأعضاء مجلس القيادة . فقد كان أعضاء هذا المؤتمر من الضـباط يستقبلونه بالحفاوة والترحاب ، ويضحكون من قلوبهم لتعليقاته . ولكن كل هذا انتهى وحل محله الشك المتبادل من الجانبين ، وسوء الظن ، والتوجس . ولقد سمعت « عبد الناصر » يشكو من ثلاثة التصـقوا بمحـمد نجيب و (تخنوا ودنه) – أى زادوا ثقـته بنفسـه ، واعتداده بها – وهم : سليمان حافظ – الذى كان وزيرا للداخلية ونائبا لرئيس مجلس الوزراء – ومحـمود الديب – وهو لواء فى الشـرطة يمت

إلى الرئيس محمد نجيب بصلة قرابة أو صداقة ، وانطون عساف - وهو صحفي مصرى من أصل لبنانى . وسليمان حافظ بريئ مما نسب اليه ، فقد كان يعمل طوال الوقت على أساس أن محمد نجيب من جهة وجمال عبد الناصر من جهة أخرى ، جماعة واحدة . تختلف فيما بينها فى التفصيلات ، ولكن تتحد فى الأهداف . وقد تحدثت معه عند ظهور أول بوادر الانشقاق . فقال : « وأنى لنا أن نعرف أن العسكريين كانوا جبهتين ، وكل الدلائل تؤكد أنهم كقبضة اليد ؟! » ..

ولقد عجبت اذ سمعت أن انطون عساف ، قد اصبح شخصية سياسية ذات خطر ، فقد زاملته فى معتقل الزيتون خلال الحرب العالمية الثانية ، ضمن مجموعة من اللبنانيين المتمصرين ذوى الميول النازية . ولم نكن نأخذه ولا نأخذ كلامه مأخذ الجد فى تلك الفترة . ويروى الرئيس نجيب كيف وقع اعتقاله في كتابه (كلمتى للتاريخ) فيقول : ان اليوزباشى (النقيب) كمال رفعت ، ومعه اليوزباشى داوود عويس ، طرقا باب داره بعد منتصف الليل وأدخلاه فى سيارة ، مضت به وبهما إلى مبنى سلاح المدفعية بألماظة . حيث ترك إلى ظهر اليوم التالى . ثم جاءت سيارة (جيب) . وبها اليوزباشى (حسن التهامى) ومعه خمسة من الضباط . ودارت به السيارة في الصحراء دورة ثم عاد إلى منزله .

وفى مساء اليوم التالى ٢٧ فبراير ١٩٥٤ ، اصدر مجلس قيادة الثورة ، بيانا جاء فيه : « انه حفاظا على وحدة الأمة ، يعلن مجلس

قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية . وقد وافق سيادته على ذلك » .

وفى ذات يوم .. كنت اتحدث مع « عبد الناصر » عن بعض احداث الماضى ، فقال : « لقد اقترح أعضاء مجلس قيادة الثورة فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٤ اعتقال (نجيب) ، لكننى عارضت ذلك بشدة ، وقلت لهم إن (نجيب) يمثل للناس الان معانى احسن مما نمثل نحن لهم ، فهو رمز عودة الحياة النيابية ، واطلاق سراح المعتقلين ، وترك الحكم للمدنيين ، واستئناف الأحزاب القديمة نشاطها . أما نحن .. فاننا نمثل القيود والحكم العسكرى . فلابد من فترة تهدأ فيها العاصفة ، ويظهر للناس أننا نمثل قيما جديدة أعلى وأسمى من قيم العهد الذى جئنا نزيله . ولكنهم لم يأخذوا برأيى . فكانا ما كان . ولما رأيت وجوب اعتقال نجيب فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ لأنه فقد كل ركائزه ، ولأن وجوده فى قصر عابدين داع إلى البلبلة لكثرة ما يردده لزواره - ولا سيما من السودانيين - من شكاوى وانتقادات ، فهو ازعاج لا مبرر له ، وان كان لا يزيد على أن يكون ازعاجا . وقد كان باقى اعضاء مجلس قيادة الثورة ، أو أكثرهم يعتبرون ان اخراج نجيب من رياسة الجمهورية ، واعتقاله ، سيجدد الاهتمام به ، وقد يدفع بعض الساخطين هنا أو هناك إلى الاقدام على عمل محدود ولكنه طائش ، ويكلفنا بعض الجهد بغير داع .. وتغلبت نظريتى ، وتم عزله ، بأقل الجهد من جهة ، وبلا أى أثر يذكر من جهة أخرى .

● لواء .. من اللواء ؟!

ولقد اصبح الضباط الشبان ، منذ وقع الشقاق بينهم وبين الرئيس نجيب ، شديدى الحساسية لكل ما يتصل بنجيب ، ولم يعودوا يطيقون سماع حتى مجرد اسمه . وقد حدث ونحن نتناقش فى احد اجتماعات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء العسكريين والمدنيين أن قلت عبارة لا أذكرها الآن بالضبط ، ولكننى أذكر أننى إستخدمت كلمة (لواء) وأنا أقول : « إن كل حركة تحتاج إلى وعاء يضم أفكارها ، ويحتوى على رجالها ، ولابد لها من (لواء) يرمز اها ويشير إليها » . فإنتبه « عبد الناصر » قائلاً: « لواء ؟ من اللواء ؟.. » .

فقلت له : « لا أعنى (لواء) فى الجيش ، إنما أعنى علماً ، راية ، رمزاً . » فقال ، وقد إستراح : « آه مفهوم .. » .

ثم حدث أن إجتمع نفس المؤتمر المشترك فى مقر مجلس الأمة ، ولم يكن من المنتظر حضور « نجيب » إليه ، لأن « عبد الناصر » ، كان لايزال يشغل منصب رئيس الوزراء الذى تولاه فى فترة الخلاف مع « نجيب » وإستقالته من منصب رئيس الجمهورية . فقال «عبد الناصر» بينما الوجوم والتجهم يعلوان وجهه : « هل نقتله لكم ونستريح ؟ » ولم يكد يتم هذه العبارة ، حتى دخل « نجيب » ، وأعلن أنه قد سامح كل الذين إعتدوا عليه ، وإنه غفر جميع الأعمال التى وقعت فى حقه .

ثم إنعقد مجلس الوزراء فى مقره المعتاد بشارع مجلس الأمة برئاسة محمد نجيب . وكان قد إتفق على إعداد بيان يتلوه « صلاح

سالم » من الإذاعة إعتذاراً ما صدر في حق « نجيب » خلال فترة الخلاف . وكان « صلاح » قد أطلق لسانه فى « محمد نجيب » بعبارات شديدة الأقذاع ، فصعدت إلى مكتبى بنفس المبنى ، وكان يعلو قاعة المجلس ، وقضيت فترة أكتب فيها كلاماً أحاول فيه ألا أمس أحداً ، ولا أجرح أحداً ، ولا أنكأ جرحاً . وبعد طول الجهد ، كتبت بضعة أسطر ، قرأتها على عجل فلم أفهم منها - وأنا كاتبها - شيئاً ذا معنى ، فلما إستبطأونى ، هبطت بالورقة وتلوتها على المجتمعين . ولفرط دهشتى ، وجدت الجميع معجبين بها ، راضين عنها ، وقد هنأنى بعضهم . وشكرنى كل من « صلاح سالم » .. و « نجيب » عليهم .

ولقد إستمعت إلى تلك الكلمة وهى تذاع ، فلم أزدد فهماً لها ، ولكنها حققت غرضها . وفى السياسة .. ليس مطلوباً دائماً أن نقول أشياء تفهم ، بل يقصد فى بعض الأحيان ، أن تقال أشياء (تسد الخانة) .

وقد أقام (عبد الحكيم عامر) بعد ذلك حفلة كبرى بنادى الضباط بالزمالك إبتهاجاً بالوفاق المرجو ، وكان أكثر المشتركين فى الحفلة يشعرون فى أعماقهم بأن الحفلة يظللها شعور بالكآبة والإحساس بالزيف ..

ثم أقام أحد الوزراء المدنيين حفلة أخرى ، وفيها ، حدثنا الدكتور عبد الرزاق السنهورى أنه وضع مشروع قانون ، لحسم ما قد يجد من

منازعات وإختلافات بين الرئيس نجيب من جهة ، والضباط الشبان - وعلى رأسهم « عبد الناصر » - من جهة أخرى ، وقد كان تكوين هذه اللجنة من ستة أعضاء : إثنين يقترحهما رئيس الجمهورية - أى « نجيب » - إثنين يقترحهما مجلس القيادة ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمحكمة النقض ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمجلس الدولة. فقلت لأستاذى وأستاذ القانونيين - الدكتور السنهورى : « إن القانون لا يحترم فى دنيا السياسة ، كما لا يحترم فى دنيا الحرب ، والإتفاق الذى تقترحه أشبه شىء بلجنة تحكيم تقترح بين الأرض والزلازل ، أو بينهما وبين العواصف ، أو كمن يدخل فى حلبة صراع بين رجلين بين أسنان كل منهما سكين قاطع يود أن يبتر به رأس خصمه .. وصاحب القانون يتلو عليهما من نصوص قانونه ما طاب له ، ولا أحد يلتفت إليه ، وقد تصيبه من سكين أحدهما ضربة تقضى عليه » .

فإحمر وجه أستاذى ، وسكت ، وطوى الورقة .

***

وفى هذه الفترة العصيبة وصل المرحوم الملك سعود ، وكنت قد سافرت إلى مكة لمصاحبته على رأس بعثة الشرف ، فى إولى زيارات ملك سعودى لحكومة الثورة . وكان الملك عبد العزيز آل سعود قد توفى منذ بضعة أشهر . وقد شاءت الظروف أن يكون له دور فى أزمة الحكم فى مصر . وفى أبان الإزمة ، قضت الظروف أن يسافر الملك إلى

الاسكندوية ، وكـان البـرنامـج الموضـوع لـهذه الرحلة ، إن يكون رئيس الجمهورية فى صحبته ، فى حين أن القواعد المرعية ، تقضى بأن رئيس الدولة يستقبل الضيف ويودعه ، ويدع صحبته فى باقى التنقلات لرئيس الوفـد المرافق ، إلا التنقـلات ذات الدلالة السـياسـية ، كحـضـور جلسة البـرلمان ، أو حـضـور مناورة عـسكرية ، ولذلك لم يكن ثمـة مـا يدعـو الرئيس نجيب لمصاحبة الملك ، والبلد يغلى ، والأحداث تتزاحم . ولكنه سافر فى قطار الصباح ، وكانت الصحف قد نشـرت حديثـاً معزواً إلى الرئيس نجيب مـع (مصطفى النحاس باشـا) ، أظهرت فيه الرئيس فى ثوب المتلطف للنحـاس ، والمتبـرىء من أعـمال الثـورة .. وأن مـيوله مع الأحـزاب القديمة .. وقد بدا على الرئيس نجيب إنشغال البال بأثر هذا الحديث فى نفوس الناس ، وخشى أن يتـهم بأنه ضـد قرارات الثـورة لإصـلاح أسس السـياسـة فى مـصـر ، وتطهـيرها من الفسـاد . وقـد سألنى : « أيعلن فى خطبة أنه لا يود عودة الأحـزاب القديمة والفاسدة ، بل عودة أحزاب جديدة صـالحة ؟ » . فقلت صادقاً : « لا تقلق على الأمر كلية . فـالأحداث وصلت إلى درجة لم تعـد التـصـريحـات والتـصـريحـات المضادة تلعب فيها شـأناً ذا قيمة . لقد إنتقل الصراع من ميدان الرأى العام إلى ثكنات الجيش » .

ولما وصلنا إلى الإسكندرية ، وإتجه مـوكبنا إلى « أبى قـيـر » على الكورنيش ، إسـتـأذن نجـيب من الملك ، تركـه عند نـاد للضـبـاط على

البحر ، ودعبت على عجل لأن أجلس إلى يسار الملك . ولما عدنا فى المساء لم يكن الرئيس معنا . فقد عاد وحده بطائرة . وتناولنا العشاء فى « هليوبوليس بالاس » بدعوة من تاجر سعودى ، لعل إسمه «البطبيشى» ولقد أدهشنى أن الملك - بعد يوم شاق كثير التنقلات ، ملىء بالمفاجآت - كان صافى المزاج ، يروى بعض الطرائف ، ويضحك عليها .

وبعد منتصف الليل - فى نحو الساعة الواحدة صباحاً - ذهبنا إلى قصر الطاهرة ، فإستأذنت من الملك فى أن أستريح قليلاً .. وأخذت مقعداً وجلست فى شرفة مطلة على حديقة القصر ، التى بدت فيها أشجارها الطويلة الأنيقة ، وكأنها أشباح تبعث فى قلوبنا الخوف والفزع . فقد ترامت إلينا أخبار بوادر صراع عسكرى قد يغرق البلد كله فى بحر من الدماء . وفجأة لمحت الرئيس نجيب يقطع البهو فى الدور الأول مسرعاً ، بخطى لست أدرى لماذا بعثت فى نفسى شعوراً بالقلق ، لقد خيل إلىّ أنها فى تعاقبها وسرعتها ، كأنها تروى نبأ كل ما يجرى وما سيجرى .

وجاء « عبد الناصر » - وعلمت فيما بعد أن « عبد الحكيم عامر » كان معه ، ولكننى لم ألحظ دخوله مع جمال - ثم جاء « السنهورى » فشعرت بعدم إرتياح لمشاركته المباشرة والصريحة فى شئون السياسة .. الأمر الذى قد لا يتفق تماماً مع مركزه على رأس أعلى محاكم الدولة الإدارية .

وانفض الإجتماع على مصالحة جديدة .

ومضيت إلى بيتى ، وقلبى مثقل بالهم .. وفى الصباح ودعنا الملك فى المطار ، وكان كل من معى فى الوفد المرافق لى والمصاحب للملك ، يلح علىّ فى أن نصحب الملك فى العودة . ولكن أهل الفتوى فى دنيا التشريعات ، قالوا إن الملك ليس عائداً لوطنه .. بل إلى الكويت . ومن هنا .. فلا يجوز للوفد المصرى أن يرافقه ، لأنه بعمله هذا ، إنما يفرض ضيافته على دولة لم تستضفه ، وربما لا تود أن تستضيفه .

وسلمت على الملك مودعاً ، وتوجهت إلى مكتبى ، لكنى قبل أن أصل إليه ، علمت أن الرئيس نجيب أغمى عليه ، وسمعت تعليقاً على إغماء الرئيس ، بإعتباره إحدى حيل الرئيس لإستدرار العطف عليه . وإجتمعنا فى نفس اليوم - أو فى اليوم التالى لست أذكر جيداً - فى بيت « محمد نجيب » الصغير فى حلمية الزيتون ، على مائدة بسيطة ، أشبه شىء بمائدة فى بيت موظف متوسط . وقد سبق أن سمعت تعليقاً من « عبد الناصر » على بيت نجيب المتواضع ، وكان « عبد الناصر » يعتبر هذا الإسراف فى التواضع ، مبالغة لا معنى لها ، وقد أحسست من هـذا التعليق ، أنه يعتبر هـذا التقشف لوناً من « التهريج » .. أو « التظاهر » . فقلت له : « الحق أننا فى أشد الحاجة إلى هـذا (التهريج) .. لو سلمنا ، جدلاً انه كذلك » . فهز « عبد الناصر » كتفيه ولم يعقب ..

وفيما نحن نتناول الغداء .. وصلت أنباء ذلك الإضراب المحكم الذى أعلنه إتحاد عمال النقل ، والذى شل كل حركة فى البلد ، وأتعب الناس، وعطل مصالحهم . فصدرت من السيد وزير العدل - المرحوم أحمد حسنى - عبارة ، وجهها إلى المرحوم « جمال سالم » ، قائلاً :

« الناس تعبت من الإضراب .. ويحسن أن ترفعوه » . فصرخ جمال سالم : « ومالنا نحن والإضراب .. الإضراب إضراب العمال .. كل شيء ينسب إلينا ويلصق فينا ؟! » .

ثم جاءت أنباء زحف مظاهرة إلى دار مجلس الدولة ، وأن المتظاهرين أحاطوا بالدار ويمنعون من فيها من الخروج وعلى رأسهم رئيس المجلس « عبد الرزاق السنهورى » ، فاقترحت أن يذهب فى الحال عضو من أعضاء مجلس القيادة يكون معروفا للجماهير ليفض المظاهرة بسلام ، وإقترحت أن يندب « صلاح سالم » لهذه المهمة التى قبلها بإرتياح . وقد سمعنا - بعد أن غادر صلاح سالم المنزل - أن المظاهرة يقودها ضابط مخابرات يدعى « حسين عرفة » ، وأن السبب في هذه المظاهرة ، وفى إتجاه المتظاهرين إلى مجلس الدولة ، هو نبأ نشر في جريدة الأخبار بأن الجمعية العمومية لمجلس الدولة إنعقدت للنظر في الشئون العامة ، وتسربت إلى الناس إشاعة أن المجلس سيصدر قرارات تؤيد عودة الحياة النيابية ، ورجوع الضباط إلى ثكناتهم .

ولقد كذب كثيرون ممن كتبوا عن هذه الواقعة ، فيما بعد ، هذه الإشاعة ، وقالوا إن مصدر هذه الإشعة هو مجلس قيادة الثورة ، ليتخذ منها ذريعة لضرب السنهورى ، والإعتداء على مجلس الدولة كصورة من صور التأديب للقضاء والقضاة ، والمؤسسات التى قد تقف في وجه الثورة .

وقد أورد الرئيس نجيب فى كتابه (كلمتى للتاريخ) : « أن مجلس الدولة إنعقد فعلاً ، وأصدر قراراً بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ و ٢٥ مارس » ، وقال بالحرف الواحد : « وقد إعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرزاق السنهورى وعلى باقى الأعضاء بالضرب الشديد ، ومزقوا القرار الذى إتخذ .. » .

وبهذا الحادث مضى عهد حافل من عهود الثورة .

الفصل الثالث

قذائف ولطائف

فى مجلس الوزراء

● فى السابع من سبتمبر ١٩٥٢ .. بعد أن لقينى « سليمان حافظ » على مقربة من مبنى إدارة قضايا الحكومة . وبعد أن علمت منه أن تشكيل وزارة جديدة سيتم ظهر هذا اليوم ، وأننى مدعو للإشتراك فيها، وأنه إعتذر عن أن يرأسها ، بعد أن رشحته ، فى الخامس من سبتمبر ١٩٥٢ لهذه الرياسة للضباط الشبان الذين قاموا بالثورة ، وبعد أن قبلوا هذا الترشيح ، وفاتحوه فيه فإعتذر عن قبوله ، ورشح بدلاً منه الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، صديقه .. وزميله ، منذ كانا تلميذين فى مدرسة رأس التين الثانوية – ثم إنتهى الأمر ، فى صباح يوم ٧ سبتمبر فى سنة ١٩٥٢ ، بأن تقرر أن يتولى اللواء محمد نجيب رئاسة الوزارة . فذهبت إلى مبنى قيادة الثورة فى كوبرى القبة بعد أن إنتهت عملية الترشيح ، والإعتذار ، والقبول . وإنتقلت الوزارة

الجديدة إلى سراى عابدين لتجرى مراسم التشكيل من إعداد الوثائق ، وأداء اليمين . وقد تم ذلك فى المساء المتأخر . فذهبنا إلى سراى عابدين فى عربتى الصغيرة ، « الهيلمان » وأنا منهك القوى ، شاعر بالتعب .وبالسأم .. وبشيء من الضيق . وقد كنت مندهشاً ، غاية الإندهاش ، من هذه الحالة التى شملتنى وكان من الطبيعى أن أكون سعيداً مبتهجاً .. سواء إذا نظرت إلى الأمر من جانب شخصى ، أو من جانب عام .

فمن الجانب الشخصى .. ها أنا أدعى إلى الإشتراك فى الوزارة .. والوصول إلى منصب الوزارة في مصر ، وفى العالم كله ، فى القديم والحديث هو مرتبة من مراتب النجاح للشخص ، وهى خطوة نحو تحقيق أهداف هذا الشخص العامة - إذا كان صاحب مبادىء . وأهدافه الذاتية - إذا كان طامعاً فى الجاه ، مؤملاً فى أن يجنى من وراء منصب الوزارة ، المال ، والنفوذ ، لنفسه ولذويه .. ولأنصاره .. ولمن يحب !..

***

على أن الوزارة التى دعيت للإشتراك فيها ، هى أولى الوزارات التى يمكن أن تحول الثورة التي قامت فى مصر - قبل أقل من شهرين من تأليفها - من آمال ، وأحلام ، إلى حقائق ، وواقع . فهى ليست مجرد وزارة . وإنما هى « نقلة » فى تاريخ بلدى ، لن تلبث أن تكون « نقلة » فى تاريخ العرب ، وربما خطوة فى تاريخ الإنسانية كلها .. باعتبار أن

العالم مترابط ، وأن ما يحدث فى جانب منه .. لا يلبث أن يترك آثاره ، وصداه ، فى جوانب الدنيا الأخرى مهما نأت عنه . هذا كله .. فى ملاحظة أنى لم أكن مجرد سياسى يدعى للإشتراك فى وزارة ذات مهام شاقة بل إن الظروف أكرمتنى وجعلت لى دوراً فى تأليف هذه الوزارة .. وفى إختيار أشخاصها ، وفى توجيه الأمور المتعلقة بها، والمتفرعة عنها.

فلماذا ، إذن ، هذا الشعور بالإنقباض وخيبة الأمل ، والملل ؟.

ولعل مساومات الصباح جعلت نظرتى للأمور ، متسمة بالتشاؤم . فها نحن أولاء فى أعقاب ثورة ضخمة . ولكنا ، مع ذلك ، حينما نتكلم في تأليف وزارة تبدو المطامع الشخصية والحزبية .. حينما ندعو الناس للوزارة ، لا نجد مظهراً للمبادىء وحينما نتهيأ لتشكيل حكومة وطنية ، نرانا مضطرين إلى جمع عدد من الناس من هنا وهناك .. دون أن تربطهم علاقة من رأى ، ولا صلة من جهاد سابق ، بل دون أن يجلس بعضهم إلى بعض ولو لمدة نصف ساعة ، يتساءلون : « ماذا سيفعلون » . ثم يجيبون على هذا السؤال .. ولو بكلمتين .

إن بعض الوزراء في هذه الوزارة ، لم يكن يعرف أسماء بقية أعضائها بل لعله لم يسمع بها من قبل ، وبعضهم لو قيل له – قبل دخوله الوزارة بنصف ساعة أنه سيشتغل بالسياسة ، لاستلقى على قفاه من الضحك !! ومنهم من لو قيل له أنه سيشترك – مع بعض الذين زاملهم فى الوزارة – فى راحة وإستجمام ، لرفض أن يسير معهم فى

طريق . وقد كان من الوزراء من دخل هذه الوزارة ، لأن صديقاً ذا نفوذ رشحه لها .. كل هذه المعانى جالت فى خاطرى .. ربما بوضوح أقل ، ولكنها لابد وأن تكون قد عبرت إلى وجدانى فألقت فيه غير قليل من القتامة .

***

دخلنا سراى عابدين ، بملابسنا العادية . وكنت ، على وجه خاص . لم أغير ثيابى منذ الصباح ، ولم أسترح ولو لبضعة دقائق . وتناولت طعاماً خفيفاً عند الظهيرة ، ولم أحصل على نصيب من النوم بعد الظهر - كعادتى - يعيننى على مواصلة النشاط حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، كما حدث ، ومن هنا ، فإننى حينما دعيت إلى « حلف اليمين » تصورت أن لو أن الملك المعزول « فاروق » إستطاع أن يخترق الحجب . وأن يرانا - ويرانى أنا بصفة خاصة - فى « سترة بيضاء - تثنى قماشها وترهل ، لطول ما جلست وسرت بها نحو خمس عشرة ساعة كاملة .. دون إنقطاع ، لفجع . إذ أصبح « القصر الملكى المقدس » يستقبل وزراء فى ثياب كثيابى . وهو الذى لم ير سوى وزراء فى ملابس (الردنجوت) والنساء فى أجمل ثياب السهرة . بل لعل خدم القصر ، فى هذه اللحظة ، كانوا أكثر أناقة منا ، وأحق منا بالوزارة .. إذا قيس الأمر بالثياب ، وبالمظهر !!.

***

إنتشر زملائى الوزراء فى قاعات القصر ، يتجاذبون أطراف الحديث .. وتركونى أكتب خطاب تأليف الوزارة إلى « مجلس الوصاية » الذى كان مكوناً من أحد الأمراء - سمو الأمير محمد عبد المنعم - ومن أحد كبار الساسة فى العهد السابق للثورة - الدكتور محمد بهى الدين بركات (باشا) الأستاذ الأسبق بكلية الحقوق ، ثم رئيس مجلس النواب ، فرئيس ديوان المحاسبة ، وواحد من أغنى أغنياء مصر - وآخر ضابط سابق بالجيش ، لم يبلغ فى سلم رتبه أكثر من رتبة العقيد (القائمقام) - وهو السيد محمد رشاد مهنا - وقد كان هناك إلى جانب خطاب تأليف الوزارة المعبرعن سياستها ، وثائق أخرى تعد ، وتجهز ، صبرت على إعدادها ، ثم أدينا اليمين ، وتلقينا التهانى وإنصرفت إلى بيتى وقد أوشك النهار على الطلوع ، بينما رأسى يكاد ينفجرمن التعب الجسمانى ، والجوع ، والتوتر العصبى ، وعدم الرضا.. وعبثاً حاولت النوم فى تلك الليلة حتى كاد الفجر أن يشرق . فغفوت على أريكة ساعة أو بعض ساعة ، إستقبلت بعدها يوماً .. بل أياماً مشحونة بالحركة . وبالكلام وبالأحاديث ، والمقابلات ، وبالرجاءات . وبالإنتقادات ... الخ .

***

وأخيراً .. إنعقد مجلس الوزراء برئاسة اللواء محمد نجيب ..

وقد كانت جلسات مجلس الوزراء فى أول الأمر ، هادئة .. ليس فيها

ما يستحق أن يذكر . فلا مناقشات حادة ، ولا خلافات عنيفة . وقد أضفى عليها الرئيس محمد نجيب غير قليل من طيبته ، وإنسانيته ، ولطفه ، ولا زلت أذكره « وغليونه » إما فى فمه .. وإما بين يديه يحشوه بالدخان وهو يتكلم ثم ينصرف بعد قليل من بداية الجلسة ، وعصاه وعدد كبير من الكتب ، والصحف والمجلات تحت إبطه . وقد كان من حظى أن أجلس على الطرف الآخر من طاولة الإجتماعات فى المجلس . إذ أبى زميل لى كان يعمل فى سراى عابدين ، قبل الثورة .. وإستمر فيه بعدها - أبى إلا أن يضعني فى ذيل الوزارة . فقبلت دون مراجعة .. لأن التقدم ، والتأخر « البروتوكول » لم يشغلنى ولو للحظة . وكان من نصيبى أن أحدد للسادة الوزراء الراغبين فى الكلام ، دورهم فى الكلام . ولما كنت قائما بأعمال (الإعلام) ، لأن « الاذاعة » أسندت اليّ ، فقد كان من واجبى ان ألخص ما يجرى فى المجلس من مداولات ، وأن أذيع ما انتهى اليه من قرارات .

وعلى الرغم من هدوء جلسات مجلس الوزراء ، فانها كانت طويلة طولا لم يعهده مجلس وزراء ، لا فى مصر ، ولا فى غيرها !! فقد كانت تبدأ الساعة العاشرة صباحاً ، أو الحادية عشرة ، وتستمر حتى ما بعد منتصف الليل . وقد عبرت إحدى الصور الكاريكاتورية عن هذه الظاهرة الجديدة . فصورت أحد الوزراء صاعداً درجات سلم منزله ، وفى يده حذاؤه حتى لا يوقظ زوجته فتعرف فى أية ساعة متأخرة عاد إلى بيته .. كأنه كان فى سهرة محرمة !!.

وقد ترتب على هذه الجلسات الطويلة أن عدداً من الوزراء كان يستغرق فى النوم أثناءها !! وكان المرحوم إسماعيل القبانى وزير المعارف (التربية والتعليم) لا ينام فقط .. وإنما يسمع له « شخير » عال .. وهذا لا يغض فى أنه كان عالماً فاضلاً ، ومواطناً شجاعاً .. يدافع عن رأيه وكرامته بلا هوادة .. وقد كان الرئيس يحتاج فى بعض الأحيان إلى إيقاظ الوزراء من نومهم ، ليأخذ آراءهم فى المسائل المعروضة .. ولهذا أصبح من فكاهات المجلس المتداولة ، عبارة قلتها مرة ، وهى : « الموافق من حضراتكم يصحى .. » بدلاً من « الموافق يرفع يده » !! لم يكن السهر مقصوراً على جلسات مجلس الوزراء ، وإنما شمل لجانه الفرعية .. وفى إحدى اللجان - وكانت برئاسة المرحوم جمال سالم - سهرنا حتى الصباح تماماً لمناقشة قانون المرور ! ولكن مندوبى الصحف الذين ناموا على مقاعد مبنى مجلس الوزراء ، كانوا يظنون أن هذه اللجنة تبحث مسألة من أخطر مسائل الدولة . فلما خرجنا لنستقل السيارات إلى منازلنا ، كان منظر هؤلاء الصحفيين ، أشبه بصرعى ميدان قتال .. فمنهم من إنكفأ على وجهه على منضدة إلى جواره . ومنهم من تمدد على ظهره . ومنهم من افترش أرض المجلس ، وراح فى نوم عميق وهادىء !! ولما وصلت إلى ميدان « العتبة الخضراء » العريق .. وقد طار النوم من عينى من فرط الاجهاد العصبى ، رأيت فى السماء نوراً ساطعا يكتب بحروف فى لون بين الأزرق والأخضر .. كلمة « يارب » ! فخيل الىّ أننى أحلم ، أو

أن سهر الليل أتعب أعصابى فجعلنى اتخيل مالا وجود له ، فهتفت مخاطبا سائق السيارة : « يا حاج عبد العزيز : ألا ترى ؟ » . فقال الرجل بهدوء : « خير » .. قلت : « ألا ترى أن السماء قد اضاءت بلفظ الجلالة .. إنها ظاهرة لها دلالتها » . فضحك الرجل - وكان قد اعتاد أن يمر من هذا الميدان كثيرا فى مثل هذه الساعة ، فى طريقه إلى بيته - فقال : « هذا اعلان بنور الكهرباء ، عن محل رجل يهودى اسمه ديارب » .. فضحكت من نفسى طويلا .

وفى هذه الليلة الطويلة .. كان يتخلل مناقشاتنا بعض الدعابات وتبادل الفكاهات . وقد قال لى المرحوم جمال سالم ، فى مرة من هذه المرات التى كنا نضحك فيها ، ان ما يقوله أحد الأعضاء فى التعليق على مادة من مواد القانون الذى كنا نناقشه يذكره « بقصة البربرى » . فلما سألته : « وما هى هذه القصة ؟ : » . قال : « سأرويها لك بعد أن ننتهى من مناقشة هذه المادة » .

وطالت المناقشة حتى استنفدت ساعة وبعض ساعة . فلما فرغنا منها استنجزت « جمال سالم » وعده وطالبته بأن يحكى لى قصة البربرى التى وعدنى بها ، فقال متسائلا : « أى بربرى !؟ ماهم البرابرة كتير» !! . وكان هذا الرد كفيلا بأن ننفجر فى الضحك وأن نكف عن العمل بعد ذلك اذ ثبت من سؤالى .. ومن جوابه ، اننا لم نعد صالحين للاستمرار فى العمل .

وقد كانت هذه السهرات سببا فى اشاعة أن « وزراء الثورة » متقشفون .. وذلك لملابسة غير مقصودة . فقد حان موعد الغداء يوما ، فاقترح أحد الوزراء أن نطلب بعض (الطعمية) والجبنة ، والخيار ، (وسندوتشات الفول المدمس) . من قبيل التغيير من جهة ، وتيسيرا على موظفى مجلس الوزراء الذين كلفناهم بإحضار الطعام ، من جهة أخرى !! فالتقشف لم يكن مقصودا ، ولا هو مر بخاطر أحد . فلما سئم الوزراء من الطعام الواحد ، وطلبوا أنواع اللحوم المشوية ، كانت تعليقات الناس : « إن الوزراء الذين بدءوا بالطعمية والفول المدمس – خداعا للجماهير ، واستجلابا لحسن ظنها – كشفوا عن حقيقتهم ، وأكلوا الفاخر من اللحوم ، والفاكهة ، والفطائر ! ..

ولم يخل الحال فى مجلس الوزراء من مصادمات صغيرة ، منحت الجلسات مذاقا حاميا .من ذلك : أن المرحوم الدكتور عباس عمار ، عاتب زميله اسماعيل القبانى لأنه لم يرق أحد أقاربه الأقربين – وكان من كبار موظفى وزارة المعارف – إلى وظيفة وكيل وزارة . وكان الظن أن المرحوم القبانى سيرد على هذا العتاب الهادئ بأحد الأعذار التقليدية التي يرد بها الناس ، عادة فى مثل هذه المواقف . ولكن الوزراء فوجئوا بالأستاذ القبانى يرد على زميله قائلا : « اننى لم أرق قريبك لأنه منافق .. » ووجم الدكتور عباس – رحمه الله – واستمر القبانى يقول بهدوء :

« إن الناس تظن أننى محسوب على الدكتور طه حسين وأن له أفضالا علىّ ، وهذا غير صحيح » .. ثم قال القبانى : « ولما كنت أعرف



جائزة الدولة لطه حسين عام ٥٩ .

أن قريبك مدين ، فعلا ، للدكتور طه حسين ، ولأنه يعلم أن بينى وبين الدكتور طه خلافا فى الرأى ، فقد ظن أن تبرأه من الولاء لطه حسين سيكسبه عطفى ، فدعانى هذا الموقف إلى الاشمئزاز . وقلت له : « لماذا تقول لى هذا .. أنا أعلم أن للدكتور طه أفضالا عليك ، ولا داعى لإنكارها .. فإن هذا لن يقربك الىّ .. ولن ترقى فى عهدى » .

وقد كان هذا القول تجديدا فى مناقشة الوزراء . وفعلا لم ينل هذا الموظف الكبير خيرا فى عهد « القبانى » ، وإن كان قد عوض عن ذلك فى العهود التالية حتى وصل إلى منصب الوزير !! .

ومن هذه المواقف الحادة ، أن منصبا كبيرا ذا خطر خلا من شاغله . ودار البحث فى مجلس الوزراء حول الأشخاص الذين يصلحون لشغله ، فرشح لذلك اثنان كانا – بطريق الصدفة المحضة – من الأصهار الأقربين إلى أحد الوزراء . بل كان أحدهما والد زوجته مباشرة ، بينما كان الثانى ابن عمها ، فإذا بهذا الوزير يعترض على الترشيح ، ولا يكتفى بالاعتراض . وإنما يسوق لاعتراضه اسبابا ، فوالد زوجته – فى رأيه – لا يصلح (لانه دساس) !! وقالها – بالصعيدية – « مقلبجى » – بالجيم المعطشة – أما الثانى .. « فلا يصلح لأنه (ساقط المروءة) . وقد بلغ من سقوط مروءته ، انه تحاشى زيارة عمه ، لما علم أنه محل سخط احدى الوزارات الحزبية قبل الثورة . بل كان يتحاشى أن يتبادل معه التحية فى الطريق » !! .

والغريب أن هذا الكلام كله نقل إلى الرجلين ، فجاء احدهما يسألنى عن صحة ما دار فى المجلس بشأنه . فقلت له : « ألا تعرف يا سيدى أن افشاء مداولات المجلس جريمة ؟ » فقال : « سأرفع دعوى تعويض على الوزير الذى سبنى وسآتي بك إلى المحكمة لتشهد ، لأننى أعلم أنك لاتكذب » . فقلت له : « إن القانون – يحمينى من أداء اليمين ، ومن الإفضاء بما دار فى جلسات مجلس الوزراء » .. فقال وهو ممرور : « وتقولون ثورة ؟ » ! .

لقد كان قلبى معه . وكنت شديد الاعجاب به ، عظيم الرغبة في أن يشغل ذلك المنصب الذى كان يليق به . ولكن الوزراء تأثروا ، غاية التأثير ، بشهادة زميلهم من ذوى قرباه ، وعدوا ذلك دليلا على أننا فعلا نعيش عهدا ثوريا .. اذ قال أحدهم ، ونحن منصرفون .. وكأنه يعرف الحقيقة : « لا يليق أن تنتقل الخصومات العائلية وأحقادها ، إلى مجلس الوزراء » !! .

وحدث ذات ليلة ، أن دار الحديث فى مجلس الوزراء في شأن شغل منصب (شيخ الأزهر) . فرشح أحدهم « فضيلة الشيخ الخضر حسين » لشغل هذا المنصب ، وكان « الشيخ الخضر » رجلا فاضلا ، وعالما واسع العلم ، ترك اثارا أدبية ، وفقهية ، ودروسا فى الأخلاق الإسلامية ترفعه إلى مصاف الائمة الصالحين ، والدعاة المرشدين . ولكن الرجل كان يعانى ، منذ صباه ، شللا يظهره أكبر من سنه ، ويبدى عجزه عن الحركة والكلام . ولكن ذلك المظهر لم يكن يمثل الواقع

فى كثير أو قليل . فقد كان الرجل حاضر الذهن ، شجاعا قادرا على أن يقرأ ، ويكتب ، ويدرس .

وقد رأى مجلس الوزراء أن يوفد ثلاثة من الوزراء إلى بيت « الشيخ الخضر » ، ليروا ما اذا كان فى حالة صحية تسمح له بتولى هذا المنصب الجليل . وكنت واحدا من هؤلاء الثلاثة . وقد خرجنا من مبنى مجلس الوزراء سيرا على الأقدام إلى منزل فضيلة « الشيخ الخضر » ، عليه رحمة الله ، وتعقب الصحفيون خطانا ، ونشروا لنا صورة كتبوا تحتها : « ثلاثة من الوزراء يخرجون من المجلس .. بحثا عن شيخ للأزهر » ! ..

والشيخ الخضر تونسى الأصل ، وقد حكمت عليه محاكم الاحتلال الفرنسى فى تونس بالموت . فلجأ إلى بعض البلاد العربية . ثم ألقى عصا التسيار بمصر . وباشر فيها نشاطا تربويا ، وتثقيفيا ، وارشاديا عظيم النفع . فكثر مريدوه ، وكانت له آثار قلمية على أعلى ما يكون التأليف الاسلامى .. فكرا ، وحسن أسلوب ، وبساطة عبارة ، وصدق لهجة . ولم أعرف من شيوخ الأزهر الذين عملت معهم ، أثناء اشرافى على شئون الأزهر - بوصفى وزيرا للدولة - أو بعد تلك الفترة ، رجلا يحمل استقالته فى جيبه ، وكأنه المؤمن الذى لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وقد حمل كفنه معه ، كما رأيت « الشيخ الخضر » .. ولم يسمح الرجل لنفسه أن يساير الحكومة ، ولا أن يردد كلامها ، ولا أن

يخاصم خصومها . ولكن مظهره جنى عليه .. فحرم البلاد منه ، ومن عمله وفضله .

***

وقد كان مرد أكثر ما يقع من حدة فى المناقشة داخل مجلس الوزراء ، إلى أسلوب المرحومين الأخوين « جمال سالم » و« صلاح سالم » الحاد والصارخ . وقد وهب الله كليهما قدرة خاصة على البيان ، والمناقشة ، والجدل ، والسخرية مما يقوله مناظروهم ان لم يعجبهم ، وقد كان (صلاح سالم) - إن طال عمره ، واتسعت له الفرصة - مهيأ لأن يكون خطيبا متقنا لفنون القول . أما المرحوم (جمال سالم) .. فكان محدثا بارعا ، يلتقط بسرعة المعلومات التى تلقى اليه فى مختلف الأمور .

وقد حدث أن وقع بينى وبين المرحوم « جمال سالم » أكثر من تصادم فى مجلس الوزراء .. ولعل مما ساعد على وقوع هذه المصادمات ، أننى ورثت « الأخوين سالم » فى وزارتى المواصلات والارشاد القومى وقد كانت مصادفة عجيبة ، فقد وليت وزارة المواصلات من « جمال سالم » ، رحمه الله ، ثم عاد هو فتولاها بعدى . وكذلك جاء المرحوم « صلاح سالم » ، بعدى فى وزارة الإرشاد ، ثم عدت فتوليتها بعده !! .

ولما دب الخلاف بين الرئيس محمد نجيب والضباط الشبان - وعلى رأسهم المرحوم جمال عبد الناصر - استحال مجلس الوزراء إلى

حلبة صراخ عنيفة . وكان الصراخ يتسرب من قاعة الاجتماعات إلى الخارج ، فيسمعه الصحفيون وموظفو المجلس .. من ذلك الصراخ أن الرئيس نجيب ابدى يوما رأيا معينا فى أمر من الأمور فاعترض عليه « جمال سالم » . فحسمها الرئيس نجيب ، وقال : « هذا أمر متفق عليه بينى وبين جمال عبد الناصر » . فانتفض جمال سالم ، وصاح صارخا فى وجهه : « هى عزبة أبوكم ، أنتم الاثنين ، طيب مادمتم متفقين ما تسيبونا نروح بيوتنا .. هاالله .. هاالله بس اتفقنا .. أنتم فاهمين ان احنا دلاديل ..» وتصاعد هياج « جمال سالم » .. واحتمى الرئيس نجيب بغليونه .. وبصمته . ينفث الدخان من أولهما ، ويقيه الثانى من كلمة ، أو اشارة ، تزيد الهياج اتقادا .

وذات يوم .. زار الرئيس نجيب وحدة من وحدات الجيش . وتحدث هناك عن ضيقه باجراءات الكبت التى تعانى منها البلاد . وقال : « انه يؤمن بوجوب اطلاق الحريات وبلغ أمر ذلك الحديث زملاءه الضباط . فلما وصل الرئيس نجيب إلى قاعة مجلس الوزراء ، وقبل أن يجلس .. وقف جمال سالم وصاح فى وجهه : « أهلا وسهلا » « بميرابو » .. ازيك « ياسى ميرابو » .. حرية .. حرية ايه اللى انت عايزها .. ؟ » .

وأسرع « صلاح سالم » فانضم إلى أخيه فى الهجوم على « نجيب » .. ولم يتوقف صياح الأخوين إلا بعد وقت غير قليل !! .

وكان الدكتور محمود فوزى ، فى جميع هذه الجلسات الصاخبة ، والهادئة معا ، صامتا لا يتكلم .. ولا يبدى رأيه فى شىء .. ولا يحدث حتى زملاءه الجالسين إلى جانبه !! وفى ذات ليلة ، نظر جمال سالم إلى الدكتور فوزى وهو غارق فى صمته سابح فى أفكاره .. وقال له : « يا بختك يا دكتور فوزى بأعصابك .. ولا انت هنا .. ما تدنيش شوية من أعصابك دى وتاخذ نص عمرى » !! .

وكان للرئيس جمال ، رحمه الله عبارات تقليدية فى المجلس ، يكررها فى المجلس ويضحك عليها ، كما كانت له تقاليد يحافظ عليها .. وأول هذه التقاليد أن يأتى متأخرا عن موعد افتتاح الجلسة ساعة ونصف ساعة ، أو ساعة على الأقل . وذات يوم – وكان عبد الناصر قد أعلن أن هناك اجتماعا فى اليوم التالى فى الساعة السادسة – سأله كمال الدين حسين : « ستة يا ريس يعنى ستة .. والا سبعة ؟ » . فضحك « عبد الناصر » و قال : « لا يا كمال . ستة يعنى ثمانية » . وضحك بطريقته الخاصة .

وكان من « عباراته التقليدية » أن يسأل المرحوم الأستاذ أحمد حسنى وزير العدل كلما عرض على المجلس قانون : « وأين الخطاب المسجل المصحوب بعلم الوصول ؟ » . فقد لاحظ رحمه الله ، أن كل قوانين وزارة العدل فيها نص فى مادة ما من مواد هذه القوانين يلزم المواطنين بإرسال إخطار « بخطاب مسجل مصحوب بعلم الوصول » .

فإذا خلا قانون من هذا النص ، داعب الرئيس جمال وزير العدل قائلا :
« جرى ايه فى الدنيا .. هذا قانون بلا (علم وصول) ، هل يستقيم ؟! ».

وكان يطلق على الموظف الصغير الذى يملك أن يعطل أى أمر صادر من سلطة أعلى ، بوسائله البيروقراطية ، اسم : .

« عبد السميع أفندى » .. وكان جميع ضباط الثورة . قد حفظوا هذا الاسم ، وجرى على ألسنتهم . فأصبح « عبد السميع افندى » نظير (المصرى افندى) فى الصور الكاريكاتورية فى صحف مصر ، ولكنه رمز على الموظف المصرى الصغير البارع فى التعطيل ، والإرجاء ، والتسويف .

وكان - رحمه الله - يروى ، إحيانا ، بعض فكاهات غير مضحكة ، ثم يكون هو أول من يضحك عليها . من ذلك ما قاله من أن مؤتمراً عقد للنظر فى النحل ودراسته ، فقدم الانجليز بحثا فى طبائع النحل ، وقدم الفرنسيون بحثا فى الحياة الجنسية للنحل ، وقدم الألمان بحثا فى تحليل عسل النحل ومركباته ، أما المصريون فقد صاحوا : « النحل ياهوه » ! .

وقد عاتبته يوما على هذا الفكاهات التى يروجها ضد المصريين خصومهم .. مع أن المصريين القدماء ، كتبوا عن النحل وعسله ، وفوائده ، منذ الاف السنين . فقال :« ياسلام على الحزب الوطنى ، مش مخلى الناس تضحك وحيخليهم يقولوا بحق : النحل ياهوه « .

***

وعندما كنا نناقش دستور ١٩٥٦ ، داعبته مرتين ، مداعبة استدعاها الحديث ، فرفض رفضا باتا أن يضحك على كليهما ، لأن الأولى فيهما تمسه . ولأنه لم ينتبه إلى موضوع الفكاهة فى الثانية .. فضايقه !

وقد كانت مناسبة المداعبة الأولى ، نصا واردا في دستور ١٩٥٦ ، يقول : « أن وفاة رئيس الجمهورية تثبت بأغلبية اصوات مجلس الأمة ». فعارضت فى النص على اساس «أن الوفاة واقعة مادية لاتثبت بأصوات النواب ، وإنما الذى يثبت هو اعلان خلو منصب الرئيس فقد يكون الرئيس مخطوفا أو مأسورا » .. وطال الجدال فى هذه النقطة بينى وبينه ، فقلت له : « على كل حال أنا موافق ، لأنه اذا لم (يصوت) النواب عند وفاة رئيس الجمهورية ، فمتى يصوتون !؟ » . فزم الرئيس شفتيه مستاء ، وقال : « طيب يا سى فتحى » ! ..

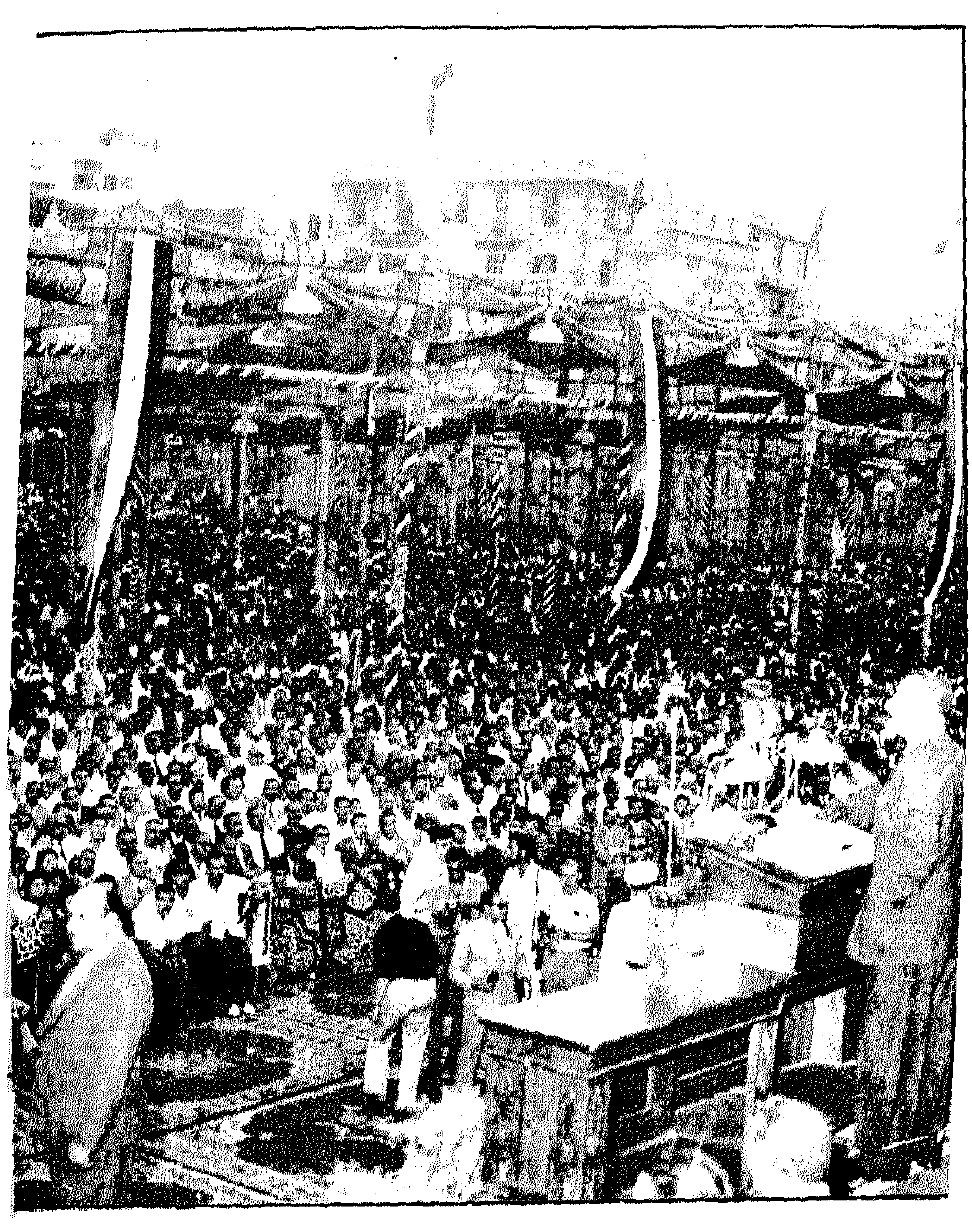
وفى المناسبة الثانية - فى جلسة أخرى - احضر الرئيس معه الدستور « الصينى » واثنى عليه ، فقلت له : « ولكنه سهل الكسر » . فغابت عنه النكتة وقال . « سهل الكسر .. لماذا ؟ » .

فقلت له : « لأنه صينى » . فعقد ما بين حاجبيه وفكر قليلا .. فلما ادرك النكتة ، اشاح بوجهه .. وأبى أن يضحك ! ..

الفصـــل الرابع

عبـــد النـــاصر
وقنـــــاة الســويس

● في الســادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ ، وفي ميدان المنشية بالإسكندرية ، أعلن جمال عبد الناصر ، في إجتماع شعبي ضخم ، إمتلأ به الميـدان الفسيح المترامي بألوف المصريين ومئـات الأجانب . « أنه أمم قناة السويس » . فكان هذا الإعلان زلزالاً حقيقياً في عالم السياسة الكبرى الذي يديره ويشرف عليه ، ويستأثر بإصدار القرارات فيه ، ونقضـها ، جماعة تحيط بها هالات الرصـانة ، والأهمية ،والعظمة ، من أمثال « تشرشل » و« إيدن » و« أيزنهاور » . فلقد كانت قناة السويس - منذ ولدت - « لعبة الكبار جداً » .. كانت لعبة بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا ، وتركيا ، فما الذي حدث حتى يجرؤ شاب لم يكمل الأربعين من عمره ، ورئيس دولة



فى السرادق الكبير التقى الشعب بقائده ليلة عيد الثورة السابع .

لم يخرج آخر جندى من جنود الإحتلال البريطانى من أرضها إلا منذ أقل من شهرين – وبالضبط يوم ١٨ يونيه ١٩٥٦ – ما الذى حدث حقاً حتى يجرؤ هذا الشاب ، على أن يطأ بقدمه هذا الحرم المقدس ، ويقول إنه إنتزع من أيدى أكبر القوات فى الدنيا هذا المرفق الحيوى الذى ولد وسط الأزمات ، وعاش مصدراً للأزمات الدولية ، وتضخم وإغتنى ، وعظم أثره أيضاً بالأزمات الدولية ؟!!.

وصل النبأ إلى رئيس وزراء بريطانيا ، مستر إيدن ، بينما كان يحتفى « بعجوز السياسة العربية – البريطانية » – نورى السعيد – فكاد فنجان القهوة يسقط من يده ، وإنفض الحفل فى وجوم . وذهب كل من المضيف والضيوف إلى حال سبيله فى هم شديد ، كأنهم قد فقدوا جميعاً الآباء والابناء ، والأخوة والأخوات ، والثروة والجاه !!

وبعد أن ذهب الروع عن ساسة أوربا ، خيل إليهم أن إنتزاع القناة من أيديهم ، وبقرار لم يسمعوا بمثله من قبل ، ومن شاب لم يطل عهده بالمسرح الدولى ، سيكون « لعبة » من أمتع لعب السياسة التى باشروها فى تاريخ حياتهم الطويل . قالوا – بعضهم لبعض – « إن هذا الشاب يعبث ، وقد آن الأوان للتخلص منه ، وإراحة العالم من عبثه الذى لن ينتهى » !! حاولوا أن يستعيدوا قناة السويس بكل طريقة متاحة لهم . بالتهديد ، وبالوعيد ، فلم ينجحوا . بالمؤتمرات الدولية .. ففشلوا . بالمظاهرات البحرية ، فلم ينضم إليهم فى تدبيراتهم أحد . وعلى ذلك لم يبق أمامهم إلا الحرب !!

ولم يحل وقار بريطانيا وفرنسا ، وكونهما دولتين شابت رأساهما في تدبير أمور السياسة .. دون أن تعلنا الحرب على مصر . ويأمراها ، ويأمرا إسرائيل في الوقت نفسه ، بأن تبتعد جيوش كل منهما عشرة كيلو مترات عن قناة السويس !!

والعجيب أن « جمال عبد الناصر » ، لم يفزع من كل هذا ، ولم يصدق أن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تشتركا معاً في حرب ضده ، وأن الخطر الوحيد الذي يعتبر إحتماله قوياً ، هو أن تشن إسرائيل الحرب على مصر . وكان يعتقد أن مصر كفء لها ، ولا خوف من حرب معها . ولم يقل « جمال عبد الناصر » هذا الكلام بلسانه .. بل قاله بفعله ..

كان مجلس جامعة الدول العربية منعقداً في القاهرة ، وأزمة قناة السويس في بدايتها . وأقام « جمال عبد الناصر » حفلة عشاء لوفود الدول العربية في هذا الإجتماع .. وإختار « إستراحة الهرم » التي كان الملك السابق فاروق قد أقامها لنفسه على مقربة من « الأهرام » و « أبي الهول » .. وبعد العشاء .. جلس الأعضاء يطلون من ربوة الأهرام العالية على القاهرة ، وأنوار شوارعها ومسارحها تتلألأ ، وتنتظم عقوداً باهرة . وهبت نسائم الصحراء الرقيقة الباردة فأحالت الجلسة حلقة سمر لطيفة .. ولكنها لم تطل ، إذ كان أعضاء الوفود حريصين على أن يستمتعوا بليالي القاهرة لحسابهم ، وعلى مزاجهم ويبقى «عبد الناصر»، مع عدد من وزرائه يسمر .. ويضحك .. ويداعب .. وكان معاونوه ،

يترددون عليه ، ويهمسون فى أذنه بأشياء ، فيستمع جيداً للحظات ، ويعقد حاجبيه « كعادته » ، ثوانى .. ثم يعود إلى مرحه .. وأخيراً لاحظ أن الوزراء يودون أن ينصرفوا ، فقال : « يبدو أن الجلسة طالت علينا .. إتفضلوا .. فسيذهب كل منهم إلى بيته ، أما أنا فسأذهب وحدى إلى مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة .. فعائلتى فى الإسكندرية وبيتى يملؤه النقاشون والمبيضون » .

وذهب كل منا إلى داره وهو لا يدرى أن « عبد الناصر » قد تلقى ، هذه الليلة بالذات ، أخطر الأنباء .. وأكثرها إزعاجاً .

● الأسطول البريطانى .. يتقدم ! ..

من ذلك .. نبأ تقدم الأسطول البريطانى إلى ميناء الإسكندرية « على شكل مروحة » . وكان معاونو « عبد الناصر » يبدون دهشة .. ممزوجة بإحتجاج على أنه يتلقى هذه الأنباء بأعصاب باردة ، وبمزاج حسن ، وأنه لا يود أن يفض هذه الجلسة (غير المهمة) ، ليتلقى تفاصيل هذه الأنباء ، ويدرسها ويمحصها ، ويصدر فيها قراراً . لقد أعلن « عبد الناصر » (هذا السر) بعد ذلك بشهور ، عندما إنتهت أزمة القناة كلها . وبدأت الحملة السياسية التى أعقبتها . وقد أذاع « عبد الناصر » (هذا السر) . ليبين للعالم ، كيف أنه إستبعد تماماً ، ونهائياً . أن تهبط بريطانيا وفرنسا إلى مستوى هذا العبث الصبيانى وأن يشركا معهما إسرائيل فى مؤامرة حقيرة ، لم يجرؤا – حتى اليوم – على الإعتراف بأنهم إشتركوا فى تدبيرها !!.



عبد الناصر شابا فى مدرسة النهضة بالظاهر عام ١٩٣٦ للحصول على البكالوريا .

ولكن حدث بعد ذلك ، ما بدد إطمئنان « عبد الناصر » ، وبدله بالسكينة جزعاً . فقد أقدمت بريطانيا وفرنسا على غزو مصر دون أن يقيما للأمم المتحدة ولا للرأى العام العالمى ، أى وزن !! ولم يقفا عند حد التهديد بإنزال جيوشهما على أرض مصر . بل ذهبا إلى أبعد من ذلك ، فأنزلا هذه الجيوش بالفعل .. ثم إتضح أن للدولتين العظميين خطة كاملة للإستيلاء على القناة ومدنها ، وأن هذه الخطة درست تماماً إلى حد أن الحليفتين طبعتا أوراق « بنكنوت » مصرية مزيفة ، بطبيعة الحال ، لتوزيعها فى بور سعيد والإسماعيلية والسويس ، وما حول هذه المدن - لا ليشتروا البضائع والسلع ومواد الطعام فقط ، بل ليشتروا أيضاً الذمم والرضاء السياسى !! هكذا توهم البريطانيون والفرنسيون . فهم لا يعرفون ، للأسف ، أخلاق العرب والشرقيين .. إذا وجدت على رأسهم قيادة تقودهم إلى ميادين شرف حقيقية .

● ..وفاروق جاهز !!.

بل إن الخطة كانت أوسع من ذلك بكثير .. فقد دخل فى تفاصيلها أن يستعد « فاروق » لتنقله بارجة إنجليزية إلى مصر، أو على الأقل هذا ما أذيع بعد ذلك .

وخيل « لعبد الناصر » أن كل أحلامه قد طارت فى الهواء . وإن جهاد ست سنوات فى سبيل إقامة نظام وطنى جديد قد تهاوى وتبخر .. ولكنه بقى يؤمل .. فقد أرسل إلى السفير الأمريكى وإلى السفير

الروسى ، يسأل كلا منهما : ماذا سيكون موقف بلديهما من هذا الغزو ؟! هل سيكون مجرد « الفرجة » .. والاكتفاء بالإعلان عن الاحتجاج ، والإشمئزاز ، والرفض ؟!.

وذهب السفير الأمريكى بوعد أنه سيتصل بحكومته ، ثم يعود . ولكنه لم يعد لا بخير ولا بشر ..

أما السفير الروسى فقد كان أكثر صراحة .. إذ قال : « إن وقوفنا مع مصر معناه دخول الإتحاد السوفيتى فى حرب عالمية ثالثة . ولا أحسب أن الإتحاد السوفيتى مستعد ، الآن لدخول مثل هذه الحرب . والقرار فيما أفضيت به إلىّ .. الآن ، لا تصدره إلا الزعامة السوفيتية فى أعلى درجاتها والزعامة السوفيتية بطيئة فى مثل هذه الأمور ، غاية البطء ، لأنها عادة تدرس كل التفاصيل . والتفاصيل فى مثل هذه المواقف ، معقدة ، وكثيرة ، وتأتى من مصادر مختلفة ، وقد تتناقض هذه المصادر بعضها مع بعض !!. وترك « عبد الناصر » وحده ..!

● قبل أن تتأزم الأمور ..

ولكن حدث ، قبل أن تتأزم الأمور ، أن إفتتحت شركة مصر للطيران خطاً جوياً جديداً بين القاهرة وروما .. ووجهت الدعوة إلى الوزراء ليشتركوا فى إفتتاح هذا الخط فى اليوم المحدد . وقالت الدعوة « أنه إن لم يتيسر للوزير المشاركة فى يوم الإفتتاح ، فالدعوة مفتوحة وكانت « مصلحة السياحة » – آنذاك – تتبعنى بوصفى وزيراً للإرشاد

القومى فبدا لى أن سفرى إلى روما ، فى تلك الفترة ، هو عمل سياسى جيد .. فالمناسبة التى أسافر فيها هى مناسبة حقيقية وغير مفتعلة ، وهى مناسبة معلومة لجميع أطراف السياسة العالمية إذا إهتمت بها هذه الأطراف - وسيكون في وسعى أن أتصل بدوائر السياسة فى روما تحت ستار « أنى وزير فنون وسياحة » وبالفعل ذهبت إلى « عبد الناصر » ، بعد جلسة من جلسات مجلس الوزراء وقلت له : « إننى سأسافر إلى روما بقصد الوقوف على جلية الموقف الدولى وروما مكان جيد للإستطلاع .. فقد كانت ميالة إلينا - تسنبياً - فى مسألة القناة ، وهى غير مشاركة فى وقائع الحرب ضدنا ، وبهذا نفتح مكاناً هاماً للإتصالات » .

أنصت « عبد الناصر » إلى هذا الكلام ، ولاح على وجهه أنه قد سره أنى فكرت فى هذا ، وتناولنا بعض التفاصيل إلى أن ودعنى متحمساً . وتمنى لى التوفيق . والأمر الذى قد يحسن أن أذكره ، أننى لم ألاحظ عليه إنشغال بال ، ولا توقعاً لشر . ولذلك كانت حماسته مصدرها سروره بإهتمامى بالتطورات وموقف مصر عموماً . وليس إحساسه بضرورة مثل هذه الرحلة أو بالحاجة إلى القيام بأى إستطلاع كان .

وسافرت إلى روما ، وأعلنت - حسب الخطة الموضوعة - أننى أت لإجراء العديد من الإتصالات الثقافية ، والفنية ، ولتنشيط الحركة

السياحية بين مصر وإيطاليا والوقوف على وسائل الدعاية السياحية فى إيطاليا التى يبلغ الدخل السياحى فيها رقماً هائلاً .

وتلقفت وكالات الأنباء هذا التصريح ، وأذاعته فى أربعة أركان المعمورة وكأنها تقول : « مفهوم .. أنت آت لغرض . ولكنك تعلن عن غيره » !.

وفى اليوم التالي لوصولي - تلقيت نبأين . أحدهما « فكاهى » ، والثانى يرى مدى إتساع الفرص ، وتعددها أمام الساسة الذين يريدون أن يعملوا فى الساحة الدولية ، ويخرجوا من دورهم إلى العالم الفسيح .

أمن النبأ الفكاهى .. فخلاصته أن « الملك السابق فاروق » بلغه نبأ وصولى إلى روما .. كان « فاروق » قد عاش أيامه الأخيرة في مصر ، وليس لديه إلا هم واحد ، هو أنني « سأقتله » !!. وقد بلغ من شدة إيمانه بهذا الوهم أنه صرح به لرئيس وزرائه (نجيب الهلالى باشا) عند قيام (نجيب باشا) بأداء اليمين الدستورية بمناسبة تأليف آخر وزارة قبل قيام الثورة ، إذ كان من شروط (نجيب باشا الهلالى) أن يفرج عني - وكنت معتقلاً - تنفيذاً لحكم مجلس الدولة . فقال الملك وهو يستقبل رئيس وزرائه : « تفرج عن فتحى رضوان .. بس إياك مايموتكش » - والعهدة فى هذه الحكاية ، على (فريد زعلوك باشا) . أحد وزراء نجيب الهلالى - الذى رواها لى بنفسه .

المهم أن « فاروق » بلغه أننى وصلت روما – فخيل إليه أنه ليس لمجيئى إلى هذا البلد إلا هدف واحد فقط . هو أن أشرف على تنفيذ حكم الموت فيه . ففر من روما . ومعه حراسه الشراكسة .. فقلت يومها: « ما أكثر ما فى الحبس من مظلومين » !!

أما الأمر الثانى : فهو أن « جنرالاً » سابقاً فى جيش إيطاليا ، إسمه الجنرال « كوستا » طلب – عن طريق السفارة المصرية فى روما – أن يقابلنى ، فحددت له موعداً فى فندق « المتروبول » الذى كنت أقيم فيه . وقد أفضى إلىّ هذا « الجنرال » الذى تبينت أنه فاشستى عريق ، ومتحمس ، بأن لديه معلومات تؤكد أن بريطانيا وفرنسا تعدان العدة لحملة عسكرية ضخمة ضد مصر .. وأن بريطانيا ، بالذات ، إنتهزت فرصة تأميم مصر لقناة السويس ، وقررت أن تستيعد جميع الأراضى التى فقدتها فى الشرق العربى بسبب السياسة الأمريكية ، وعلى وجه التدقيق بسبب سياسة « دالاس » التى يقرها « أيزنهاور » ويباركها . ولما كان « الفاشيست الطليان » لا يعرفون لهم ، آنذاك ، أى سنة ١٩٥٦ – عدواً ، وأنهم لم يعرفوا لهم ، فى الماضى أيضاً ، عدواً إلا بريطانيا ، فإنهم يودون أن يبلغوا مصر فى شخصى ، أنهم مستعدون أن يحاربوا معها ، وأنهم قادورن على أن يضعوا فى خدمتها « كتيبة كاملة » مجهزة بالأسلحة الحديثة والجيدة ، ومدربة أحسن تدريب ولن يكون هذا إلا مجرد بداية .. وأن الحرب إذا طالت . فستجد مصر مثل هؤلاء المتطوعين من فرنسا وألمانيا وغيرهما .

وراح الجنرال الإيطالي يدلل على أن الحرب واقعة لا محالة ، وأنه مستعد لأن يوافيني بالكثير من الأدلة والتقارير .. وشكرته على حماسته .. ولم أرد أن أذهب معه في الحديث إلى أبعد من هذا المدى ، إذ كانت تعوزني الأجهزة التي تستطيع أن تطلعني على إتصالات هذا « الجنرال الفاشيستي » ودوافعه .

ولما تقابلت مع أعضاء السفارة المصرية ، ودار الحديث حول توقعاتهم - كانوا جميعاً متفائلين ، ماعدا المستشار العسكري « محمد شكري » الذي أصبح ، فيما بعد ، سفيراً لمصر في كندا ، فقد قال لي ، قاطعاً وجازماً : « إن بريطانيا تحضر للحرب لا محالة ، فإن ما تنفقه في تحريك قطع أسطولها ، ليس بالقليل ، والدول لا تنفق الملايين على مظاهرات بحرية .. فهذه - بالقطع - إستعدادات للحرب ، وليست مظاهرات للتهديد » .

وعدت من روما .. بعد ما سمعته من هذا وذاك ، ومما قرأته ، ومن الإتصالات الأخرى السريعة ، وقد تعجب أن منها ما كان مع مجرد أمين لمتحف في الفاتيكان ، الذي إنحنى حينما رأى أن رباط حذائي قد فك ، وأنني كدت أتعثر فيه ، وقال - وهو منحن وبصوت خافت جدا : « سيدي الوزير .. استعدوا ، الحرب قادمة لا محالة .. » ثم اعتدل .. وبسط قامته ، وقدم لي بطاقة ، وقال في أدب جم : « اكسلانس ..اذا كان لا يزال لديكم وقت في روما وترغبون في زيارة

أخرى للفاتيكان ، فهذا هو رقم تليفوني ويمكن لسكرتيركم أن يتصل بي ، فسأكون سعيدا اذا استطعت أن أقدم لكم خدمة »

وفهمت الأشارة جيدا .. ولكن عجبت أن يكون هذا كلام موظف في الفاتيكان .. أيكون « فاشستيا » هو أيضا ؟! .

وعدت إلى القاهرة ....

وسمعت وأنا لا أزال في المطار بشيئين : فقد أخبرني أمين الوزارة أن الوزير السابق « صلاح سالم » كتب في « جريدة الشعب » التي كان يرأسها ، مقالا قال فيه : « أين ذهب وزير الإرشاد القومي في هذه الأزمة المستحكمة .. لعله ذهب إلى روما ليصلح بين (جينا لولو برجيدا) وبين (صوفيا لورين) !.

ولم أغضب لهذه الإشارة الجارحة . بل لقد سرني حقيقة أن أرى شيئاً من الحيوية قد دب في الصحافة . ولكن الذي أغضبني ، حقاً ، أنني علمت ، في اليوم التالي ، من أحد زملائي وأصدقائي الوزراء ، أن « عبد الناصر » جاء إلى جلسة مجلس الوزراء التالية مباشرة لسفري وسأل : « أين وزير الإرشاد القومي ؟ » .

وما كدت أسمع هذا الكلام ، حتى فار الدم في رأسي . وذهبت إليه فوراً في مكتبه ، وقلت له :

– هل قرأت مقالة صلاح سالم عني ؟

فقال ، بعد أن سرح لحظة :

– عرفت بها قبل نشرها ..

وأضاف :

– بل قبل كتابتها ..

قلت له :

– ذلك يعنى أن سيادتك أوحيت له بها ..

– لا ..

ولم أنتظر أن يكمل تعليقه ، فقلت له :

– يا سيادة الرئيس .. لقد سافرت إلى روما بعد أن إستأذنتك ، وبعد أن إتفقنا على الغرض من هذا السفر . فقال :

– ولكن المدهش أنك أعلنت عندما وصلت إلى روما أنك قادم إليها لأمور فنية !..

فقلت له بصوت عال :

– وهذا ، بالضبط ، ما كنا إتفقنا عليه ..

وأعدت عليه ، وبالحرف الواحد ، ما كنت قد قلته له قبل سفرى .. فلاذ بالصمت . ثم إستعان بسيجارة ، وراح يشد الأنفاس منها بشدة كعادته .. ثم أخذ يهز ساقه – وكانت هذه علامة من علامات عصبيته ..

وبعد فترة صمت بيننا – قلت له :

– المهم .. فلننس ، الآن ، فتحى رضوان ، ونتحدث فيما هو أهم من هذا بكثير ..

فأدار رأسه نحوى ببطء شديد ، وقال :

– خير ..

فقلت له :

– إننى بت الآن ، أميل كثيراً إلى الإقتناع بأن الحرب قادمة حتماً ..

فنظر إلى نظرة طويلة صامتة ، ثم لوى شفتيه ، وقال :

– جائز ..

ثم سارت الأمور فى تعاقبها وتواليها مندفعة .. ومحمومة ..



فى حفل استقبال ناصر بالهند فى اكتوبر ١٩٦٦ ، وقد فوجىء بتأثر
بالغ للسيدة انديرا غاندى ، لم تستطع أن تكتمه فراحت تداريه بيدها

الفصل الخامس

غاندى يمنع عبد الناصر من السفر إلى لندن

● كانت أولى برقيات التأييد التى تلقتها قيادة الثورة في صباح يوم الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٥٢ ، هى البرقية التى أرسلها المرحوم الدكتور رشوان فهمى استاذ طب العيون بجامعة الاسكندرية فرأى « جمال عبد الناصر » أن من حق هذه الجامعة بسبب هذه البرقية ، أن يخصص لها يوم ٢٦ من يوليو من كل عام ، ليكون يوم الجامعيين ، ويوم الإسكندرية ، ويوم عزل الملك فاروق فى وقت واحد . وإستقر هذا التقليد ، فلم يأت ٢٦ يوليو فى أية سنة ، إلا وقصد قائد الثورة مدينة الإسكندرية ، وألقى فيها خطاباً سياسياً فى المساء ، بعد أن يكون قد زار جامعة الإسكندرية في الصباح .

ولم يحدث ، فى يوم ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ ، أى خروج على هذا التقليد . فقد توافد الوزراء على مدينة الإسكندرية فى إنتظار خطاب

المساء التقليدى .. وكانت الحكومة فى طريقها إلى الإشتراكية ، فقد أغلقت البورصة التى كانت تمارس أعمالها فى مبنى قديم وعريق بأكبر ميادين أكبر موانى مصر ، وأعنى به ، « ميدان المنشية » الذى يطل عليه تمثال « محمد على .. مؤسس الأسرة المالكة » التى إنتهى وجودها فى يونيه سنة ١٩٥٢ .. بعد عام من النزاع المملوء بالريب وبالشكوك .

ولكن الوزراء تلقوا ، على غير العادة ، دعوة لأن يذهبوا إلى منزل جمال عبد الناصر فى رمل الإسكندرية ليخرجوا معه إلى ميدان المنشية حيث يلقى خطابه من شرفة مبنى البورصة التى أغلقت أبوابها وفضت أعمالها . وتصور الوزراء أن الدعوة يتفق ظاهرها مع باطنها .. أو أنها لا باطن لها .. فالطبيعى أن يجتمع الوزراء مع رئيسهم ورئيس الجمهورية .. وأن يذهبوا جميعاً فى موكب واحد . فإذا كان ذلك لم يحدث فى الماضى ، فلا بأس من أن يدخل على أسلوب الإحتفال بيوم ٢٦ من يوليو شىء من التغيير . ولم يكن للرئيس عبد الناصر فى الإسكندرية بيت لقضاء فصل الصيف فيه ، لذلك إستأجر قصراً فى حى الرمل . وقد شاءت الصدفة أن يكون هذا القصر هو نفس القصر الذى كان يشغله الرئيس إبراهيم عبد الهادى ، أحد رؤساء الوزارات قبل الثورة ورئيس الهيئة السعدية فى الوقت نفسه ، وأحد كبار الساسة الذين حاكمتهم الثورة وقضت عليهم إحدى محاكمها بالموت ، ثم عادت فخففت الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم أطلق سراحه بعد أن إختفى الساسة القدامى من ميدان الحياة العامة إختفاءً كلياً مؤثرين

السلامة والعافية ، وكأنهم أدركوا أن الدنيا تغيرت فعلاً ، وأنه لم يعد لهم فى هذه الرواية السياسية الجديدة التى تختلف فى التشكيل والتفاصيل عن روايات العهد الملكى .. دور يلعبونه . ولم يدر بخلد أحد من الوزراء ، أنهم سيسمعون نبأ يعد من أخطر أنباء القرن العشرين كله ، لأنه يتصل بأخطر شريان مائى ، وأهم طريق للتجارة الدولية ، ألا وهو « قناة السويس » .

وتجمع الوزراء .. وكل منهم فى حالة عادية ، فلم يكن فى الجو الداخلى ، ولا الخارجى ما يدعو إلى الانقباض أو التوجس . وجاء « جمال عبد الناصر » ليأخذ مكانا فى البهو الطويل الضيق الذى إنعقد فيه إجتماع الوزراء غيرالرسمى . وبدأ يتكلم ، فإستمع أليه الوزراء وغيرهم من الضباط وكبار الموظفين الذين تقضى عليهم وظائفهم أن يشهدوا هذا الاجتماع . . ولكنه ما كاد يكمل جملتين من حديثه إلا وأدرك الوزراء أن هذا الأجتماع الذى بدا عاديا وبريئا . . إنما هو إجتماع له ما بعده . أما ماذا يكون بعده ؟ فأمر لا يعلمه إلا الله

فقد أعلن « عبد الناصر » للوزراء أنه أعد وثائق تأميم قناة السويس ، وأنه سيعلنها بعد خطبته وقال أن « دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية قد بالغ فى الاساءة إلى مصر ، حينما أعلن رفض تمويل مشروع السد العالى ، مقرونا بإعلان سوء حالة الاقتصاد المصرى وعجزه عن النهوض بهذا المشروع .

ولا يخـالجنى ادنى شـك فى أن الوزراء وجـمـيع الذين كـانوا فى البـهو ، قد شـملتهم سـعادة غـامرة عندمـا سـمـعوا هذا الإعلان الخطير . فقد كانت « قناة السويس »بماضيها الحافل بالمآسى وكانت شركتها القائمة على أرض مصر والمستغلة لمياهها « قرحة ملتهبة » فى جسم مصر يشعر كل مصرى لها بالألم والعار ولا أظن أن أحدهم إستطاع أن يتخيل أن هذا التـأميم سيجر ما جره على مصر وعلى الثـورة كلهـا من إعـلان حـرب دوليـة ضـد مـصـر وإنزال الأسـاطيل البريطـانية والفرنسـية العتيـدة جيوشـها على أرضنا فى بورسـعيد ثم زحـفـها فى طـريقـها إلى القـاهرة متـآمرة فى ذلك مع إسـرائيل ، وكـأنهـا ند لهم فى القـوة والمكانة ، ودون أن يشـعـر قـادة الدولتين الكبيرتين بالخجل !! .

● هل تشعرون بالذعر ؟ !

ولكن الغريب أن « جمال عبد الناصر » ترك جميع الحاضرين من وزراء ، وغيرهم ، وإتجه بوجهه نحوى وسأل : « هل شعر أحدكم بالذعر.. هل شعرت يا فتحى بالذعر ؟ » ..

وصعد الدم إلى رأسى . فقد شعرت بإهانة بالغة ولا مبرر لها من هذا التساؤل ، أو السؤال . فلعلى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى كتب عن تأميم قناة السويس قبل الثورة . ونشرت فى صحيفة « اللواء الجديد » عنواناً بعرض الصفحة : « تأليف لجنة وطنية لدراسة تأميم

قناة السويس » على أنى كنت قد فعلت شيئاً آخر بوصفى وزيراً للإرشاد القومى ، ومشرفاً على الإذاعة .. فقلت للرئيس جمال : « ولماذا أنا الذى أشعر بالذعر ؟.. لقد أذعنا طوال الشهر الحالى ، مسلسلة إذاعية بعنوان : (إسماعيل المفتش) ذكرنا فيها المصريين بمأساة بيع ١٧٦ ألف سهم من أسهم قناة السويس كانت تملكها مصر ، وقد باعها الخديوى إسماعيل بمبلغ أربعة ملايين جنيه لحكومة بريطانيا ، إستدانها اللورد « دزرائيلى » من يهودى مثله هو « اللورد روتشيلد » ، دون إستئذان مجلس الوزراء » .

فقال عبد الناصر : « سيقولون ، فيما بعد ، إنك كنت تمهد لقرار التأميم » فقلت : « وأنا لا أزال أشعر بحدة الغضب » لقد أصدرنا كتيباً بعنوان : - أضواء على قناة السويس - نقدنا فيه ، بشدة ، ما تروجه دوائر الغرب من أن مساهمة مصر فى حفر ، وإعداد ، وتنفيذ مشروع قناة السويس كان بالأيدى العاملة الرخيصة فقط ، وأثبتنا أنه كان فى أوراق وملفات حكومة مصر دراسة كاملة من الناحيتين الهندسية والطبوغرافية لمشروع حفر قناة السويس تمت فى عهد محمد على ، وساهم فيه المهندسون والمساحون المصريون مساهمة علمية ذات شأن » :

فسرح « عبد الناصر » بخاطره ، وقال : « وأين هذه الدراسة ؟ » فأجبته : « عندنا فى مصر ، وقد عرضناها للبيع وراجت كثيراً » .

فقــال : « حسـناً ، إرسل لى واحـدة منهـا فقـد نحتـاج إليهـــا فى المستقبل .. » ثم نظر إلى الآخـرين ، وقال : « هل لدى أحـدكم تعليق أو سؤال ..؟ » . فقلت : « عندى أنا » .. وقبل أن يرد « عبـد الناصـر » قلت له : « أنا فـاهم من كـلام سيـادتك الآن ، إنك تنوى أن تقـول إنك أممت قناة السويس رداً على كلام (دالاس) وإهانته لنا ، وإعتدائه على سمعة إقتصادنا » .. فتجهم « عبد الناصر » وقال مندهشاً : « إذن .. مـاذا تريدنـى أن أقـول ؟ » . فقلت مندفـعاً : « قل كل شىء دون أن تربط تأميم القناة بسحب الغرب تمويله لمشروع السد العالى » .

لكن عبد الناصر ضاق بهذا الكلام ، وقال : « غـريبة .. ومـاذا فى هذا ؟ » . فـقلت له : « إن ربط الأمـرين مـعـاً – وإن كـانا فى الواقع مـتـصلين – له مـعنيان ، وكـلاهـمـا سيىء .. فإعـلاننا بأننا أممنا قناة السويس لأن دول الغرب سحبت تمويلها للسـد العالى ، فيـه إضـعـاف لحقنا فى التأميم ، فقناة السويس مرفق مصرى ، وشركة قناة السويس هـى شركة مصرية ، وخاضـعة للقانون المصرى ، وعلى ذلك ، فحقنا فى تأميم الشركة ، وإخضـاع المرفق للإدارة المصرية المباشرة ، إنما هو من حقوقنا المطلقة . هذا من جهة . ومـن جهة أخرى ، فإن تصـريحنا بأننا نؤمم قناة السويس رداً على أمريكا وإنجلترا وفرنسا .. معناه أننا نتخذ من (قناة السسـويس) التى تخـدم الملاحة ، والتجارة الدولية ، وسيلة لعقاب وتـأديب الدول التى نختلف معـها . وهذا سيتيح لدول الأعداء أن يتـخذوا مـن هذا (الإعلان) مـادة للتشـهـير بنا ، وتخـويف العـالم من

إدارتنا لقناة السويس التي تتأثر بنوازعنا ، وربما بنزواتنا القومية » .

وإلى هنا كان صبر « عبد الناصر » قد نفد . وخيل إليه أنني أريد أن أملي عليه إتجاهاً معيناً .. فقام وهو يلوح بذراعيه مسرعاً تجاه دورة المياه وهو يقول : « أنا عارف ماذا سأقول .. سأغسل وجهي أولاً » .

وخرج « عبد الناصر » مبتهجاً ، واثقاً من نفسه ، سعيداً بأنه سيطلع على العالم بما سيهزه ، وبما سيجعل إسمه على كل لسان .. في الشرق .. وفي الغرب .. على السواء .

***

والغريب في الأمر ، أنه قبل هذا اليوم بأيام قليلة ، كنت قد أعددت مذكرة لعرضها على مجلس الوزراء ، ولم يكن لي أي فضل في التفكير في إعداد هذه المذكرة . فقد حدث أن المرحوم المهندس طراف علي ، وزير المواصلات السابق ، ومندوب مصر لدى شركة قناة السويس أو ممثلها في اللجنة الهندسية التابعة لمجلس إدارة الشركة ، مر علي في مكتبي في وزارة المواصلات ومعه إحدى الصحف البريطانية ، وفيها نبأ منقول عن جريدة « هندوستان تايمز » الهندية - وهي صحيفة ذات نفوذ كبير في الهند لإتصالها بأكبر دوائر المال في بريطانيا والولايات المتحدة - وقد تضمن هذا النبأ أن شركة قناة السويس ، قد فرغت من إعداد

عدد من المشروعات التى تهدف إلى توسيع القناة وتعميقها ، وتزويدها بجهاز جديد للإشارات الكهربائية ، إلى جانب مشروعات لمساكن للعمال فى الشركة والموظفين . وقال لى المرحوم المهندس « طراف على » : « إن إقدام شركة القناة على هذه المشروعات الضخمة والمكلفة ، قاطع الدلالة على أن الشركة تطمئن إلى أن أمتيازها لن ينتهى فى سنة ١٩٦٨ .. أى بعد ١٢ سنة فقط » ..

وبالفعل ، أعددت مذكرة بهذا المعنى ، وأوشكت أن أطلب من سكرتارية مجلس الوزراء توزيعها على الوزراء للتداول فيها ، ثم عدلت المذكرة ، ثم عدلت ، نهائياً ، عن تقديمها .. ذلك لأنى إستصوبت ألا يكون لتفكيرنا - نحن - فى مستقبل القناة أى أثر فى أوراقنا . حتى لا تنتبه الشركة ، ودوائر الإستعمار المؤيدة لها ، لما نعده من مشروعات مضادة ، وآثرت أن أحدث « عبد الناصر » وحده فى هذا الشأن ، فحدثته وسلمت له الصحيفة التى سلمنى إياها المرحوم المهندس « طراف على » . ولكن « عبد الناصر » إستمع إلى الأمر بغير إكتراث ، وتسلم الصحيفة بقدر كبير من اللامبالاة ، ولولا الحياء الذى كان صفة من أبرز صفاته . لما مد لى يده ليأخذها . أكان هذا تمثيلاً ، إمعاناً فى التكتم وإخفاء نواياه ؟ أم أن الأمور لم تكن قد إتضحت فى ذهنه ، بعد ، فكان الكلام فى « قناة السويس » لا يبعث على النشاط ، ولا الإهتمام ؟ ! .

● قنبلة .. شديدة الإنفجار !

وصلنا إلى شرفة مبنى البورصة السابق ، ووقف جمال عبد الناصر يتكلم بأسلوبه الذى تميز به خلال ثماني عشرة سنة ، والذى كان مزيجاًمن « العربية الفصحى » ، فى مطلع الخطبة . وفى الفقرات الإفتتاحية لأجزاء الخطاب ، وفصوله الرئيسية ، ثم بعد ذلك « العامية المطلقة » ، مع ميل إلى التكرار والإطالة . ولكن الجماهير ، لا فى مصر وحدها ، بل فى بلاد العرب كلها شرقاً وغرباً ، أحبت هذا الأسلوب . لم يكن فى وسع أى عربى ، حتى رعاة الإبل فى قلب الصحراء ، أن يعرف أن « عبد الناصر » يخطب ، ثم يمنع نفسه من أن يدير مؤشر « الترانزستور » .. إلى إذاعة مصر .. ليسمع وينتشى ، وإن لم يفهم أحياناً بعض الذى يسمع .

وجلست فى الصف الذى يلى « عبد الناصر » ، أجيل النظر فى الميدان الفسيح – ميدان المنشية – وقد إمتلأ حتى حوافيه بالناس ، صفوفاً صفوفاً ، وهبت نسمات من البحر العريق ، بحر الحضارات ، والثقافات ، والرسالات .. بحر العرب ، والروم ، والرومان ، والعثمانيين ، والأتراك .. وأخيراً « الأنجلو سكسون » ، و « الفرنجة » .. ولم يكن هذا البحر يبعد عن الميدان إلا أمتاراً . وأخذت أتأمل هذه الجموع الحاشدة ، التى لا تدرى شيئاً عن المفاجأة المذهلة التى يخبئها لهم « عبد الناصر » ، والتى سيلقى بها بين صفوفهم وكأنها قنبلة شديدة الإنفجار .

وراح عبد الناصر يروى مواقف دول الغرب من مشروع السد العالى ، وما قاله له (أوجين بلاك) مدير البنك الدولى . وقال إنه كان يرى فى (أوجين بلاك) صورة (فردناند دليسبس) . الذى إحتال على (سعيد باشا) - والى مصر - حتى إستصدر منه « فرمان » أو مرسوم إمتياز فتح قناة السويس سنة ١٨٥٤ ، مع ما فيه من شروط مجحفة بمصر . وأوجه الشبه بين (أوجين بلاك) و (دليسبس) ليست قوية إلا من حيث أن كلاً منهما يمثل الغرب الطامع فى أموالنا ، وثرواتنا ، ومركزنا الدولى ، فى حرصه على إخضاعنا لنفوذه ، وإذعاننا لأوامره ، وكراهيته لاستقلالنا وإزدهارنا ونمونا .

وكرر « عبد الناصر » إسم (بلاك) فى تلك الخطبة التاريخية حقاً ، ولما كان (بلاك) بالإنجليزية ، معناه (أسود) بالعربية ، فإن بديهة « أم كلثوم » - فيما يسميه المصريون (القفش) - أى إصطياد اللمحات الطائرة ، هدتها إلى القول إن « عبد الناصر خللى ليلة أمريكا بلاك فى بلاك » أى أنه خللى ليلتهم سوداء !!.

وأخيراً .. وصل عبد الناصر إلى النقطة التى أعلن عندها القرار الجمهورى بتأميم قناة السويس ، وما كاد يقرأ اللفظ الأول من عنوان القرار الجمهورى ، حتى أصابت الناس هزة عنيفة .. لا فى الميدان وحده ، بل فى كل بيت من بيوت مصر ، بل فى كل بيت من بيوت العالم العربى .. بل فى الشوارع ، والأزقة ، وفى السيارات المنطلقة بأقصى سرعة ، فى كل حدب وصوب ، وطريق ودرب ، ومعهم أجهزة

الإستماع .. لقد رأيت الناس دفعة واحدة ، وبلا سابق إتفاق ، يقفزون في الهواء ، ويرتفعون عن الأرض صدقاً .

ومضى زميل الصبا .. المرحوم المهندس محمود يونس .. مضى ومعه عدد من أعوانه المهندسين والضباط إلى مباني ومكاتب وورش ومخازن شركة قناة السويس العالمية ، ليضع عليها الأختام ، وليجعلها أمانة ووديعة لدى عدد من الحراس المصريين من رجال الجيش والشرطة ، وكانت الصدمة التى عانى منها مديرو الشركة الفرنسيون الذين عاشوا حياتهم في مصر - دولة في قلب الدولة - يأمرون وينهون ، ولا راد لأمرهم ، ولا معقب على نهيهم - كانت الصدمة التى عانوا منها يومذاك ، صدمة للنظام الإستعماري كله ، وللغرب المتأله ، والمتغطرس ، والمتعالى ..

ودارت حرب الإذاعات ، والمقالات ، والتصريحات ، إلى جانب حرب المقاطعة والحصار الإقتصادي ، وحرب الأعصاب التى كانت الأساطيل والجيوش ، أداتها .. ولم يجد خصوم مصر شيئاً يروجونه ضدها ، وضد نظام الحكم فيها .. إلا أن « عبد الناصر » لم يؤمم القناة إلا لأنه أحس « بطعنة موجهة » إلى كبريائه ، حينما سحب « دالاس » تمويل مشروع السد العالى .. مبرراً ذلك بأن المشروع أكبر من طاقة وقدرة مصر المالية ، لأنها مفلسة تقريباً .ومعنى ذلك أن إدارة مرفق قناة السويس ، عملية خاضعة ، لمزاج « عبد الناصر » ، أو أى رئيس يخلفه في مصر . ومعنى هذا أيضاً ، أن بقاء قناة السويس في يد المصريين

خطر على مصالح العالم المشروعة التى لا خلاف عليها .. وإتخذوا من تصريحات « عبد الناصر » يوم ٢٦ يوليو دليلاً وسنداً .

ولعل « عبد الناصر » تذكر ، في ضوء حرب الإذاعات هذه ، ما كنت قد قلته له ..

● قصة الذئب .. والحمل :

ولكنى لا أتصور أن الموقف كان سيتغير كثيراً ، لو أن « عبد الناصر » لم يجعل التأميم عقاباً لدالاس والغرب على موقفه من مشروع السد العالى .. « فقصة الذئب والحمل » ، كانت ، وستبقى ، الوصف النموذجي لعلاقة الأقوياء والضعفاء .. إذ ليس المهم مبرر الإتهام ، فالإتهام يقع أولاً .. ثم يبحث له عن مبرر !!.

ولكن .. إحتاج « عبد الناصر » ، عندما إحتدمت المعركة السياسية، إلى أن يستشير مجلس وزرائه في واقعة محددة ، هى : هل يسافر إلى لندن ليعرض على الرأى العام العالمي موقف مصر من قناة السويس وحرصها على سلامة ، وإستقرار ، وإستمرار الملاحة العالمية وإزدهارها .. وكان ذلك في إبان الدعوة التى أعلنتها بريطانيا ، والتى كانت الغاية منها طرح تصرف مصر على الدول التى وقعت على معاهدة حياد قناة السويس ١٨٨٨ – وكان عبد الناصر تواقاً إلى أن يسافر إلى لندن ، حيث « بؤرة التآمر السياسى » ضد مصر ، وحيث عاصمة الدعاية السياسية لقضية إنتزاع قناة السويس من مصر ، وكان عبد الناصر شاعراً بثقة بالنفس عظيمة ، أوحت إليه بأنه

سيكون قادراً، إذا ما وصل إلى لندن ، وحوله هالة الشهرة العالمية والضجيج الذى صاحبه منذ خمس سنوات ، أن ينتزع شخصه صورة (هتلر) الحديث، التى ألصقت به ، من أذهان البريطانى العادى ، الذى سوف يراه إنساناً بسيطاً ، تهمه مصلحة بلده ، ولكن دون أن يدمر مصالح الآخرين ، ويعمل على رخاء مواطنيه ، دون أن يلقى بالعالم فى أتون الحرب ، وبذلك يكسب تأييد الرأى العام البريطانى أولاً .. فتأييد الرأى العام العالمى ثانياً ، وينزع الفتيل من القنبلة التى أعدها بإحكام « أنطوانى إيدن » رئيس وزراء بريطانيا ، ودهاة السياسة العالمية الذين هم ، فى الأغلب الأعم ، يهود ذوو أنياب زرقاء ، يحسنون الدس ، والوقيعة ، والتآمر الدولى .. ومن هنا ، كان السؤال المطروح على مجلس الوزراء هو : « هل يسافر عبد الناصر إلى لندن أم لا يسافر ؟ » .

وتكلم كثيرون ولكن بدون أن يكون كلامهم حاسماً ، فقد أحس الوزراء أن « عبد الناصر » تواق لأن يسافر ، واثق من نتائج سفره ، وفرح بهذه الجولة التى أتاحها له تطور الأحداث ليجرب سحره على مستوى عالمى ، وكان هذا الإحساس وحده كافياً لأن يتحفظ المتكلمون .

● .. وتكلم الدكتور فوزى !!

وتكلم الدكتور محمود فوزى ، وعلى النقيض مما يقوله عنه خصومه ، ويروجونه بكل وسيلة ، بأنه رجل يؤثر السلامة ، ويفر من مواقف المسئولية ، ويخفى رأيه إرضاء لصاحب السلطة ، مستعملاً

أسلوباً (لولبياً) في التعبير عن الرأى - على النقيض من هذه الصورة الثابتة .. كان محمود فوزى يومذاك ، حاسماً .. فقد أعلن ، وبلا تحفظ ، أنه ضد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن . وحمدت الله على هذا القول القاطع ، ثم إتجه « عبد الناصر » إلىّ - وكانت العلاقات بيننا يشوبها فتور لسبب نسيته تماماً - وقال بأسلوب خال من الود . « ورأى الأستاذ فتحى ؟ » .

ولم أكن فى حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة المتحفظة لاندفع قائلاً :
« يأبى الله ورسوله .. » .

وعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه وقال : « ماذا تعنى ؟ » فأجبته : « المسلمون يقولون هذا القول عن كل ما هو حرام » .. فقال ، وقد تحسن مزاجه قليلاً : « يعنى السفر إلى لندن حرام ؟ » .. قلت : « بالتأكيد » .. وأضفت : « لقد عشنا ندير أمورنا فى لندن ، وتفرض علينا المعاهدات و (الفرمانات) منها ، أو من باريس ، أو من إستانبول .. إن المعاهدة التى حددت مركز مصر الدولى ، والتى أبرمت بعد حروب محمد على مع تركيا ، إسمها معاهدة (ترابيا) لأنها عقدت فى ضاحية فى إستانبول بهذا الإسم .. فإذا كان موضوع قناة السويس لابد أن يناقش هذه الأيام ، فليناقش فى مؤتمر تدعو إليه مصر ، ويعقد فى القاهرة ، وتحدد له حكومة مصر جدول الأعمال .. إن مجرد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن ، هو نصف الطريق إلى

الإعتراف بشرعية موقف بريطانيا وفرنسا غير الشرعي ، ولن ينقذنا هذا السفر من شيء .. فهو إن إعتبر ملاينة منا وملاطفة ، أغراهم بالعدوان ، وإن إعتبر تحرشاً ومخاشنة ، أعلنوا أن مصر تتحدى العالم .. » .

● ولم يسافر عبد الناصر :

وزام « عبد الناصر » ورفع الجلسة .

ولكنه لم يسافر .. وليس ذلك لأنه إقتنع بما قلته أنا ، أو بما قاله غيري . فقد أخبرني « صلاح سالم » بأن الذي ثنى عزم « عبد الناصر » عن السفر هو ما قاله له السفير الهندي ، من أن « غاندي » حينما سافر إلى لندن سنة ١٩٣٧ - وكانت الكتب التي كتبها الإنجليز ، والأمريكان ، والألمان ، والفرنسيون ، عنه وترجمت إلى الإنجليزية ، قد بلغت المئات.. وكانت الصورة التي رسمتها له تلك الكتب قد أظهرته بأنه التجسيد الحديث للسيد المسيح .. ومع ذلك فإن جرائد ومجلات الدوائر الإستعمارية نجحت في أن تجعل منه « بهلواناً » .. وبدلاً من أن يبدو للجمهور البريطاني سياسياً ، متقشفاً ، زاهداً .. سلاحه المحبة ، والدعوة إلى الإخاء الإنساني ، إتخذت هذه الصحف من عريه مادة للسخرية به ، وترويج الدعايات عنه ، وسرد الوقائع غير الحقيقية والملفقة . وضاع سحر « غاندي » غير المنكور ، وإنطفأت أضواء شهرته الساطعة .. وعاد مهزوماً ، مغلوباً على أمره !!.

***

ولقد أشفق « عبد الناصر » من أن يصل إلى هذه النتيجة ، وقد نبه إلى الفارق العظيم بين قدرة « غاندى » في إستعمال الإنجليزية . . . حديثا ، وكتابة ، وخطابة وبين قدرته هو فى هذا المجال .

ولكن . . الحمد لله ، فإن « عبد الناصر » لم يسافر .

● عاصفة .. من ناحية السودان !

وللمرة الثالثة .. عرض مجلس الوزراء موضوعاً سياسياً . ولكن .. على غير إرادة « عبد الناصر » ، فقد كان المجلس مجتمعاً في قصر القبة ، وكان من بين الوزراء نائب وزير لشئون السودان هو المرحوم عبد الفتاح حسن (أحد الضباط الذين تعاونوا في موضوع السودان مع مجلس القيادة) .. وفى خلال إنعقاد المجلس ، تبادل « عبد الناصر » مع المرحوم عبد الفتاح حسن بعض العبارات بصوت منخفض ، إذ لم تكن الغاية إشراك المجلس في الموضوع . ولكن هذا « الهمس الجانبى » طال بعض الشيء ، مما أحوج طرفيه إلى رفع الصوت قليلاً ، حتى أصبح من الممكن أن يسمعه سائر الأعضاء ولا سيما الذين كانوا قريبين من موضع الرئيس في الجلسة ، وكنت من هؤلاء ، ففهمت أن الأمر يتناول موقعاً صغيراً على البحر الأحمر على الحدود المصرية – السودانية .. لا أدرى إذا كان إسمه (رأس علم) أو (علبة) – ولكنه ، على أى حال ، في هذا الموضع . وفهمت أن السودانيين يعتقدون أن هذا الموقع سودانى ، وأن الجانب المصرى يعارضهم في هذا الإعتقاد ، وأن الأمور تأزمت بين الطرفين حتى كاد

الموقف يشتد ، فقد أرسلت حكومة السـودان قوة عسكرية . وكان رأى « عبد الناصر » أن يتشدد المصريون مع السودانيين ، وأن يقابلوا القوة العسكرية السودانية بقوة تفوقها . فقلت - متـداخلاً فى الحديث بغيـر دعـوة من أحـد : « المفـهـوم أن فى السـودان إنتـخـابات ، والإنتـخـابات بطبيـعـتـها مـوسم للمـزايدات ، وإلهـاب الموقف على الحـدود المصرية السـودانيـة الجنوبية فى هـذه الفترة ، سيدعو جميع الأحـزاب إلى التسـابق فى إظهـار التمسك بهـذا الموقع ، وستكون حماسـة الأحزاب الموالية لمصر ، أشد من حماسة الأحزاب المعادية ، لأن نقطة ضـعف الأحزاب الموالية أنهم يجاملون مصـر على حسـاب السـودان ، ولهـذا ، فـأنا أقتـرح أن نهـدىء الأمـور على الحـدود مـا إسـتطعنا ، مـادامت القـوة السـودانيـة لم تصل إلى الموقع المتنـازع عليـه ، فيبقى الأمر على حـاله حتى تنتهى الإنتخابات ، ونحل المشكلة بالتـفـاهم » . فـرد على « عـبـد الناصـر » قـائلاً : « بل العكـس هو الصحيح ، فإن الأحزاب الآن تخشى جميعاً أن تغضبنا حتى لا نتدخل فى الإنتخابات ضدها .. وهذه الخشـية ستجعلنا أقدر على الظفر بما نطلب . » وعدت أشرح وجهة نظرى بتفصيل أكبر .. وإستمر الأخذ والرد فترة ، ثم إنتهت المناقشة إلى أن صدرت أوامر « عبد النـاصر » للمرحـوم عبـد الفتـاح حسن ، بأن يتنـاول الموضـوع بحزم .

وفى اليوم التـالى ، علمت أن القـوة المصـرية التى أمـرت بالتـقـدم ، وجـدت نفسـها أمـام قـوة سودانيـة ضـخمة ، وأن الإصرار من جـانب

مصر ، لم يكن له إلا نتيجة واحدة هو أن يقوم بين مصر والسودان نزاع مسلح ، أى حرب - مهما تكن صغيرة - إلا أن أحداً لم يكن يدرى عاقبتها ، لو أن نارها إندلعت .

وتراجعت مصر .. وسط صراخ ، وتهديد من جميع الأحزاب السودانية وفى مقدمتها الأحزاب الإتحادية الموالية لمصر والمحبة لها .

ولما أعلنت هذه النتيجة لعبد الناصر ، إكتفى بقوله : (هارد لك) ولكن النتيجة ، فى جملتها ، كانت سارة ، فقد ضبطُ عبد الناصر نفسه ، وكبح جماح غضبه .. ومرت العاصفة بسلام .

الفصل السادس

غاب أخطر قرار فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو

● مضت الأيام .. و « جمال عبد الناصر » شديد الإطمئنان إلى أنه من المستحيل أن تدخل بريطانيا فى حرب ضدنا ، فقد كان يرى أن (مقامها) !! يمنعها من أن تخوض فى قتال مع مصر ، كما أن حنكة رجالها ، وتمرسهم بشئون السياسة ، سيحول بينهم وأن يتورطوا فى حماقة كحماقة غزو مصر ، في وقت تغير فيه الرأى العام العالمى ، ونشأت فيه الأمم المتحدة ، وأشتد عود الإتحاد السوفيتى ، خصم الغرب العنيد ، والمتربص لأخطاء هذا الغرب . . للتنديد والتشهير بها ، للإفادة والكسب منها .

ولكن الحرب ، مع ذلك ، وقعت .. وكانت بريطانيا - التى تآمرت ، بليل ، وبلا أدنى حياء ، مع فرنسا وإسرائيل - هى « قائدة حرب السويس » !.

وادلهمت الأمور ، وساد الظلام ، وإطبقت جحافله على « جمال عبد الناصر » حتى أحس بالحاجة إلى عون الأطباء وقد سمعت – نقلاً عن المرحوم الدكتور أنور المفتى – أنه قال : « لقد إنهار إيدن ، فإعملوا ما فى وسعكم لكيلا أنهار مثله » كما سمعت – نقلاً عن الدكتور أنور المفتى أيضاً أن من بين المواضع التى كان يشكو « عبد الناصر » ، رحمه الله ، منها أثناء هذه الأزمة : ألماً فى عنقه من الخلف ، وألماً على جانبى الفم ، فعلل له الطبيب سر الألمين بأن العنق فيه « عصب الإنتباه والتحفز » ، وأنه – لفرط إنتباهه ، وتيقظه ، وترقبه فى تلك الأيام العصيبة – أحس بهذا الألم الذى ظهر عندما ضعف الجسم وقلت مقاومته . أما الألم الذى كان يحس به فى الموضعين الواقعين على جانبى الفم ، فقد نشأ من دوام الإبتسام ، أو التظاهر به . فلما إعتكف « جمال » خلال الأزمة ، وإسترخت عضلات الفم – كان لابد لهذا الألم من أن يظهر .

ساد اليأس كل ما حول « عبد الناصر » . فقد إضطر أن ينقل أسرته وأولاده إلى إحدى « الفيلات » التى كانت مملوكة لأحد أمراء البيت المالك ، بعيداً عن مصر الجديدة . وقد سمعته يقول لزكريا محيى الدين : «الناس تود أن تخرج من القاهرة ، فسهلوا لهم سبل الخروج ».

فى هذه الأثناء كانت مصر ، بصفة عامة ، هادئة .. غير منزعجة ، وغير متطيرة .. ولم يفكر أحد فى الإنقضاض على الحكومة . بل لم

أسمع ألفـاظ شماتة فيهـا ، كتلك الشـماتة التى أعلنت عن نفسـها ، وبشدة .. وصراحة .. بل وبضراوة ، فى أعقاب حرب ٦٧ .. وقد أمطرت هـذه الشماتة سيلاً عارماً من النكـات المصرية الذائعـة الصيت التى لا تدع محـرماً ، ولا مـحـترماً .. ولا صـاحب مكانة ، أو قـداسـة ، إلا وتعبث به ، وتصوره كما يحلو لها فى خيالها . نزولاً على مبدأ « القافية تعذر » .. وهو مبدأ شعبى معروف .

وعلى الرغم من أن عـبـد الناصـر كـان مـتـمـاسكاً . . إلا أن هذا التماسك كان يكلفه الكثير مما يصعب على أحد غيره إحتماله ، ومما أحوجه ، فى النهاية إلى دواء الطبيب ونصائحه . وقد ذهب ، عليه رحمة الله ، إلى الجامع الأزهر ليـخطب هناك ، فكان - كعـادته - هادئا ، لا يبدر منه قـول ، ولا إشارة ، تنبئ عما فى داخله من إحتراق وتوتر . . وارتجل - على طريقته الخـاصة - خطبة تجـمع بين العامـية والعـربيـة الفـصحى ،كانت نبرته أعلى ، وحمـاسـه أشد ، وكـانت نظرات عـينيـه يتطاير منها لمن يدقق - شرر الغضب ، والضيق والقلق .

وقد إستطاع « عبد الناصر » فى تلك الخطبة ، أن يقول لجمهور المصلين ، ولجـمـاهـير مـصـر ، والعـالم العـربى . والعـالم كله ، إن مـا ضربته طائرات بريطانيا وفرنسا على أرض المطارات المصرية ، إنما هو طائرات هيكليـة .. قـال ذلك ، وهـو يعلم أنه لـم يبق ، فى مطارات مـصـر كلها ، عشر طائرات تستطيع أن تحلق فى سمـاء القاهرة - د ع

عنك سماء سيناء - ولا شك أن تصريحاً كهذا ، لابد وأن يكلف قائله جهداً عصبياً خارقاً للطبيعة .

.. كان طبيعياً أن نفكر فى المصير الذى توشك مصر أن تؤول إليه ، فهناك جماعات من المصريين ، تختلف نزعاتهم وميولهم وأهواؤهم .. منهم من كان يؤمل فى أن يعود إليه ما فقده من مال ومكانة ، ودور بارز فى توجيه الأمور .. ولكنه يؤثر الحذر ، والإتئاد ، لأن مصر - مهما كانت الأمور - تواجه أعداء خارجين . وكلهم أعداء تقليديون لها . وقد عاشت مصر عصرها تكرههم ، وتندد بهم ، وتهتف بسقوطهم وتجهر بعداوتهم .. ومن هنا ، لم يبد على هذه الجماعة ، قط ، أنهم ينتوون الحركة ، أو أنهم يفكرون فى إنتهاز الفرصة .

ولكن .. كان هناك فريق آخر ، رأى أن مصر مهددة بالخراب ، وبالرجوع إلى الوراء خطوات وخطوات . فقد تدخل جيوش بريطانيا وفرنسا ، وربما جيوش إسرائيل ، القاهرة وربما فكر هؤلاء المعتدون أن يعيدوا النظام القديم . وربما تركوا للفتنة المجال لكى تنطلق فتعيث فى مصر فساداً ، ليكون تأديب مصر على أيدى المصريين أنفسهم ، فإن وقع خراب ، ونهب ، وسلب .. كانت أيدى الإنجليز والفرنسيين ، وحتى اليهود .. بريئة منه !!.

هذه الجماعة - تداولت ، فى هدوء وخلوص نية ، وإنتهت إلى أن أفضل الحلول لهذه الأزمة أن ينزل عبد الناصر عن الحكم ، ومعه زملاؤه

أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأعوانهم وأتباعهم ، وأن ينادى بالرئيس السابق محمد نجيب رئيساً مؤقتاً للجمهورية ، ليدخل مع الغزاة فى مفاوضة الغاية منها . ألا يدخل الغزاة القاهرة ، وألا يتقدموا فى زحفهم . وأن يضمن لجمال عبد الناصر وإخوانه معاملة محترمة ، وخروجاً آمناً من مصر ، هم وزوجاتهم وعائلاتهم ، ومن يرغب فى اللحاق بهم ، ثم إحترام ما تم من إجراءات الثورة وإصلاحاتها .. وفى مقدمتها النظام الجمهورى .. والإصلاح الزراعى .

ولم تجد هذه الجماعة التى لم أعلم ، حتى اليوم ، ممن كانت تتكون - لمجرد كسل فى السؤال - رجلاً منحته السماء شجاعة قلب الأسود ، سوى سليمان حافظ - نائب رئيس الوزراء فى حكومة الرئيس محمد نجيب . ووزير الداخلية ووكيل مجلس الدولة من قبل - ولست أستبعد ، الآن أنه من بين أعضاء هذه الجماعة الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، القانونى العربى الأشهر ، ورئيس مجلس الدولة فى أوائل عهد الثورة ، والدكتور بهى الدين بركات الذى كان رئيساً لمجلس النواب ولديوان المحاسبة فى العهد الملكى .

توكل سليمان حافظ - كعادته - على الله ، وطلب موعداً من مكتب عبد الناصر ، ليأخذ رأيه فى هذه المحاولة ، ولكن عبد الناصر رفض أن يحدد له موعداً ، لأنه - أى عبد الناصر - لم يكن يملك - فى تلك الظروف - من الوقت ، ولا من الأعصاب ، ما يسمح له بأن يلقى رجلاً كسليمان حافظ .. هادىء الأعصاب إلى حد البرود ، بطىء

الكـلام نوعاً ، عـميق التـحليل للأمـور والألفـاظ . ولم يكن عبد النـاصر ليتصور أن وراء سليمـان حافظ شيئاً ذا بال يخرجه هو من الأزمة .. فأحاله إلى زميله عبد اللطيف البغدادى .

وذهب سليمان حـافظ إلى البغدادى بنفس الهدوء الذى ذهب به إلى الملك فاروق ظهـر يوم ٢٦ من يوليو ١٩٥٢ ، حـاملاً له وثيـقة النزول عن العرش .. ولا شك أن ذهاب سليمان حافظ إلى قصر رأس التين فى ذلك اليـوم ، وهو ينتـعل حذاء أبيض ، وبنطلوناً رمـادياً ، وجاكـتة من التـيل الأبيض ، ويتـأبط وثيقة نزول الملك عن العرش ، كان أشبـه شىء بطفل وديع يدخـــل برجليـه إلى عرين الأســد ، ليعبث بشـواربه ، أو يشـــده من ذيله .

فقد كان قصر رأس التين هو قصر الملك .. كان فى كل ثنية ، وحنية من ثناياه ، وحناياه ، جندى مسلح من الحرس الملكى ، أو مـوظف من الخاصة الملكية ، يمكن أن يدفعه حقده على الثورة ، وولاؤه للملك ، إلى القضاء على سليمان حـافظ بضربة واحـدة ، وبأى وسيلة كانت .. وما من راء .. ولا سميع ، ولا شاهد .

بنفس الهـدوء .. ذهب سليمـان حـافظ إلى عبد اللطيـف البغدادى ، ورشف فنجان القـهوة الذى قـدم له ، وأخذ يدخن سيـجـارته المصـرية الرفيعة والمتواضعة ووضع سـاقه النحيفة ، فوق سـاق ، وقال بطريقته : « أيوه .. يا أخ عبد اللطيف .. عاوزك تسمع كلامى لآخره ، وتفـهم أنى

جئت من أجل المصلحة العامة . . مصلحة البلد كلها ومصلحتكم »
واستمع البغدادى لقرارسليمان حافظ حتى نهايته . ثم قال له فى حدة : « لولا أنك فى بيتى لطردتك » .

ولم يرد سليمان حافظ أن يشعر بالاهانة ، ولم يفقد حلمه ، وإنما عاد الكلام بنفس الهدوء ، وكرر العرض ، ثم خرج ، لا تطرف له عين ولا يهتز فيه عصب .

إن الحكم الوطنى الخالص على هذا التصرف - من رجل عاش حياته وعقيدة الحزب الوطنى تملأ قلبه ، وتملك عليه زمام نفسه - لابد وأن يكون حكماً قاسياً - وإن كانت بواعث سليمان هى أنقى ، وأطهر البواعث - فقد كان ، ولا شك ، مشفقاً على بلاده من عواقب هذه الغزوة التتارية الصليبية . ولكن الحزب الوطنى يؤمن بأن حظ الوطن ، دائماً ، أن يكون مستعداً لملاقاة الشدائد ، وأهوال الصراع مع العدو .. فإن فى ذلك - آخر الأمر - النجاة ، وإن بدت خطة محفوفة بالمخاطر ، وبعيدة عن الحكمة .. وأيضاً عن المرونة السياسية .

وخطأ إقتراح سليمان حافظ كائن فى أنه - أولا - يعزل قائد المعركة ، وأركان حربه .. بينما المعركة لاتزال دائرة ، ثم إنه - ثانيا - يحقق للأعداء - على قذارة مؤامراتهم ، ونذالة عدوانهم - غرضاً من أهم أغراض الغزوة ، وهو إسقاط عبد الناصر .. تأديباً له ، ولجميع الوطنيين على طول العالم العربى وعرضه .. ثم هو - ثالثا - يظهر



الرئيس عبد الناصر مع إيزنهاور .

مصر وكأنها قد أخذت المبادرة لإسقاط قادة الثورة ، وذلك إضعاف شديد لمركز المفاوض المصرى ، إذا جرت مفاو ضات فيما بعد .

ولقد كان من حق عبد الناصر ، بلا شك ، أن يقبض على سليمان حافظ وعلى من أوفده . وكان من حقه ، بلا شك ، أن يحاكمهم محاكمة سريعة بتهمة الدعوة إلى الهزيمة . ولكن عبد الناصر ، فى تلك الفترة ، كان أضعف من أن يقدم على شىء من هذا .. ولعل أعظم ما أضعفه ، أنه كان يرى الخطر محدقاً به من كل جانب وربما جال فى خاطره أنه قد يحتاج ، غداً إلى مثل هذه الوساطة المرفوضة الآن .

زال الخطر .. وتدخلت الولايات المتحدة ، فى الأمم المتحدة ، لتضع حداً للغزو الإنجليزى - الفرنسى - الإسرائيلى .. وذهب أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة ، بنفسه ، إلى مقر الجمعية العمومية ليدمغ الحملة البريطانية - الفرنسية - الإسرائيلية بأقبح النعوت .. وتململت لندن وباريس .. ولكنهما أدركتا أن زعيمة الغرب تعمل فى نهاية الأمر ، لصالح الغرب - رغم المنافسات داخل المعسكر الغربى - وأن هذه الحماقة ، يجب أن تنتهى على وجه أو آخر ، وأنه إذا ترك الباب مفتوحاً فى هذه الأزمة . فإن أول من سيدخل من هذا الباب المفتوح هو الإتحاد السوفيتى . واطمأن عبد الناصر على مكانه رئيساً لمصر ، وزعيماً لشعبها .. وعندئذ تذكر أن سليمان حافظ جاء ، فى هذه المحنة ، يعرض ذلك العرض الذى يمكن أن يتلخص فى كلمتين : عبد الناصر يذهب .

وألقى القبض على سليمان حافظ . وزج به فى المعتقل ، بينما أنا عضو فى الوزارة لا أدرى من ذلك قليلا ولا كثيرا .

حتى كان مساء أحد الأيام ، ورن التليفون فى منزلى ، وكانت المتكلمة ، سيدة قالت إنها شقيقة سليمان حافظ .. فتبادر إلى ذهنى على الفور خاطر غاية فى السوء . فقد أشفقت أن يكون سليمان حافظ قد فارق دنيانا ، إذ لم يحدث أن كلمتنى شقيقة سليمان من قبل . . وإستمعت إليها ، وعلمت أنها عاتبة علىّ ، لأن سليمان حافظ فى المعتقل .. بينما أنا فى الوزارة . وأحسست بألم ، وبإهانة معاً : صحيح - يعلم الله - أننى لم أكن أعلم .. ولكن عدم علمى هو شىء فى مثل سوء علمى وسكوتى .. فأقسمت لها بأن عهدى بهذا الذى تقوله ، هو اللحظة التى تخاطبنى فيها . وقلت لها : « إطمئنى يا سيدتى سليمان حافظ سيفرج عنه بعد غد على الأكثر .. وإلا فسترينني خارج الوزارة » .

وإنتويت أن يكون شاغلى الوحيد فى اليوم التالى ، هو العمل للإفراج عن سليمان حافظ .. ولكننا دعينا الذهاب من منازلنا إلى مطار القاهرة لنستقبل ضيفاً ما . وذهبت إلى المطار ، وأناأكاد أكلم نفسى فى الطريق بصوت عال : « كيف حدث هذا ؟.. أوصلت الأمور إلى هذا الحد .. وكيف ؟ » .

وهكذا .. إلى أن وصلت إلى المطار ، وهناك بحثت عن زكريا محيى الدين ، فلما وجدته ، أسرعت إليه متجهماً .. فقال : « خير ؟.. »

قلت . « لم يبق خير .. » غضحك زكريا وقال متسائلاً : « ليه .. ليه ؟.. » فقلت له : « سليمان حافظ معتقل منذ مدة .. » فقال - بهدوئه التقليدى - : « آه .. ألم تكن تعرف ..؟ » قلت : « وكيف أعرف ؟.. أما كان الواجب أن نخطر على الأقل باعتقال رجل كسليمان حافظ ، كان وزيراً للداخلية مثلك ، ونائب رئيس الوزراء ، واقترن إسمه بسقوط الملك » ..

عندئذ - روى زكريا محيى الدين ما حدث من سليمان حافظ .. وكانت هذه الرواية أول ما صافح أذني في هذا الصدد

والحق صعقت ، ورحت ، كمن يهذى ، أردد : « سليمان فعل هذا .. فعل هذا بالضبط .. لكن سليمان لا يؤمن بهذه الأساليب » .

وأفقت من الصدمة ، وتمالكت جأشى ، وقلت لزكريا ، فى عبارات غاية فى الإيجاز : « لو أنكم قبضتم على سليمان حافظ وأطلقتم عليه ، وعلى من معه النار فى ميدان من ميادين القاهرة ، لبكيت عليه طول حياتى .. ولكن لما لمتكم أبداً .. فمصر كانت فى حرب ، ومثل هذه الدعوة من رجل مثله ، إستهزام مرفوض ، وخطر على معنوية الشعب والجيش معاً . أما وقد مرت الأزمة . وخرج الأعداء ، وزالت مبررات القرارالإستثنائى ، فإن إعتقال سليمان حافظ يصبح شيئاً من قبيل النكاية ، أو الثأر السياسى و الذى لا يجوز من رجال مثلكم مع رجل مثله . لا تحرجنى يا أخ زكريا وأطلق سراح سليمان حافظ » .

وكان زكريا محيى الدين كعهدى به .. منطقياً ، وحسن التقدير ، فما لبث أن أفرج عن سليمان حافظ .

وفى المساء ، إتصلت بشقيقته لأطمئنها ، كم كانت فرحتي إذ قالت لى : « سليمان فى منزله » .

ومضت أيام .. وأيام ، إلتقيت بعدها بسليمان حافظ وقلت له : « بلغنى أنك كنت عاتباً علىّ إذ قصرت فى حقك » .. فقال : « أبداً .. من قال ذلك » قلت : « شقيقتك » .. فقال بهدوئه الساخر : « ليس لى أخت » .. فهتفت : « كيف ؟. كيف وهى التى أخبرتنى باعتقالك ، ولامتنى على تقصيرى » .

فقال : « هى إنتحلت هذه القرابة لتكلمك » .. فقلت : « على كل حال .. لقد عملت عملاً مشكوراً » .

ولابد لى هنا من أن أذكر ملاحظتين تتعلقان بحديثى ذاك مع زكريا محيى الدين :

● الأولى : أن زكريا أراد إن يدلل على أن سليمان حافظ رجل حقود فقال : « تصور يا فتحى أنه يكتب إلى مدير المعتقل السيد مدير المعتقل أرجو أن ترسلوا لى وزير الداخلية .. يعنى أنه يسمى مدير المعتقل – وهو ضابط صغير – سيداً ، ويجردنى أنا من هذا اللقب » .. فقلت له : « هذا من حقه . فمدير المعتقل موظف يؤدى واجبه ، وهو لم يعتقله .. أما أنت فزميل سابق له .. ثم أنت المسئول عن اعتقاله » ..فضحك زكريا .. وقال : « نهايته .. سليمان لا يخطىء أبداً » .

● أما الملاحظة الثانية : فهى عبارة قالها وزير شهد حديثى مع زكريا ودفاعى عن سليمان وقولى له : « إن ما يقطع بحسن نية سليمان ، وبوطنيته أنه جاء إليكم أنتم ، وأبدى الاقتراح في حجرة مغلقة .. فهو لم يقف على قارعة الطريق ، أو فى نادٍ ليشرح اقتراحه .. هذه ليست مؤامرة مع أحد » .. فإذا الوزير المدنى – ولا تنس أنه كان زميل سليمان حافظ فى مدرسة الحقوق منذ أربعين سنة سابقة على هذا الحديث – يقول « سليمان حافظ لا يقدم على مؤامرة ، وانما يحرض غيره .. ويختفى » .. فصرخت فى وجهه – رحمه الله – أهذا دفاع .. أم تأييد للاتهام ؟ !!.

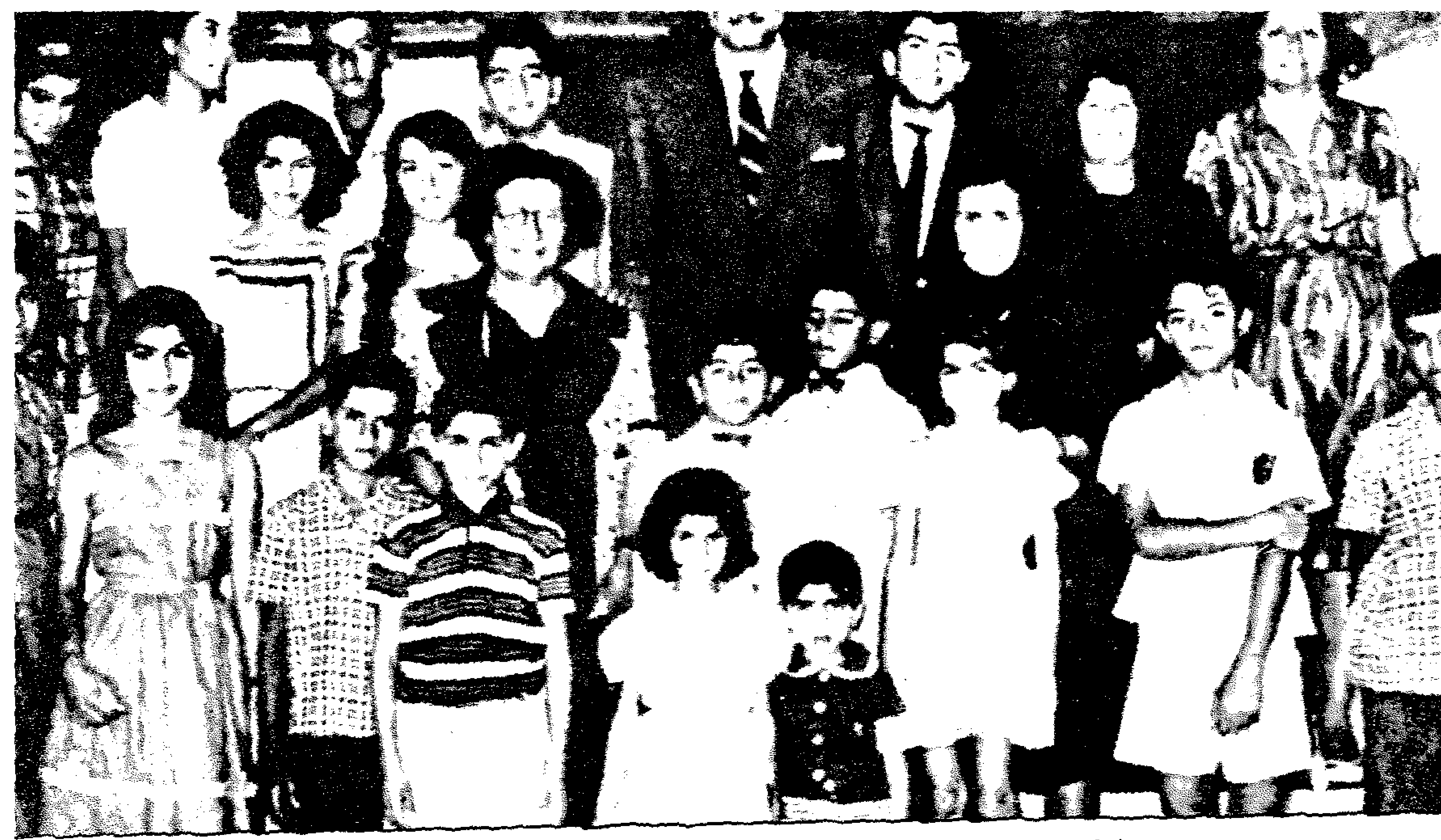
ولا تزال فى جعبة أحداث تلك الفترة ، حادثة طريفة لم اسمع بها من قبل ولم يسمع بها على ما أظن أحد ، وقد وصلت إلى علمى ، حينما اشتد الحديث ، واتسعت دائرته ، حول موت المشير عبد الحكيم عامر .. وهل مات مقتولا ..أم منتحرا .. وهل مات بالسم أم بغيره .. وذكر ، فيما ذكر ، اسم صلاح نصر وسمومه .. فبهذه المناسبة تحدث عبد اللطيف البغدادى إلى الأخ الدكتور نور الدين طراف فقال : « عندما تبين أن الانجليز والفرنسين ، فى خريف سنة ١٩٥٦ ، مصممون على الزحف إلى القاهرة ، وأن الجيش لم يعد فى مقدوره رد عاديتهم عن العاصمة ، وأن الوساطات الدولية وقرارات الأمم المتحدة لم تجد . وبدأ المستقبل مظلما شديد الحلوكة .. فقد صلاح سالم أُخر قطرة من معنوياته وتماسكه ، واقترح أن يتناول أعضاء مجلس قيادة

الثورة سما زعافا سريع المفعول لكيلا يقعوا فى يد الأنجليز والفرنسين والأسرائيلين ، فيتخذوا منهم فرائس للانتقام والتشفى ، وينتهزها أعداء الثورة – من كل صنف ونوع – فرصة ليثأروا لأنفسهم من أولاد وبنات وذوى قربى عبد الناصر وأخوانه . ووافق الحاضرون جميعا ، على هذا الاقتراح .ولم يحل دون تنفيذه إلا غياب البغدادى الذى لم يكن حضر ذلك الاجتماع .. فأرسلوا إلى صلاح نصر ليجهز السم المطلوب وإلى عبد اللطيف البغدادى ليبدى رأيه فى الاقتراح .. وفى خلال البحث فى الأمرين معا .. جاءت الأنباء من نيويورك .. بما لا يدع مجالا لمثل هذا اليأس القاتل ..

الفصل السابع

يوم وقعنا ميثاق الوحدة مع سوريا

● كان ذلك في اليوم الحادى والثلاثين من يناير سنة ١٩٥٨ .
وعلى الرغم من أن آخر شهر يناير ، أول شهر فبراير ، فى القاهرة ، يعتبر من شهور البرد ، ألا أن ذلك اليوم كان مشمساً ، ودافئاً ، كأنه من أيام الخريف الجميل فى مصر ، الذى يعادل أيام الربيع فى أوربا . وكان إجتماع مندوبى الدولتين والشعبين : مصر وسوريا .. فى قصر القبة ، فى ضاحية غير بعيدة عن قلب العاصمة ، وتوافد المندوبون إلى حديقة القصر الجميلة ، وهى الحديقة التى أنشأها الخديو اسماعيل منذ قرن أو يزيد . وقد وقفت فى شرفة الدور الأول من أدوار القصر ، أنظر إلى المندوبين السوريين يتقدمون نحو القصر فى خطى بطيئة ، وليس على وجوههم أى إنفعال ، فلا هم فى فرح ولا هم فى حزن ، ولا هم فى توجس .. كأنهم مستسلمون لقدر غير واضح .



الرئيس جمال فى استقبال اسرتى ناظم الطبقجلى والحاج سرى ـ القائدين العسكريين اللذين اعدمهما حكم عبد الكريم قاسم فى العراق .

وقد بدا لي من خطي « صبري العسلي » - بصفة خاصة - أنه لا يجد فيما يجري .. أو فيما بعد ، ما يدعو إلى الإبتهاج والنشاط ، وأنه لو إستطاع أن يمنع وقوع هذا الذي يجري .. لما تأخر !!.

أما الجانب المصري .. فقد كان في حال آخر .. كان القلق ، وإنشغال البال ، والحيرة ، هي المشاعر السائدة . وفي حجرة من حجرات القصر سمعت « علي صبري » يقول لآخر : « لقد وضعونا في مأزق » .. فقد قال السوريون أنه إن لم تتم الوحدة ، سقطت سوريا في يد الشيوعيين .

ولعل من طرائف التاريخ أن الذي كان يقول ذلك ، هو الضابط الذي قيل فيما بعد ، أنه السياسي الذي وقع عليه إختيار الإتحاد السوفيتي ليقود السفينة المصرية - أي سفينة سياسة مصر !! أما أنا .. فقد كان لي أزمة خاصة بي ، فقد ترددت في أن ألبي الدعوة إلى « إجتماع القبة » لسبب لا يمت بصلة إلى موضوع الإجتماع ، أي إلى موضوع الوحدة المصرية السورية ولا لأي أمر آخر يتصل بالرجال الذين إجتمعوا في هذا المكان .. سواء كانوا من الفريق المصري أو من الفريق السوري ، بل لأمر آخر وقع بالصدفة في اليوم السابق لهذا الإجتماع . ولذلك ، لقد بادرت « عبد الناصر » حينما سألني : « ما رأيك في موضوع الوحدة ؟ » قائلاً :

- رأيي أنه ما كان يجب عليّ أن أحضر اليوم .

ففهم « عبد الناصر » أن هذا الرد معناه أنى معترض على الوحدة إلى حد النفور من مجرد الإجتماع المخصص لتوقيع مراسمها . ولكنى أضفت قائلاً :

– كيف يمكن أن ألبى الدعوة لهذا الإجتماع ، وهو مقصور على الوزراء وأنا لم أعد وزيراً ؟.

فعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه ، وهو يكاد يقول لى « إن المناسبة تسمح بالمزاح » . ولكنى لم أدع له فرصة للاستفسار . فقلت له :

– لقد أصدرت أمس قراراً جمهورياً بعزلى .

وإسترسلت فى الكلام :

– تذكر سيادتك أننى اقترحت إدخال تعديل على « قانون المؤسسات العامة » لأن القانون القائم يضمن « للمؤسسات العامة » إستقلالاً تاماً عن الوزير ، وهذا الإستقلال هو ركن من أركان نظام هذه المؤسسات خارج مصر ، ولكن الأوضاع الدستورية فى مصر لا تسمح بهذا الإستقلال ، لأن الوزير هو المسئول عن تسيير وزارته ، فإذا حللنا هذه الوزارة إلى مؤسسات ، وجعلنا كل مؤسسة دولة قائمة بذاتها ، لا يملك الوزير عليها سلطاناً ، كانت مسئولية الوزراء عبثاً لا معنى له ، وإنعدمت وسيلة مراقبة ومساءلة هذه المؤسسات .. ولذلك فأنا أريد أن أضيق نطاق تدخل الوزير فى توجيه أعمال المؤسسات بتقرير حقه فى الإعتراض المحدد المكتوب على قرار بعينه يصدره مجلس إدارة

المؤسسة .. فان تمسك المجلس – ممثلاً في ثلثي أعضائه – بالقرار محل الإعتراض ، تحمل الوزير المسئولية ، وأصبح واضحاً أن قراره كان محل معارضة من المجلس . وهذا يجعل الوزير حذراً في الاصرار على رأيه ، ويبقى المسئولية الوزارية في حدودها .. وأذكر أن هذا النظر من جانبي كان يحمل موافقة من سيادتك ، ومن مجلس الوزراء ، ومن لجان مجلس الأمة المختصة . وقد أرسلنا التعديل بقرار جمهورى منك إلى المجلس ، وتحدد لنظره جلسة . إلا أنني فوجئت بالأمس وأنا في المجلس ، بأن قراراً جمهوريا أخر صدر منك بسحب القرار الجمهورى الأول الذى وافق على التعديل الذى إقترحته . لم أسمع بهذا القرار يا سيادة الرئيس ، ولم يخطرنى به أحد ولم أعرف ما الذى دعا إليه .. ومعنى ذلك أن سياستى ، أو تصرفاتى ليست محل موافقتك ورضاك ، وأننى حصلت – بطريقة مما – على هذه الموافقة .

وهنا نفد صبر الرئيس جمال . وكان مهموما ، مشتت البال ، وقلقا في هذه المناسبة . . مناسبة الوحدة التى فاجأته على غير توقع ، وأربكته ، وغيرت مساره .. فقاطعنى بشيء من الحدة :

– ألم توافق أنت على سحب تعديلك ؟.. ألم يكن القرار الجمهورى الثانى محل مناقشة بينك وبين « فهمى » ؟.

فأجبته متسائلاً :

– فهمى .. وما شأن فهمى ؟ (« وفهمى » هذا هو المرحوم محمد فهمى السيد ، زوج بنت شقيقة السيدة الفاضلة حرم الرئيس عبد

الناصر – وكان في ذلك الحين ، مستشاراً بمجلس الدولة ، وكان قد أصبح « ممثل الرئيس » في مجال القانون والقانونيين . وكان كل ما يتم من تعيين للقضاة والمستشارين وتعديل في القوانين وإصدار لها – من عمله) . ولما كان قانون المؤسسات العامة من وضعه ، فقد إعتبر أن إجراء تعديل فيه ، من غير موافقته .. أو على الأقل إستئذانه ، إعتداء على إختصاصاته وسلطاته ولذا ، فإنه حينما علم بالتعديل الذي أدخلته على ذلك القانون ، ذهب إلى الرئيس جمال وأفهمه أن هذا التعديل يعني هدماً للمؤسسات العامة من أساسها .. فقال له الرئيس جمال : لا تصدع رأسي .. إذهب إلى فتحي رضوان وناقش الأمر معه ، وما تنتهيان إليه إعملا به ، وسأصدر من القرارات ما ينفذ ما تتفقان عليه .

لقد كان الواجب على (فهمي السيد) أن يأتي إليّ . ولكنه خشي أن يصارحني بما قام به من وراء ظهري . وكان يعلم أنه لن يستطيع أن يصمد في الجدل معي في هذه القضية . ولهذا ، ذهب إلى المرحوم أحمد حسني ، وزير العدل – وقتئذ – واستعداه عليّ ، وحصل منه على موافقة على رأيه . ثم ذهب إلى الرئيس جمال وقال له : « لقد إتفقنا »!.

وظن الرئيس جمال ، عليه رحمة الله ، أن (اتفقنا) هذه تنصرف إليّ ، وإلى « فهمي » .. فلما أطلعته ، ونحن في قصر القبة على الحقيقة ، وفهم أن صهره لم يفاتحني في هذا الموضوع إطلاقاً ، نسي موضوع الوحدة ، ونسي القلق الذي كان يساوره ، وجرى ناحية عبد اللطيف البغدادي ، وكان ، آنذاك ، رئيساً لمجلس الأمة ، وسأله :

- ألا يمكن سحب القرار الجمهورى الخاص بقانون المؤسسات والمتضمن العدول عن تنقيح هذا القانون ؟.

فقال له « بغدادى » :

- لقد نفذ السهم . فالمجلس وافق على السحب في جلسة أمس كما أخبرك فتحى رضوان .

وعاد إلىّ الرئيس جمال كاسف البال ، حزيناً ، كأن موضوع الوحدة قد فشل ، وتهاوى قطعاً على الأرض . وأمسك بيدى ، (ولعبد الناصر ، فى فترات الصفاء النفسى ، عادة الإمساك بيد أصحابه ، أو ضيوفه ، أو من يود مجاملتهم) وعندها يحس من أمسك « عبد الناصر » بيده بأن « تياراً » من العطف ، والود ، والمحبة قد سرى إلى يده هو - أمسك « عبد الناصر » بيدى بهذه الطريقة الودود المؤثرة ، وقال :

- أرجوك إنس هذا ، فأنا اليوم فى حاجة إلى صفاء عقلك .. وأقسم لك أن « فهمى » أفهمنى أنه إتصل بك ، وتحدث إليك طويلاً ، وحصل على موافقتك وماذا أفعل .. وهذا هو حال الناس ؟!.

وجذبنى « عبد الناصر » ، نحو قاعة الإجتماع . وكان قد أرسل يدعو « فهمى السيد » ، الذى جاء وقد علا وجهه إخضرار ، وبهتت شفتاه ، فبادره عبد الناصر :

- ألم تقل لى أنك تفاهمت مع السيد فتحى رضوان ؟.

وقبل أن ينطق « فهمي » - رحمه الله - أشار عبد الناصر إليه بإصبع مرتعشة من شدة الغضب قائلاً : « إذهب .. » ثم إلتفت إليّ ، وقد زالت من فوق وجهه علائم الغضب وقال :

- المهم الآن ما هو رأيك في الوحدة ؟.

فقلت على الفور :

- الوحدة ، في ذاتها ، ليست محلاً لإعتراضي .. ولا يمكن أن تكون محلاً لإعتراضي ، وإنما الإعتراض قائم على ملابساتها ، هل الظروف في سوريا مواتية ؟.. هل الظروف في المجال العربي تسمح ؟. هل الظروف في مصر تأذن ؟.

فالتفت إليّ ، رحمه الله ، بكل وجهه ، وقال :

- وما رأيك أنت .. هل هذه الظروف كلها تسمح ؟.

فقلت :

- النظرة العجلى لا تكفي مطلقاً . وهذه الخطوات الضخمة لا تتم إلا بتمهيد طويل ، فقاطعني :

- لو سبق هذه الخطوة تمهيد ، لما تمت في جيلنا .. وأنا معك في كل ما تقول . ولكن .. هذه هو قدرنا . فلقد رفض السوريون رفضاً باتاً أي تأجيل ورفضوا منحنا فرصة نتنفس فيها ، نفكر .. وقد قبلت .. وقلت ، هي خطوة قررها الله لنا فلنتوكل .. وليكن ما يكون .

وهنا بدت على وجهه علائم قلق خفيفة جعلتنى أشفق عليه ، وقد كان بودى ، لو إستطعت ، أن أضمه إلى صدرى وأعانقه طويلاً ، وأن أقبل جبهته ، فقد قررت مقدار ما يعانيه في هذه اللحظة . وأردت أن أسرى عنه ، فقلت .

– إن ما يحدث لك الآن ، لم يحدث من قبل لرجل آخر فى التاريخ .. ربما حدث شيء مشابه « لبرنادوت » .. فشرد بذهنه وقال .

– من يكون برنادوت ؟.

قلت :

– إنه رأس الأسرة المالكة السويدية ، وقد كان ضابطاً مثلك .. وكان طويلاً كطولك ، وقد إحتاجت السويد إلى ملك ، فأرسلوا بعثة إلى فرنسا للبحث عن ملك ، فوقع إختيار البعثة على (جنرال) من جنرالات نابليون ، كان طويل القامة ، حسن تقاطيع الوجه ، وكان رجلاً من القلائل الذين كانوا يعارضون نابليون ولا يخافون منه . وذهب الجنرال برنادوت ليتوج ملكاً على بلد لم يسبق له أن زارها ، ولم تكن معلوماته فى الجغرافيا ، بصفة عامة ، جيدة ، فكان ما يعلمه عن السويد أقل من القليل .

وضحك عبد الناصر ضحكة صادقة ، وقال :

– تبدو خالى البال ، مستعداً أن تقص القصص . المهم ما رأيك فى الوحدة ؟.

فاسترسلت فى الحديث :

- أنت غداً ستكون رئيس دولة سوريا . وأنت لم تضع قدمك فيها ، ولا تعرف الكثير عنها .. ولم تفكر ، من جانبك ، فى هذه الخطوة ، إذن

- هى إرادة الله ، كما قلت ، فلنتوكل على الله .

وترك رحمه الله يدى قليلاً ، ووضعها على كتفى وقال :

- إذن أنت لست قلقاً ؟..

فأجبته :

- مواجهة الجديد تستدعى القلق ، وتدعو إلى التردد . ولكن بعد المواجهة ، يهدأ الإنسان . إسمع يا سيادة الرئيس ، بجانب الوحدة ، المصريون زراعيون ، فى دمهم ما يدعو إلى الإستقرار ، والمحافظة ، وكراهية الحركة .. والسوريون تجار .. ميالون للحركة ، قليلو الإستقرار فلعل هذه المواجهة ، تنقل إلى المصريين بعض خصائص السوريين .. فى أول الأمر سيشكو التجار المصريون من شدة منافسة التجار السوريين . ولكن ستحصل المزاوجة ، وسيصعب علينا أن نعرف من المصرى ومن السورى . فالتجار السوريون أمثال « الشوربجى » .. و « حلاوة » .. و « الحلبى » .. و « الحلبونى » تزوجوا من مصريات وأصبحوا هم أنفسهم مصريين يقولون عن أهل سوريا : « هؤلاء الشوام » !..

فضحك « عبد الناصر » وبدا أن نفسه « إنبسطت » وأن قلقه خف وقال لى :

- صلاح البيطار قال لى : يا سيادة الرئيس الإنسان عند نزول البيسين (حوض السباحة) يخاف من الماء ، فإذا قفز إليه زالت صدمة المجازفة فقلت له : يا أخ صلاح ، أنا خايف ألا يكون فى حوض السباحة ماء أصلاً .

وجذبنى ، رحمه الله ، وإتجه إلى قاعة الإجتماعات . وهو أحسن حالاً ، وأكثر إستبشاراً ، وجلس على رأس المائدة ، وكان أول ما قاله ، موجهاً الحديث إلى الرئيس شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا آنذاك . « الناس فى مصر بتقول ان التجار السوريين سيغزون البلاد».. فقال الرئيس شكرى القوتلى : « لقد خلصتم من اليونانى ، والطليانى .. وسيطلع لكم السورى » .. وضحك الجميع .

ثم دار الكلام ، بعد ذلك حول « الوزارة المركزية » . و « الوزارة المحلية » أو « الاقليمية » ، فاقترحت فى هذا الصدد أمراً ، وذكرت فى أثناء عرضه نظام « البريذيوم » فى الاتحاد السوفيتى ، فاذا بجمال عبد الناصر يتصدى لى ، ويفند رأيى ويقول : « فتحى رضوان عايز (يخمنا) . المسألة دى فيها (خم) .. » ولفظ (يخمنا) هو لفظ دارج لم يستعمل فى مصر إلاّ حديثاً ، ومعناه « يستغفل » .

ولست أذكر ، الآن ، تفاصيل إقتراحى ، ولا حتى جوهره .. ولكن الذى أذكره أنى يومها لم أرد بما قلت إستغفالاً لأحد .. ولا أحسبنى جاوزت الصواب .

إنتهى البحث فى الجلسة الموسعة التى ضمت أعضاء الجانبين المصرى والسورى والرئيس عبد الناصر والقوتلى إلى تأليف لجنة لصياغة بيان الوحدة . وقد شكلت اللجنة من « على صبرى « .. ومنى .. ممثلين للمصريين ومن « عفيف البزرى » .. و « صلاح البيطار » ممثلين للسوريين ، وإتفقنا على أن نجتمع فى المساء لنضع البيان .

ولقد كانت كتابة بيان ، من عشرين سطراً ، أو ثلاثين ، عملاً شاقاً ، حتى لقد كاد الفجر يطلع علينا ، ونحن لانزال نضع كلمة ونحذفها ، ونقرأ سطراً ثم نلغيه . وشعر « على صبرى » بالسأم ، ثم بالتعب .. فقام وقال « إفعل معهم ما شئت . فأنا موافق ، سلفاً ، على ما ستوافقون عليه » .

وبعد قليل شعر العضوان السوريان بالتعب فقاما ، وتركا لى مهمة إعداد البيان ، على أن نقرأه فى الغد صباحاً قبل الإجتماع الشامل عند الظهيرة .

كان الإتفاق ، قبل إنفضاض إجتماعنا ، أن نلتقى فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . ولما كانت الثامنة ، وجدتنى لم أحظ فى الليلة السابقة إلا بنحو ثلاث ساعات من النوم ، وأحسست بأن رأسى تدور ، فتمهلت قليلاً ، وحاولت أن أنبه نفسى بحمام ساخن وبعض الإسترخاء ، ثم وصلت إلى قصر القبة فى الساعة التاسعة وفى جيبى مشروع البيان ، وأنا ساخط عليه لأنى لم أشعر بالحرية وأنا أكتبه لكثرة ما سبق بالأمس فى اللجنة الرباعية ، من جانب السوريين ، ومن

تحفظات . وكم كانت دهشتى أنى لم أجد أحداً منهم .. مع أنى كنت أصعد درجات سلم الدور الأول فى قصر القبة ، وأنا أكاد أنكفىء على وجهى ، خوفاً من أن يطول إنتظار باقى الأعضاء لى . وقد بقيت وحدى أتثاءب وأتمطى ، حتى جاوزت الساعة العاشرة فاجتمعت اللجنة الثلاثية – لا الرباعية – لأن « على صبرى » لم يحضر .. حتى كان الإجتماع الموسع .

لقد حدث أثناء إنعقاد اللجنة الثلاثية ، وكان معنا بعض الموظفين المصريين فى رياسة مجلس الوزراء ، وفى وزارة الخارجية ، أن دفع باب الحجرة التى كنا نجتمع فيها برفق ، وظهر من خلف الباب الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرية . فلما رآنا أغلق الباب بسرعة ، وكأنه أتى أمراً إداً (مستنكراً) !!

كانت هذه الحركة من جانب الدكتور محمود فوزى كافية لأن تثير « عفيف البزرى » – وكان ، على ما أذكر ، قائد الجيش ووزير حربية سوريا – فقد صرخ : « كيف .. كيف سيدى ! وزير الخارجية المصرية يتحرج من أن يدخل علينا وأن يسألنا إلى ما وصلنا ، ويمنحنا بعض توجيهاته ، أليس ذوبان بلده فى كيان أكبر عملاً من أخص خصائص الخارجية . ما بيصير هذا » .

فرد عليه « البيطار » . « ولكن الدكتور فوزى يعلم أن المجتمعين شكلوا لجنة رباعية لوضع البيان ، فلا يجوز له أن يقحم نفسه على هذه اللجنة » .. فأثار هذا الرد ، « البزرى » أكثر مما أثاره تصرف الدكتور فوزى ، وعلا صوته وقال : « لجنة .. لجنة .. لجنة سيدى ما فى اللجنة

سر على عضو فى الإجتماع الأكبر ، ولا عليه ، وهو وزير الخارجية . تأليف اللجنة هو إجراء عملى فقط .. ولكن هذه الخطة ، خطة البعد عن مواطن المسئولية ، وإيثار العافية والصمت ، هى عيوب فى كبار رجالنا الفنيين ، وهذا ما أغضبنى » .

***

كان ذلك داعياً لأن نترك البيان لفترة غير قصيرة لمناقشة شخصية الدكتور فوزى ، وقد إنضم إلينا فى الحديث الموظفون الفنيون الذين كانوا معنا فى الحجرة وقد بدأوا الحديث أول الأمر على إستحياء ، ثم لما إطمأنوا إلى أن أحداً لم يمنعهم .. أفاضوا فى الحديث عن أسلوب الدكتور فوزى وخطته . وذكروا أنه ترك وزارة الخارجية للسيد حسين ذو الفقار - وكيلها - وأنه تقريباً لا يأتى إلى مكتبه ، وأن سكرتيره الخاص نقل فى إحدى حركات التنقلات دون أن يعرف الدكتور فوزى !! فضلاً عن أن يستأذن فى ذلك ، وأن السفير حسين غالب رشدى - وكان سفيراً لمصر فى أسبانيا - خرج ذات يوم من لدى وزير الخارجية، الدكتور فوزى ، بعد أن سمع منه ثناء جماً على عمله ، ووعداً بأنه سينقل ، فى الحركة القادمة ، إلى مكان أفضل من أسبانيا فإذا به يفاجأ بأنه فصل من السلك السياسى كله !!.

وقال آخر : « إن هذا شأن كبار الدبلوماسيين .. فإن (تاليران) عمل مع الثورة الفرنسية .. ومع نابليون ومع ملكية البوربون بعد سقوط نابليون » . وهنا صاح صائح من السوريين قائلاً : « تاليران كان قادراً على الإحتفاظ بمركزه لدهائه ، ومرونته ، وتكيفه . ولكنه كان شخصية

فعالة تبدى رأيها ولا تصمت وتكافح وتداور وتناور » . ويبالغ أحدهم فى الحملة على الدكتور فوزى فقال : « إنه يأبى أن يحمل ساعة فى يده أو جيبه لكى لا يسأله أحدهم كم الساعة ، فيضطر إلى الإجابة » !!.

وذكر ثان أنه سمع من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة أنه لا يذكر أنه سمع صوت الدكتور فوزى ، ولذلك فهو لا يعرفه .

وقال ثالث : « من الغرائب أن الكثيرين يحملون على سياسة عبد الناصر الخارجية ، ويسمونها بالحماقة والإندفاع وعدم التخطيط والسطحية .. ومع ذلك ، يتحدثون ، فى نفس الوقت ، عن كفاءة وعبقرية الدكتور فوزى وزير الخارجية ، وهوإما أن يكون واضع هذه السياسة الخارجية . فيتحمل وزرها .. وإما أن يكون لا رأى له فى سياسة بلاده الخارجية فينتفى - أساساً - القول بكفاءته وبراعته وألمعيته » .

ووجد الأعضاء صعوبة فى العودة إلى أصل الموضوع .

***

ولما إنعقد الإجتماع الكبير - تلوت البيان . فاقترح الرئيس القوتلى أن نضمنه معنى أن الوحدة السورية المصرية ليست سوى بداية ، وأنها مفتوحة لمن عداهما من الدول العربية إلى الإنضمام لها فى وحدة أو إتحاد . فضممنا هذا المعنى إلى البيان .. ولقد هزتنى كثيراً تحية الرئيس القوتلى لى .. إذ قال ، قبل أن أتلو البيان : « نحن عارفون بقدرتك على الإفاضة . وقد كتفناك .. وأنت لا تحب القيود » .

وإنفض الإجتماع ، وتبادلنا التهانى ..

ثم .. كان ما كان .



لقاء وداع بين ناصر وشكرى القوتلى

الفصل الثامن

عبد الناصر

واختيار الرجال

● ليس أشق على أى رئيس دولة ، من إختيار رجاله الذين يعملون معه ، وينفذون أوامره ، ويقترحون عليه الأفكار والمشروعات ، وينصحونه .. أو ينقدون قراراته عند الإقتضاء . فإذا وفق الرئيس إلى إختيار الرجل الصالح والمناسب ، فإن « بطانة » الرئيس المقربة إليه ، والمحببة إلى قلبه ، قد لا تقبل هذا الرجل ، لأنها ترى فيه ما يهدد إمتيازاتها ، ويشاركها فى حب الرئيس ، فتفعل المستحيل لتمنع تعيينه . وإذا صمد الرئيس للمؤامرات حوله ، وعين الرجل الصالح الذى إختاره ، فقد تطارده « البطانة » بعد ذلك ، وتضع فى طريقه العراقيل والعقبات ، حتى يفر من وجهها نجاة بنفسه . وإذا صمد فى وجهها ، رأى نفسه آخر الأمر ، غير قادر على أن يعمل

شيئاً . وقد يرى « الرجل الصالح » أن خير وسيلة لبقائه هي أن « يفسد » . وأن يخضع لأوامر البطانة والحاشية ذات النفوذ !! ثم يكتشف الرئيس أن الرجل الذى ظنه « صالحاً ومناسباً » .. لا هو « صالح » .. ولا « مناسب » !.. و« الصلاح » كلمة مطاطة ، وغير متفق على معنى محدد لها . فالرجل الصالح كأستاذ فى الجامعة .. قد لا يصلح لعمل سياسى . والصالح فى رئاسة مؤسسة كبرى .. قد لا ينجح فى إدارة وزارة صغيرة ، فكثير من قادة المعارك ، وعباقرة الحروب ، فشلوا فى إدارة الدول .. والحديث طويل .

فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ - تقررت إقالة الرئيس « على ماهر » من رئاسة الوزارة التى أسندت اليه يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ ، والثورة لاتزال فى يومها الأول ، وقد كنت أنا صاحب اقتراح هذه الإقالة . فقد كانت عقلية على ماهر « عقلية ملكية » .. وكان الرجل - بكل مكوناته وخلفياته - أبعد الناس عن أن يمثل ثورة شابة خلعت الملك الذى قام هو نفسه بالاسراع فى اجراءات اجلاسه على العرش ! .. وكان الذين حول « على ماهر » - ومنهم بعض وزرائه - ممن لايرقون كثيرا عن مستوى الشبهات . ولم يتمتع العديد منهم بالكفاءة التى ترشحهم لتولى مناصب الوزراء فى حكومة كان عليها أن تنهى الملكية ، وأن تدخل فى صراع سياسى واجتماعى ، ضد جميع أفكار ، ومبادىء ، وتقاليد المجتمع القديم الذى كان « على ماهر » واحداً من صانعيه ، وواحدا من كبار ممثليه !! .

استجاب أعضاء مجلس قيادة الثورة لاقتراحى ، وتأثروا به ، وأوفدوا أثنين من أعضاء المجلس هما : « أنور السادات » .. و « جمال سالم » إلى « الرئيس علي ماهر » فطلبوا اليه أن يستقيل .. فاستقال .

وكنت قد أقترحت على مجلس قيادة الثورة ، أن يسندوا رئاسة الوزارة إلى قانونى كبير هو « سليمان حافظ » .. كان يشغل ، أنذاك ، منصب وكيل مجلس الدولة - وهو الهيئة القضائية المختصة بمراجعة تشريعات الدولة ، وبالحكم فى القضايا المرفوعة ضدها . وقد كان « سليمان حافظ » - بحكم منصبه هذا - يعمل مستشارا خاصا لرئيس الوزراء .. أيا كان اسم هذا الرئيس .. وبهذه الصفة ، اتيح له أن يشارك فى المداولات الخاصة باجراءات عزل الملك فاروق ، واعداد وثيقة نزوله عن العرش . وقد اشرت فى موضع سابق من هذا الكتاب ، إلى المجازفة العظيمة التي أقدم عليها حينما تأبط مظروفا - ظهر يوم السبت الموافق ٢٦ من يوليو ١٩٥٢ وذهب الى « قصر رأس التين » ليقابل ملك البلاد ، ولم يكن فى هذا المظروف سوى وثيقة تنازل هذا الملك ذاته الذى كان يحكم مصر حتى تلك اللحظة ، دون أن يجرؤ رجل من رجالاتها الكبار أن يراجعه بصراحة .. ولو بكلمة ! .

ذهب « سليمان حافظ » إلى « قصر رأس التين » . وكان الملك فاروق قد لجأ إليه فارا من « قصر المنتزه » الذي كان الجيش قد حاصره . وكان « قصر رأس التين » متصلا بالبحر .. وله ميناء خاص به ييسر لمن يكون فى القصر أن يستقل زورقا أو طرادا وينطلق في

البحر الواسع . ولم يكن الصراع بين الملك والضباط الشبان الذين ثاروا ضده قد حسم ولم تكن القوى الدولية التى اعتادت أن تتصرف ، فى شئون مصر ، وتتصارع حول الاستئثار بالسلطان فيها ، قد أعلنت ، بصراحة ، ماذا تريد لمصر . ومن هنا كان دخول « سليمان حافظ » إلى الملك فى قصره .. وحوله حرسه المدجج بالسلاح ، والحاشية التي تحب الملك - بمثابة الدخول إلى « عرين الأسد » حقيقة لا مجازا . ولكنه رجل لايعرف الخوف ، اشترك في العمل السرى ضد الأحتلال البريطانى .. وحلق فوق رأسه الاتهام فى قضية مقتل « السردار » البريطانى التي أتهم فيها « علي ماهر » .. و « النقراشي » وكاد يعلق فى حبل المشنقة ، لولا أن الله قيض له ظرفا أنجاه من هذا المصير . وهو رجل هادىء لا يغضب .. واذا تكلم فى مسائل القانون ، راح يفتت المشاكل تفتيتا .. بمنطق بارد وصارم ، وواضح وضوحا عجيبا كأن فى رأسه ، وعلى لسانه ، مصباحا كاشفا .. يطارد الغامض .. ويبسط الصعب ! .

وكان ترشيحى لسليمان حافظ ليتولى رئاسة الوزارة ، قائما علي ثلاثة عناصر تؤهله لهذا المنصب الخطير فى تلك الحقبة التي لم تشهد مصر مثلها ، منذ أقيل الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٩ .

أولها : وطنيته .. واشتغاله بالمسائل العامة . وتضحياته ، وشجاعته فليس هو رجل قضاء لايتجاوز اهتمامه ، وممارسته ، ودرايته نص القانون ، وملفات القضايا .

وثانيها : مكابدته لمشكلات الحكم من خلال فتاواه للحكومة فيما يصادفها من أزمات وما تقترحه من تشريعات .

وثالثها : نزاهته .. وزهده في المال ، وفي الجاه ، والسلطان .. وبساطة حياته ، وتحرره من التقاليد التي تحكم امثاله ..

ولم أدخل في حسابي ، وأنا ارشحه ، أن هذا الزهد سيغلبه : وأنه سيفر من رئاسة الحكومة – وهو أمر لا يتصور وقوعه في تلك الفترة من مصري سواه – اذ لم يكن في مصر من لايرى نفسه صالحا لرئاسة الوزارة .. وحتى لتولى عرش البلاد مهما كانت كفايته قليلة .. ومكانته ضئيلة !!

كان سليمان حافظ قد قدم ، في يومين متتالين .. وفي أقل من شهر وبعض شهر ، دليلين على أنه رجل قد لا يضارعه أحد من مواطنيه .

الأول : حينما حصل من الملك علي توقيعه بالنزول عن العرش ، وكأنه يطلب منه توقيعه على صك بعشرة جنيهات ..

والثاني : حينما جاءت اليه الرياسه منقادة في عهد جديد ، ومع شبان لايزالون في ريعان عمرهم .. ومهما قيل في وطنيتهم ، وشجاعتهم ، فإن خبرة الحكم كانت تنقصهم .. فأباها .

واتفق على أن يعقد مجلس القيادة اجتماعا للنظر في تشكيل الوزارة الجديدة . والعجيب أننا التقينا – سليمان حافظ وأنا – على غير

موعد فى مبنى ادارة قضايا الحكومة .فقد رأيته يسير فى دهليز من دهاليزها فى بذلته البسيطة المكونة من بنطلون رمادى وسترة من التيل بيضاء اللون .. وينتعل حذاء أبيض بنعل من الكاوتشوك المعروف باسم « الكريب » .. وكأنه لايمت بصلة إلى الرجل الذى كان ، بالامس ، يلعب دورا من أكبر أدوار تاريخ مصر الحديث ، ألا وهو إنزال آخر ملك من ملوك مصر من فوق عرشه ، فى أعرق ملكية استمرت ستة آلاف سنة متصلة . لم تنقطع يوما واحدا ! وحيانى سليمان حافظ .. ثم قال :

– « آخذ باقتراحك .. فوزارة علي ماهر أقيلت ، وعرضوا عليّ الوزارة فاعتذرت عنها » . فصرخت : « لماذا تعتذر ؟! إن الوزارة هذه المرة ليست تشريفا .. إنما هى مجازفة بالحياة ، واستهدفت المخاطر أكثر من الموت ، وعبء ينوء تحته أقوى الرجال » .. فقال ، وكأنه لا يسمع : « الوزارة بعد عزل الملك ، أصبحت فى حاجة إلى شخصية أكبر منى . أنا لا أحد يعرفنى فى مصر ، ولا خارجها . وشهرة الحاكم ، فى ظرف ما ، عنصر من عناصر أهليته للحكم .. المهم أننا سنجتمع ظهر اليوم بمجلس قيادة الثورة بكوبرى القبة ، وأنت مدعو للمشاركة » .

***

وفى الساعة الثانية عشرة ، أو بعدها بقليل كنت فى مجلس قيادة الثورة . هذا المبنىَ المكون من دورين فى شارع الخليفة المأمون ، والذى اعتدت أن أمر به فى سيارتى الصغيرة (هيلمان) فى اليوم الواحد

أربع مرات : اثنتين فى الصباح .. وأثنتين فى المساء .. دون أن التفت اليه ، ودون أن أعرف ماذا فيه .

وكنت قد دخلت هذا المبنى ، قبل ذلك اليوم ، ثلاث مرات . مرة فى يوم الجمعة السابق على هذا الأجتماع . ومرة في يوم السبت . ثم مرة فى يوم الأحد .. وفى اليوم الأول تقابلت ، لأول مرة مع ضابط شاب فى رتبة صاغ (رائد) . ولم يكن هذا الشاب سوى عضو مجلس قيادة الثورة (المرحوم عبد الحكيم عامر) .. وفي المرة الثانية .. وفى المساء .. قابلت (المرحوم قائد الجناح جمال سالم) .. وفي المرة الثالثة التقيت بمجلس القيادة مجتمعا .. باستثناء اثنين هما الرئيس محمد نجيب الذى لم يكن قد ضم بعد لهذا المجلس والمرحوم جمال سالم الذى كان يرفض الاتصال بالمدنيين ، أو الاستماع إلى مايقولون !! .

وفي هذا اليوم ، كان يجري أول تشكيل وزارى من نوعه .. فقد عانت مصر ، منذ احتلها الانجليز سنة ١٨٨٢ . وكانت لعبة الوزارة والوزراء وتشكيل الوزارت واقالتها ، مقصورة على الملك وعدد من رجال قصره ، يكون أبرزهم أحيانا رئيس ديوانه ، وأحيانا ناظر خاصته ، وأحيانا وكيل ديوانه أو كبير أمنائه .. واستمر الحال يتدهور حتى أصبح (أحد خدمه) الذين يعينونه على ارتداء ثيابه وخلعها ، هو صاحب الكلمة الأولى فى اقامة الوزارات وخلعها أيضا .. أما خارج القصر فقد اقتصرت أسماء الوزراء على نحو ثلاثين اسما من جميع

الأحزاب ، يتناوبون الجلوس على مقاعد الوزارة ، ويسقطون منها ، ويعودون اليها ، وكأنهم أحجار (الدومينو) ، تتغير أماكنها من رقعة اللعب ، ولكنها هي لا تتغير أبدا .

وفي ذلك اليوم .. كان يشتغل بالحكومة وبنائها ، ضباط صغار لايزيد عمر أكبرهم عن الثانية والثلاثين ، اذ ولدوا جميعا ، بين سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ . ولم يكن في وسع أحدهم ، قبل الثورة أن يخاطب وكيل وزارة ، أو أمينا عاما فيها ، إلا وهو مشدود القامة ، محييا تحية عسكرية .

وكان الوزراء الذين يدعون للحكم ، جددا ، شبانا صغارا ، في أولى درجات السلم السياسي .. وموظفين قريبين من أعلى السلك الادارى . ولكنهم بعيدون ، كل البعد ، عن السياسة ، والوزارة ، والحكم .

***

دخلت القاعة التي كان يشغلها رئيس مجلس قيادة الثورة ، لأرى فيها مشهدا عجيبا . أناس مدعون للوزارة ، وعلى وجوههم من علائم الخوف والفزع ، مالم يعل وجه مصرى دعى للوزارة من قبل .

فقد تصوروا أنهم مقبوض عليهم . اذ أن الدعوة التى وصلتهم لم تبين لهم لماذا دعوا إلى المجلس « مجلس قيادة الثورة المخيف » . وبعضهم أدرك أنه مرشح لتولي منصة الحكم . ولكنه أشفق من هذه

الدعوة ، فالملك لم يكن قد غادر البلاد إلا منذ أقل من شهرين . وأمور السياسة لا تستقر على حال . وقد يعود الملك إلى مصر ، فيعتبر كل من تولى أمور الحكم ، استجابة لدعوة الثورة .. متمردا ، وخائنا. وقد يساق إلى المشنقة .. بوصفه ثائرا ، وخارجا على مليكه . وفى أحسن الظروف قد يودع السجن وإن هو خرج منه .. فنصيبه التشرد والجوع . ثم .. من يضمن أن الاعتذار عن دخول الوزارة لن يفسر بأنه رفض للتعاون مع الثورة ؟ . وقد تستقر هذه الثورةأو يطول عمرها . فيكون هذا الرفض مخاصمة لها تعرضه للمكاره والتضييق !! .

ولقد رأيت أحد المرشحين متجها إلى القاعة ومن خلفه ضابط من الشرطة العسكرية .. و « المرشح المسكين » يتلفت حوله ، وكأنه يطلب الغوث والنجدة ولما رآنى – وكان يعرفني – هتف بأسمى ، واندفع نحوى .. ولولا الحياء لالقى بنفسه على صدرى !! . ولكن المرشحين الذين سبق لهم أن شاركوا فى الحكم ، قبل الثورة ، دخلوا القاعة هادئين ، وعلى وجههم قرار ظاهر مقروء :

(نحن لن نشترك فى هذه الوزارة .. لاننا لا نتفق مع مبادئها .. وفى مقدمتها : الاصلاح الزراعى ، وتناول الأمور بروح ثورية تقلب عاليها سافلها) .. وكان فى مقدمة أصحاب هذا القرار : محمود محمد محمود . والمهندس حامد سليمان . ومريت غالى وإبراهيم بيومى مدكور . وكان من المعتذرين صاحب شخصية غريبة لاتعرف بواعثها

ولا تطمئن إلى مفاجآتها .. وذلك هو « الباشا » حفني محمود - شقيق صاحب المقام الرفيع محمد محمود (باشا) رئيس حزب الأحرار الدستوريين - حزب الارستقراطية المصرية ، وقد انتهى به الأمر إلى أن يكون نصيرا للسلام ، وصديقا للشيوعيين ويساريا ، بعد أن عاش حياته يدبر المقالب المضحكة في أصدقائه واعدائه على السواء . ولو دخل (الباشا) .. حفني محمود الوزارة .. لكان وجوده فيها مددا لروح جديدة من العبث المقرون بالجد .. والجد الممزوج بالعبث ، الذى كانت الحياة المصرية فى أشد الحاجة اليه ، لوضع حد لركودها الذى طال نحو ربع قرن .. منذ أجهضت ثورة ١٩١٩ .

***

رأيت فى ركن من هذه الحجرة ، المرحوم « جمال سالم » ، يناقش تارة فى هدوء وأخرى في صراخ .. الأستاذ عبد الجليل العمرى الذى دخل الوزارة فى نفس اليوم ، وزيرا للمالية . وكانت له شروط بشأن الحد الأقصى للملكية الزراعية ، وما يحق للمالك الزراعى أن تملكه زوجته وأولاده ، وما يتصرف فيه بالايجار لصغار المزارعين .

وكان « جمال سالم » يرفض هذه الشروط ، ويحاول أن يزحزح « العمرى » عنها ولما لم ينجح ، سمعته يقول له : « أنا قابل شروطك لا اقتناعا بها ، ولكن حرصا على معاونتك واشتراكك فى الوزارة » .

وخارج القاعة .. كان هناك مندبون للأخوان المسلمين الشباب . أذكر منهم المرحومين « منير دلة » و« حسن العشماوى » . وكانا

صهرين . اذ كان أولهما زوج أخت ثانيهما وكان عشماوى نجل محمد العشماوى (باشا) الوزير الذى تعاون ، قبل الثورة ، مع الأخوان المسلمين ، فأصبح من كبار رجالهم ، وإن لم ينضم رسميا اليهم . ولكن قيادة الثورة رفضت أن تأخذ أحدهما ، ولاكليهما ، للوزارة . وفضلت عليهما مرشح المرحوم حسن الهضيبي مرشد الاخوان المسلمين وهو المرحوم أحمد حسني وكيل محكمة النقض آنذاك ، وشهدت هذه القاعة مشهدا طريفا حقا . فقد كانت المداولات بين الضباط من جهة .. وبين المدنيين المرشحين للوزارة من جهة أخرى - تسفر عن الاتفاق على اسم من الأسماء ، فيتعين أن يتصل به (رئيس مجلس قيادة الثورة) تليفونيا . ويدعوه للاشتراك فى الوزارة . فقام الرجل بهذه المهمة ، ودعا أشخاصا لم يسمع باسمهم من قبل ، للاشتراك فى الوزارة . فكان يتلقى الأسم ، ثم يطلب له صاحب الاسم على التليفون .. فإذا هم بالكلام.. نسى الأسم ، ويطلب أن يذكر به . فيذكر له وسط ضجيج القاعة فلا يسمعه جيدا فينادى من طلبه في التليفون باسم « مغلوط » ثم يصحح له فيصححه بدوره .. وهكذا . والرجل على الطرف الآخر من التليفون ، مندهش .. لايدرى من الذى يعابثه على هذه الصورة ، وهو يحسب أن الأمر مزاح كله . وهو فى واقع الأمر ، جد خالص !! .

كنت واقفا مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وهو يروى حيرته بين معسكرات الأخوان المسلمين . فالشبان منهم لهم مرشحان . والشيوخ لهم مرشحان آخران ، فقلت له : « حبذا لو أخذت الشيخ أحمد

حسن الباقورى » .. وكان « جمال » متلهفا على حل .. فسألنى .. وهو شارد الذهن : « من ؟ » فأعدت عليه الأسم . فعاد يسأل : « من ؟» فلما أعدته عليه ، للمرة الثانية بدت عليه خيبة أمل . فقلت له . « الحقيقة . أنا بودى أن يكون من بين الوزراء أزهرى صـاحب عـمـامـة . فللأزهر ولاصـحـاب العمائم فضل على نهضة مصر الحديثة . فكان منهما الخطباء ، والشعـراء ، والصحـفيـون ، والمفكرون . ولكننـا درجنـا عـلى إهمالهم بلا مبرر . و« الباقورى » أزهرى مشتغل بالسياسة . وقد جره هذا الإشتغال إلى المعتقل ، فقضى به وقتا غير قصير . وهو خطيب ، ومتحدث ومتطور .. وسيرى فيه الناس صورة جيدة للأزهرى . فأجابنى : « إن أردت الحقيقة .. أنا أفضل أن يكون ممثل الأخوان هو « حسن العشماوى » .. فهل تعرفه ؟ » . قلت له : أعرفه جيدا .. فقد تردد على فى مكتبى ، ووكلنى فى قضايا الأخوان ، وأعطانى فى يدى هذه مئات الجنيهات . وهو شاب ذكى وسيكون له بلا شك مستقبل سياسى ، ولا اعتراض على ترشيحه للوزارة وإن كان لايزال صغير السن جدا » فقال لى عبد الناصر على الفور : « اذن نأخذه ودعك من الباقورى » . فقلت له : « افعل ماتشاء .. فأنتم أصحاب الأمر ، وأنا لا أقول ما أقول إلا على سبيل الإقتراح » .

والعجيب أننى سمعت « عبد الناصر » يقول لى : « ولكننى أريد أن توافق على دخول حسن العشماوى الوزارة » .. فأدهشنى منه اصراره

على طلب موافقتى . فقلت له : « موافق » .. فسألنى : « وسحبت ترشيحك للباقورى ؟ » فزادت دهشتى .. وقلت له : « إن ترشيحى للباقورى أو لغيره ، هو مجرد اقتراح ، تأخذون به أو تدعونه كما يحلو لكم . ولست أرى تعارضا فى أن تأخذهما معا ، فهما مرشحان جيدان » . فقال فى أسف : « بل لابد من أخذ أحدهما فقط لأنى لا أستطيع أن أخذ من الأخوان المسلمين أكثر من اثنين . ولا أستطيع أن أخذ من فريق الشباب أكثر من واحد . وأريد أن يكون هذا « الواحد » هو العشماوى . ولكنك مصمم على ترشيح الباقورى » فقلت له : « وماذا يقدم تصميمى أو يؤخر .. فأنت الذى تختار الوزراء لا أنا » فهز رأسه وقال : « ليكن ماتريد . سنأخذ الباقورى » !! .

ومن غرائب التاريخ أنه لم يكد يمضى على هذا الحديث بضعة شهور ، حتى كان « حسن العشماوى » قد صار خصما عنيفا للثورة ، ولعبد الناصر بالذات .. وبلغت هذه الخصومة إلى حد أن اتهمته الثورة بتدبير انقلاب ضدها . وحوكم غيابيا . وحكم عليه بالموت !! فاضطر إلى اللجوء إلى الكويت ، وعاش فيها لاجئا .. وعلا مقامه هناك ، حتى توفاه الله وهو فى مقتبل العمر .

وفى ذات ليلة .. بعد تأليف الوزارة بشهور - انصرفنا نحن سكان مصر الجديدة من أعضاء مجلس الوزراء . الشرباصى ، وأحمد حسنى، والباقورى ، وأنا - فركبنا معا عربة واحدة . وجاء ذكر « العشماوى » .. فقلت للباقورى : « لو أن ترشيح حسن العشماوى نفذ يومذاك

لكان معنـا الان .. ولـكنت أنت محكوما عليك ، ومطـاردا ، وهائمـا على وجهـك » .

ولم أكن قد ذكرت للباقورى ، حتى هذا اليوم ، شيئا عن ترشيحى اياه خشية أن يكون فى ذلك صورة من صور المن .

***

ولم ينته ترشيح الرجال ، واستبدالهم بغيرهم .. بل استمرت عملية الترشيح . فالذين رشحتهم ، فى ذلك اليوم ، هم : سليمان حافظ ، والدكتور صبرى منصور ، والأستاذ فراج طايع ، والأستاذ حسين أبو زيد والشيخ الباقورى ، ثم فريد انطون .. وبعد ذلك ، لم يبق منهم فى الوزارة - قبل أن يكمل عاما - إلا « الباقورى » الذى أثبت أنه سياسى .. وأنه يتمتع بمرونة وحسن حيلة . أما الاخرون فقد خرجوا من الوزارة تباعا . وكان ذلك طبيعيا فقد كانوا رجالا صالحين فى كثرتهم ، وعلى خلق عظيم . لكن لم يكن فيهم سياسى واحد .. والبقاء فى الوزارة - خصوصا فى أوقات الأزمات - يحتاج إلى قدرة سياسية فلا تنفع الكفاءة الفنية وحدها ولا ينفع الخلق القويم وحده فالمرونة التى ترتفع أحيانا ، وتهبط ، إلى المداورة ، ثم المنافقة وضبط النفس حتى لايندفع السياسى إلى معارضة ومهاجمة كل مالا يعجبه ، محتفظا بنفسه إلى الموقف الأكثر أهمية .. قد تتحول ، مع الزمن ، إلى « وصولية » تبرر كل خطأ ، وتؤيد الحاكم فى كل مايقول ويعمل . لكن الظروف ، وأيضا الحظوظ ، لهما دورهما ، وكلمتهما ، فيما يرفع

الناس .. وفيما يهبط بهم !! فقد يكون الفرق بين دخول الوزارة ، أو بخول السجن ، بل صعود المشنقة ، مجرد حركة صغيرة ، أو دخول زائر غير متوقع ، أو تعطل خط تليفونى ! .

ولدى على ذلك أمثلة كثيرة .. فمرشح حسن الهضيبى الأول للوزارة فى السابع من سبتمبر١٩٥٢ ، كان هو الأستاذ كمال الديب ، محافظ الأسـكندرية فى ذلك الوقت . ولكنـه لم يدخل الوزارة ، لمجرد وجوده فى الأسكندرية يوم تأليف الوزارة . اذ كان « جمال عبد الناصر » حريصا على أن يتم تأليف الوزارة فى تلك الليلة .. وقد كان تأليفها ممكنا مع ادراج اسمه فى قائمة الوزراء وتأجيل (حلف اليمين) بالنسبة لكمال الديب إلى اليوم التالى ...

وفى ذات ليلة .. عدت إلى بيتى ... وبينما أنا على السلم المؤدى إلى مكتبى فى المنزل . سمعت جرس التليفون ، فعدوت نحوه ورفعت السماعة فإذا المتكلم « جمال عبد الناصر » . وكنت ، انذاك وزيرا للمواصلات .. فسألنى : « هل تعرف الدكتور مصطفى خليل ؟ » فقلت له : « لقد مر علىّ فى مكتبى بعد أن حددت له موعدا بناء علي طلب الأخ زكريا محيى الدين ، الذى فهمت منه أنه صديقه وزميله فى نادى التجديف » . فضحك « عبد الناصر » وقال : « أنا عارف أن صداقتهما صداقة رياضية » . واسترسلت فى كلامى بعد هذه المقاطعة قائلا : « لقد جاء يعرض علىّ فكرة ادخال نظام جديد اسمه نظام التحكم المركزى ، يغنى عن أزدواج الخطوط فى السكك الحديدية » ، فقال عبد



اللقاء والاعتزاز بين ناصر والشيخ شلتوت .

الناصر : « ما رأيك فيه على العموم ؟ » فقلت له : « إن جلسة واحدة لاتكفى للحكم له أو عليه ، ولكن الأثر الذى تركه فى نفسى فى هذه الجلسة ، كان طيبا » . فقال عبد الناصر : « وما رأيك أن يمسك وزارة المواصلات (وكان لفظ « يمسك » من تعبير الضباط ، بمعنى أنه يتولى أمر وزارة أو منصب ما) . فقلت : « على خيرة الله » ، فقال : « ايه مش موافق ؟ » فقلت : « أبدا .. كيف لاأوافق وأنا لم أجلس معه إلا عشر دقائق » .. « فعاد عبد الناصر » يسأل .. وفى صوته شىء من التردد : « يعنى رأيك إيه على العموم » ، فضحكت وقلت « رأيى على العموم ، هو رأيى على الخصوص ، ففى الحالين لا أستطيع أن أحكم عليه » . فقال : « يعنى بلاش » . فاضطررت أمام هذا الالحاح أن أقول : « لا .. لاأبدا . ليس هناك مايدعو إلى العدول عن ترشيحه . لكن اذا كنت تريد أن أقول شيئا من ظاهر الأمور ، فأن مما يحسب له أنه مهندس سكك حديدية . وهو يدرس هذه المادة فى كلية الهندسة . فهو مختص بالمرفق الذى سيشرف عليه . ثم هو حسن العرض لفكرته . ومظهره يحمل على الأحترام ، أما ما قد يعترض عليه به فهو أنه ، أولا ، صغير السن ، وصغر درجته الجامعية ، فهو مدرس . ثم أن اقتراحه الخاص بالتحكم المركزى رفض بشدة من جميع مهندسى السكك الحديدية ، وقد يدفعه ذلك إلى اساءة معاملتهم . كما قد يحمله صغر سنه إلى الرغبة فى إقالة الموظفين الكبار فى السكك الحديدية والتليفونات ،.والمرفقان لا يحتملان أن يحدث فيهما عملية كهذه . فقد

أخرج منهما فى أول الثورة عدد من خيرة المهندسين مثل هذا الاعتبار »
فقال عبد الناصر : « خليه يدى لهم على رؤوسهم .. يستاهلوا » . وكان عبد الناصر دائم الشكوى من مرفق السكك الحديدية ، ومن كبار موظفيها ، ويتمنى أن يتخلص منهم ، أو يضع لهم من يتولى تأديبهم !!

ولكن هذه المكالمة انتهت بختام أراه مهما للغاية في الدلالة على أسلوب اختيار الوزراء والرؤساء فقد قلت لعبد الناصر : « هل أخبرت باقى الزملاء بهذا التعيين الجديد ؟ » فقال لى مندهشا : « ولماذا أخبرهم ؟ » . فقلت له : « إن الوزير الجديد سيكون زميلا لباقى الوزراء ، وسيجرى بينهم تعاون حميم وقد يكون أحدهم يعرفه ، وقد تكون علاقة أحدهم به سيئة ، فكيف يتعاونان وزمالة أحدهم للآخر مفروضة على كليهما . ثم أن الوزراء أحق بأن يعرفوا التغيير الذى سيطرأ على مجلس الوزراء الذى ينتمون اليه ، ويعملون فيه ، بدلا من أن يقرأوه في الصحف كباقى القراء » . فكان جواب عبد الناصر « هل تتصور أن كلهم زيك .. السلام عليكم » .

وانتهت المكالمة .

واستمر ترك اختيار الوزراء وأشباههم من الرؤساء ، للمصادفات . من ذلك أنه عرضت علينا يوما ، مذكرة موقع عليها من « الدكتور عزيز صدقى » مع اقتران إمضائه بلقب (المستشار الفنى لرئيس الوزراء) فلما وقع نظر « جمال سالم » على هذا الوصف ، صرخ بأعلى صوته ..

« ابن ال .. مين اللى عينه مستشارا فنيا لرئيس مجلس الوزراء ؟ . »

كان رئيس مجلس الوزراء في ذلك الحين ، هو اللواء ، محمد نجيب - فأعلن ، على الفور أنه لم يعينه ، ولم يستعن به في شيء ، ولم يعرض عليه أي عمل .. أو أى تقرير من تقاريره . وأن أقصى ماسمعه عنه أن الصاغ مجدى حسنين - مدير مكتبه - قد ألحقه بمكتبه كمعاون له - أى لمجدى لا للرئيس - وأنه لم ير التدخل فيمن يختارهم مدير مكتبه لمعاونته فى عمله .

وعلق الوزراء على هذا الأسلوب من الالتصاق بمكاتب رئيس الوزراء والوزراء - بدون علم الوزير المختص ، وبدون موافقة المجلس أو صدور قرار بذلك - كل بما وفق إليه من كلام .. ونال « الدكتور عزيز صدقى » في تلك الجلسة ، نصيب غير قليل من هذا الكلام . وبعد قليل .. لم يلبث « الدكتور عزيز صدقى » حتى أصبح وزيرا للصناعة ومقربا للرئيس عبد الناصر حتى أصبح - فيما بعد - رئيسا للوزراء !! .

وإليك مثل آخر .. على تعيين الكبار ، وتقريبهم ، وإبعادهم . ذهبت يوما إلى بيت الرئيس جمال بلا موعد ، وسألت عن الرئيس ، فقال لى أحد الضباط العاملين فى مكتبه : « الرئيس موجود .. ولكن معه الدكتور عبد المنعم القيسونى » فقلت له : « أرجو أن تخبره بوجودى » . فتردد الضابط قليلا .. فقلت له : « قل للرئيس إنى موجود . فقد طلب أن أقابله ، ولو كان معه غيره » . كان هذا القول منى صحيحا . المهم أننى دخلت مكتب الرئيس ، فوجدت الدكتور القيسونى يعرض عليه أعمال

وزارته ، وكان من بينها اختيار شخص يتولى أمر الحراسة على أموال الرعايا الفرنسيين والبريطانيين الذين هاجروا من مصر فى أعقاب حرب السويس سنة ١٩٥٦ . فرشح الرئيس جمال لهذا المنصب « الدكتور كمال رمزى استينو » – وكان « الدكتور استينو » وزيرا للتموين فى ذلك الحين . فاستفسر الدكتور القيسونى . « وهل سيترك ستينو الوزارة ؟ » . فقال الرئيس : « ولماذا يتركها ؟ » فقال القيسونى : « كيف يتفق أن يكون وزيرا فى الوزارة وزميلا لى ، ثم يتبعنى ، ويعرض علىّ أعمال الحراسة ، أصدر له الأوامر ، وألغى أوامره ؟ » . فهز الرئيس جمال رأسه .. وقال : « وفيها آيه ؟ » .. فقال القيسونى : « هذا سيكون محرجا لى . فضلا عن أنه سيشل رقابتى على أعمال الحراسة .. اللهم إلا إذا ألحقت الحراسة برئاسة الجمهورية » فقال الرئيس جمال ، مستنكرا هذا الاقتراح : « وهل ينقصنى (قرف) جديد ؟ » .. ثم سأل :ألا يوجد عندك وكيل وزارة من وكلاء المالية يصلح لأن يكون حارسا ؟ » .. فاعتذر « القيسونى » .. بأن أعباءهم فوق مايطيقون . كنت ساكتا ولم أشترك فى الحديث برأى . إذ أن وجودى لم يكن مأخوذا فى الحسبان . ولم يكن موضوع الحديث موضوعا عاما يسمح لغيرالوزير المختص ، أن يشارك فيه .. ولو بتعليق . ولكنى رأيت نفسى مضطرا لأن أقول شيئا فقد سمعت ، عند أول مقدمى ، أن الدكتور مصطفى خليل ، وزير المواصلات ، غير مستعد للتعاون مع المهندس موسى عرفة وكيل وزارة المواصلات ، وأنه يطلب إقالته من

منصبه أو نقله إلى وزارة أخرى . وأن المهندس موسى عرفة طلب نقله إلى وزارة الرى و لأنه – أصلا –.من كبار مفتشيها . إلا أن وزارة الرى اعتذرت عن قبوله بأنه ليس فيها منصب وكيل وزارة شاغر . فاقترح الرئيس جمال على القيسونى نقله إلى وزارة المالية فقال القيسونى مندهشا : « مهندس رى .. ماذا يعمل فى وزارة المالية ؟ » هنا قلت للرئيس : « لدى اقتراح لحل المشكلتين » . فقال متهللا : « وماذا هو ؟ » قلت : « يعين موس عرفة حارسا على أموال الرعايا البريطانيين والفرنسين فتحل بهذا مشكلة البحث عن حارس ، وتحل فى نفس الوقت ، مشكلة موسى عرفة نفسه الذى يراد ابعــاده عن وزارة المواصلات ولاتجدون له مكانا » . بدا السرور الشديد على وجه الرئيس جمال ، هنأنى طويلا على هذا الحل ووقف قائلا : « هل صدقتنى أن مجيئك نافع ؟ » .

وعلى ذكر القيسونى نفسه ـأذكر كيف اختير لمنصب نائب وزير مالية فقد كنت جالسا مع الرئيس جمال فى مقر قيادة الثورة الكائن على شاطىء النيل الغربى بحى(الجزيرة) .. كان الدكتور عبد الجليل العمرى ، على ما أذكر قد شكا من كثرة عمله بوزارة المالية ، وطلب أن يعان بنائب وزير، يحيل إليه بعض أعماله ، ولما كان عديل الرئيس جمال – أى زوج شقيقة حرمه – هو الأستاذ محمود فهمى رزق ، وكان موظفا كبيرا وقديما من موظفى البنك الأهلى .. وكان البنك الأهلى هو

مستودع الكفايات الاقتصادية .. وكان أكثر موظفيه من الشبان المصريين الذين حصلوا على الدكتوراه فى الاقتصاد من انجلترا أو أمريكا، فقد رأى الرئيس أن يستعين « بعديله » فى اختيار واحد من شبان البنك الأهلى الممتازين . وجاء الأستاذ محمود رزق إلى مقر القيادة .. وتكلم ، كعادته ، بصوت خفيض .. وحياء شديد ، حتى لقد كنت أحاول التقاط ألفاظه بصعوبة ، مع أننى كنت أجلس إلى جواره تماما ، وكان خلاصة كلامه .. أن المفاضلة تقوم بين « الأستاذ عبدالمنعم القيسونى » .. و« على الجريتلى » . وأنهما متقاربان على وجه العموم. وإن كان « الجريتلى » أوسع علما، وأكثر شجاعة - أى أقل ميلا للمجاملة والمداراة ـ إلا أن « القيسونى » أكثر اختلاطا بغيره من موظفى البنك ، وأقل انطواء على نفسه .. وبعدا عن الناس فكانت (صفاته الاجتماعية) هذه ، هى العامل المرجح فى الاختيار .

* * *

ذات يوم ، كان السيد أمين شاكر – مديرا لمكتب الرئيس ، ومن المقربين إلى قلبه – ولكن حدث منه ما أغضب الرئيس عليه . فأقصاه عن مكانه. فاشتغل « أمين شاكر » بالتجارة ، وفتح مكتبا للاستيراد والتصدير أو شيئا من هذا القبيل . وراح يتردد على الوزراء لشئون عمله . فجاء الرئيس جمال إلى مجلس الوزراء وقال للوزراء : « أحب أن أقول لكم أن أمين شاكر صديقى .. وهو خفيف الظل وذكى .. ولكن

علاقاته الآن لا تطمئنني فأرجوكم لا تفتحوا له مكاتبكم ، ولا تقابلوه ».. ثم التفت إلى «الدكتور استينو» ـ بالذات ـ وقال : «ويا دكتور كمال لا تعطه موعدا بعد ذلك أبدا ».

ولكن .. لم ينقض على هذا الحديث سوى شهور، حتى استعاد أمين شاكر » ثقة الرئيس . ثم عين وزيرا للسياحة ، بعد أن قضى مدة غير قصيرةٍ سفيرا لمصر في بروكسل لدى مقر السوق لأوربية المشتركة !!.

وقد لا يكتمل الكلام عن الرجال إلا إذا ذكرنا مستشارى الرئيس جمال . فالناس كانوا يحكمون على الأمور من ظاهرها فيظنون – مثلا – أن السيد حسن صبرى الخولى ، ممثل الرئيس الشخصى ، هو واحد من أقرب الناس إلى الرئيس ، ومن أكثرهم ترددا عليه ، واختلاطا به. ولكن الواقع كان أبعد ما يكون عن هذا التصور الذى كان له ما يبرره تماما . فقد قال الأستاذ حسن صبرى الخولى نفسه ، لصديق مشترك ، إعتاد أن يفضى إليه بمتاعبه : « هل تصدق أننى لم أر جمال عبدالناصر على انفراد ، خلال أكثر من عشر سنوات، إلا مرتين فقط. وكانت مقابلتي له على هذه الصورة في المرتين ، بناء على طلبى .. أما فيما عدا هاتين المرتين ، فقد كنت أقابله مع غيرى من الزائرين الكبار »!

وقد قال مستشار آخر للرئيس ، هو السيد حسين ذو الفقار صبرى لنفس الصديق – وكان « حسين » قد نقل من منصب وكيل وزارة

الخارجية إلى مستشار للرئيس فى الشئون الخارجية .. وكان قد انقضى على تعيينه بهذا المنصب أكثر من تسعة أشهر - « السؤال الوحيد الذى وجهه إلىّ الرئيس جمال هو سؤاله عن صحتى ، حينما التقينا ، على سبيل المصادفة ، فى حفلة زفاف ابنة احد كبار الضباط. وأراد الرئيس أن يمر حول مائدة الشاى لسبب ، وكنت على قمة المائدة ، وكان المكان ضيقا ، فالتقى وجه الرئيس بوجهى فقال لى : « إزى صحتك يا حسين » .

وعندما اعتذرت ، فى اكتوبر ١٩٥٨ ، عن أن أكون وزيرا للثقافة والارشاد القومى . فوجىء الدكتور ثروت عكاشة - وكان سفيرا لمصر فى روما - وهو يستمع إلى نشرة الأخبار من الإذاعة ، بأنه اختير وزيرا الثقافة ، دون أن يفاتحه فى هذا الأمر أحد !!.

الفصــل التاسـع

عنــدما يغضــب

عبــد النــاصر

● كنت كما ذكرت من قبل – زاهـدا فى العودة إلى وزارة الأرشاد القـومى (الأعـلام) سنة ١٩٥٦ ، على الرغم من أنى أنا الذى كنت قد دعوت إلى إنشائها ، وعانيت كثيراً ، حتى انتهى مخاض ميلادها ، ثم رأت النور ، ووقفت على قدميها ، وساقيها الصغيرتين تديرها الرياح يمينا ويساراً ، وتحاول أن تقلبها على وجهها ، ثم تنتزعها من جذورها *الغضة اللينة* !.

وقد بينت فيما سبق من القول ، سبب زهدى فى هذه العودة . فإن وزارة الأرشاد القومى (الإعلام) التى تشرف على الأذاعة ، وتعمل على إنشاء التليفزيون ، وتدير المسارح والسينما وتتبعها مصلحتا الآثار والسياحة ، وتبسط ظلها على المتاحف القديمة والحديثة ، وتعقد

الندوات ، وتطبع المجلات وتصدر الكتب والمسلسلات ، هى أكثر الوزارات جاذبية . فالفن جذاب .. « وسدنة الفن » من مطربات ، وممثلات وراقصات .. ومن يلحقهن من ربات الجمال ، وبائعات الفتنة ، والباحثات عن الشهرة ، والطامعات فى المال .. ومن وراءهن من الرجال ذوى المطامع والمآرب ، الذين يحسنون اكتشاف الطرق إلى أصحاب السلطة ، والنفوذ والمكانة - كل هؤلاء يأبون أن تكون الوزارة عملا جديا ، ولا أن تتأبى على أطماعهم وشهواتهم ، فإن استعصت عليهم ، أعلنوا الحرب على الوزارة ، وعلى وزيرها ، وعلى كل من بها ، وما يمت إليها .

ولكن هؤلاء - على ضراوة أساليبهم .. وعلى عدم تورعهم عن إستعمال أى سلاح يحقق أطماعهم - كحشرات المنازل . ما يكادون يحسون بالنور قد أضاء ، ووقع الأقدام قد اقترب منهم ، حتى يفروا بسرعة خاطفة . فوزير الأرشاد القومى - أى وزير الفن والأذاعة والسياحة والطباعة - يجب أن يكون ثابتاً فى مقعده ، مؤيدا بالسلطة ، محمى الظهر ولما كنت أعلم أننى قادر على الظفر بالتأييد ، وبالسلطة الكاملة .. وأننى مهيأ - بطبعى للمعارك وإن دبرت خطتها فى الظلام .. وأشرف على تدبيرها سفلة القوم وأحط اللئام - شريطة أن أكون على أحسن العلاقات بصاحب السلطة الأول .. أى بالرئيس جمال عبد الناصر .

ولم أكن أشك فى مودة الرئيس لى ، ولا فى حسن ظنه بى ، ولا فى رغبته فى أن يقف معى ، وأن يدفع عنى .. ولكن بشرط ألا أختلف مع خطه السياسى ، والأساسى ، وألا أدخل فى معارك مع الذين يؤثرهم بحبه وثقته .

ولما كنت لا أضمن أن أحقق هذين الشرطين ، فقد أعتذرت لجمال عبد الناصر عندما رشحنى لوزارة الأرشاد القومى . ولكنه أصر ، وأطال فى محاولة التأثير علىّ ، وكان فى غير حاجة إلى بذل مجهود كبير لاغرائى . فقد كان بى ضعف حقيقى أمام هذه الوزارة . ولم أكن قد يئست بعد ، من أن تؤدى رسالتها على الصورة التى تخيلتها لها .

ولكن .. لم ينقض وقت طويل ، حتى تحققت كل مخاوفى ، ووقع بينى وبين عبد الناصر ما كاد يؤدى إلى قطيعة كاملة بيننا ، لولا أنه كان حريصا على إستبقاء علاقتى به ..

لما عدت إلى وزارة الأرشاد القومى ، فوجئت بحقيقة لا يصدقها عقل .. وجدتها « هيكلا عظميا » لا لحم فيها ولا شحم .. وربما ولا عظم أيضاً !! لأنى وجدت فى الوزارة وكيلا لها يعنى قمة موظفيها ، ثم موظفاً فنياً واحدا .. فى أدنى درجاتها !! وليس بينهما أحد سواهما ، فتصور « هيكلاً عظيما » يتكون من الجمجمة ثم القدمين ، ولا شىء يربط بينهما . وكيف إستقرت الجمجمة فى الهواء .. وماذا كانت تفعل ؟! وفيم التصاق القدمين بالأرض ؟! وماذا كانا يعملان ؟!

الله وحده يعلم وبالطبع لم تكن بالوزارة وحدة حسابية ولا وحدة إدارية تدير شئون الموظفين ، ولا شيء أخر يمت إلى ما تواضع عليه الناس في جميع بلاد الله لأقامة الوزارات والمصالح والدوائر الحكومية .

* * *

والسبب في هذا كله ، أن السيد وزير الأرشاد القومي السابق - المرحوم صلاح سالم - كانت تقع على كتفيه أعباء الدعاية في خارج البلاد .. وكان دائم التنقل من السودان إلى العراق .. إلى غيرهما .. وكانت الوزارة . بمصوريها ، وصحفييها ، ومترجميها ، وفنييها ، تتبعه أينما ذهب . ولكي يواجه « صلاح سالم » الفراغ الناجم عن إتصاله بشئون السياسة العامة . أعطى إستقلالا تاما للمصالح التي تتبعه ... وهي : الأذاعة ، والأستعلامات ، والمسارح . ونعم مديرو هذه المصالح بفترة كانت أسعد فترات حياتهم الحكومية .

فلما جئت إلى الوزارة .. فوجيء هؤلاء المديرون بأن مصالح أخرى كالسياحة والآثار قد إنضمت إليهم ، وبأن الوزير قد كرس وقته كله لعمل الوزارة ، وبالتالي سيمارس كل اختصاصات الوزير الممنوحة له بلا تزيد ولا استئثار بالسلطة .. ولكن أيضاً بلا تفريط فيها ، ولا تنازل عنها ، حيث لا مبرر للتنازل .. ولا للتفريط ..

وكان ذلك ، أشبه شيء بالكارثة حلت بهم ، فكان لابد أن تواجه هذه الحالة الطارئة من جانبهم ، بمقاومة إيجابية ، وإلا دالت دولتهم ، وزالت سلطتهم .

وفي ذات يوم .. وجدت على مكتبي ورقة طويلة .. مكتوبة بخط عريض فتناولتها .. فإذا هي صحيفة إحتجاج ،أو قل إتهام ، موجهة من أحد المديرين التابعين لي ، والمعروفين بالحذر الشديد في كل خطوة ، والأحتياط التام في كل كلمة يقولونها . وأعدت قراءة الصحيفة , وأدهشني أنها جاءت هكذا ، مفتوحة بلا مظروف ، كأن كاتبها أراد لها أن تعرف في دوائر الوزارة ، وأن تتداول الألسنة ما جاء فيها .

ولقد تعودت في مثل هذه الظروف ، ألا أصدر قرارا . بل أنني لا أدع نفسي تنساق مع الأنفعال الأول . لقد كان المطلوب أن أغضب ، ولذلك لم أغضب وكان المطلوب أن اتخذ قرارا ولذلك لم أتخذ قرارا !! بل لقد حدث أن اتصل بي هذا المدير الذي يطالب باعادة سلطات زعم أنها سلبت منه ، وباختصاصات إنتزعت ، وكانت - كما قال - من حقه . ولعل إتصاله التليفوني بي كانت الغاية منه معرفة ما إذا كانت « الصحيفة » قد وصلتني .. وما هو أثرها عندي .. فرآني هادئا ، كأن لم يحدث شيء . ورددت عليه كالعادة ، وانتهى الحديث على وجه جعل السيد المدير يشك في وصول خطابه إليّ ولذلك إظطر إلى أن يتصل بسكرتيري الخاص ، ويسأله عما إذا كان الخطاب قد سلم إليّ ، فأخبره بأن ذلك هو ما حدث بالضبط . وأن هذا الخطاب كان أول ما قرأته !! .

وانتظر المدير العــام ، والذين حـوله من المديرين الآخـرين ، يومـا كاملا . وفى الليل الهادىء ، وبعد أن فرغت من عملى ، قر قرارى على أن اندب « المدير العــام » صــاحب الخطاب إلى ديوان الوزارة ، وأن أحيل اختصاصاته إلى وكيل المصلحة التى كان يديرها ، وكان موظفا على درجة عالية من الكفاءة الفنية ، مع صفات خلقية لم تكن محل خلاف بين عارفيه .

واستدعى وكيل الوزارة « المدير العام » ، واعلنه أن ندب للعمل فى ديوان الوزارة . فوقع النبأ عليه وقع الصاعقة . فقد كان يتصور أننى لن أجرؤ على المساس به ، وأن انتزاعه من مكانه على رأس مصلحته - الذائعة الصيت الكبيرة القدر - أمر لا يخطر على بال . لأنى أول من يعلم أن هذه المصلحة هى أهم مصالح الدولة عند عبد الناصر وأن من الأقوال المتداولة أن « عبد الناصر » يتفاءل بوجود هذا المدير ، بالذات على رأس تلك المصلحة !.

ونفضــت يدى من هــذه المســألة لأنى ، فى ولقع الأمر ، لم أعـدها أكثر من كونها « عمـلا عاديـا » من أعمـال الوزير . فلقـد كنت - وما أزال - أؤمن بأن من حــق الوزير أن ينـدب المديرين من أية جـهــة فى وزارته إلى أية جـهـة أخـرى فى الوزارة ذاتهـا .. مـا دامت المصلحـة العــامة هـى غـايتــه ، وأنه لا تعقـيب على تصرفـات الوزير وقـراراته داخـل وزارته مـا دامت فى حـدود إختصـاصاته .. حتى ولا من رئيس

الجمهورية ، ولكن « رئيس الجمهورية » كان له رأى خاص . فقد نجمت عن هـذا التـصـرف الادارى البسـيـط ، أزمـــة شـــديدة بينى وبين عبد الناصر .

والحق أن وقـوع هذه الأزمـة أدهشنى تمامـا . وكنت قـد رأيت أن أطلع « عبد الناصر »على قرار الندب بخطاب كتبته بخط يدى ، وطويته داخل مظروف ، وأرسلته إلى مكتب الرئيس مع موظف من مكتبى .

وبدأت طلائع الأزمـة . وبنذرها ، حينمـا ذهبت ، بعد صـدور قـرار الندب ، إلى مـيـدان الأوبرا بالقـاهـرة لأشـتـرك فى تشـيـيع جنازة أحد زملائنا الوزراء ، وهو المستشـار جندى عبد الملك وزير التموين ، فـقد توفى إلى رحمة الله وهو يشغل منصب الوزير . فلما دخلت السرادق .. وكان « عـبد النـاصر » يجلس فى صـدره ، رأيتـه مكفـهـرالوجـه .. فلم أتصور – ولو لجزء من الثانيـة ـ أن هـذا الأكفهرار هو تعبير عن حزن « عبد الناصر » على (جندى عبد الملك) .. فقد كانت صلته به ضعيفة جداً ، وكانت مدة شـغله للوزارة قصـيرة .تأكدت أن هذا « الأكفهرار » شىء خاص بى : بعد أن رأيت زملائى الوزراء يجيئون تباعا ، ويتجهون إلى الرئيس يعزونه ، فيحسن استـقبالهم ، في حين أنه اشـاح بوجهه عنى ، مما صرفنى عن تحيته .

ولما أنتـهت الجنازة . وعدت إلى مكتـبى ، عرفت أن السيـد « جمال سـالم » قـد اتصـل بمكتـبى فى الوزارة مـرارا . فلمـا تم الأتصـال بينى

وبين جمال سالم بدأني بقوله .

- ماذا فعلت مع الريس؟.

فقلت له :

- خير .. لا شيء

فقال وهو يضحك :

- كيف لا شيء .. وهو غاضب منك أشد الغضب ، إلى حد أني لم أستطع أن أذكر إسمك أمامه إلا مرة واحدة . فلما كررت إسمك ، صاح :

- أرجوك لا تسمعني هذا الإسم ثانية .

لقد كان مثل هذا الكلام جديرا - في ظرف آخر - أن يبعث في نفسي الغضب : أو أن يشغل بالي ..

ولكن ، لحسن الحظ ، ملأني هذا الكلام برودا ، وأشعرني بأن الموقف به من الهزل ما لا يصح معه الأنفعال . ولذلك ، دهش « جمال سالم » حينما سمعني أقول له :

- على كل حال ، الدنيا لم تخرب بعد ، وفي وسعك أن تريح « الريس » من سماع إسمي ، وأن أريحه أنا أيضاً من رؤية وجهي ..

فقال « جمال سالم » :

- ماذا تعني ؟.

قلت :

- وهل لكلامى معنى آخر .. اعنى إذهب إلى بيتى . فقد آن لى أن استريح وأريح ..

ففاض « جمال سالم » رقة . ولطفا ، ومجاملة . والذين يعرفون « جمال سالم » . يعرفون أن الرقة ، واللطف ، والمجاملة ، ليست من صفاته التي تحضره دائماً .. وإنما هو - فى الأغلب الأعم من الأحوال - ساخط ثائر ، بل عاصف قاصف ينال الناس من قبضات يده ، وصفعات كفه ، وركلات قدمه وقذائف لسانه الشيء الكثير . ولكنه حينما تصفو نفسه ، يصبح آية من آيات الرقة والوداعة والحرص الشديد على مشاعر الناس .

إنتهى حديثنا على أن نلتقى فى نفس اليوم أو فى اليوم التالى بمكتبه بمجلس الوزراء ، وكان هذا المكتب ذاته هو مكتبى ، عندما كنت اشغل منصب « وزير الدولة » .

وتلاقينا وسألنى : « ما الحكاية » ؟.

فقلت له : الحكاية أتفه من أن تحكى . مدير عام يتبع الوزارة التى أديرها واشرف عليها ، أرسل يحتج على تصرفات لى ، فى خطاب مفتوح ، وكان بوسعه أن يتحدث إلىّ شفوياً وشخصياً . ولكنه فعل ما فعل مدفوعا من آخرين من مديرى الوزارة - وبعضهم عسكريون - ولم أفعل أكثر من ندبه إلى ديوان الوزارة ، وليس هذا الإجراء جزاءً ولا عقابا .

وسألنى « جمال سالم » سؤالا عابرا : « وهل من حق الوزير أن يندب مديراً عاما لا يعين إلا بقرار جمهورى ؟ » .

فأجبته : « بأن ذلك من حقى بلا شبهة . ومع ذلك فقد تداولت ، بطريق الصدفة ، مع إثنين من الوزراء الزملاء .. أحدهما وزير قضى حياته موظفا متقلبا بين أدنى الدرجات إلى أن أصبح وزيرا .. والثانى هو وزير العدل ، المكلف بالسهر على تنفيذ القوانين وسلامة التشريع .. فأقرنى » .

وخيل الى « جمال سالم » أن وساطته نجحت ، وأنه استطاع أن يصرف الغضب عن نفس « جمال عبد الناصر » . فأتصل بى ، مراراً ببيتى وكنت قد اعتكفت فيه . لا أرد عليه ولا على سواه لأنى كرهت أن تقوم بسبب هذه المسألة التافهة ، منازعة وأن تستلزم المنازعة وساطة .

وأخيراً نجح « جمال سالم » أن يتصل بى . ولدهشتى ، وجدنى هادئا .. فإن فشله فى محاولة الاتصال بأحد كان يشعره بالإهانة وشعوره بالإهانة كان يدفعه إلى الثورة .. وكانت الثورة تخرجه عن طوره . أخبرنى « جمال سالم » بأن كل السحب تبددت .. وأن السماء أصبحت صافية وأن « عبد الناصر » يقيم فى « إستراحة القناطر الخيرية » غير بعيد عن القاهرة . وأنه سيستقبلنى فور الأتصال به . وقد إستمعت لهذا الكلام إلى أخره .. ولكننى كنت موقنا أن « جمال

سالم » أخطأ فهم مزاح « عبد الناصر » واسلوبه . فهو لا يغضب إلا نادرا . ولكنه إذا غضب كان غضبه شديدا من ناحية . كما أن « صفاء مزاجه » كان يحتاج ، من ناحية أخرى ، إلى وقت يطول !.

وقد صح ما توقعته . إذ أنى طلبت إستراحة القناطر فرد علىّ الأخ محمد أحمد وقال إن الرئيس نائم وأنه عند استيقاظه سيتصل بى وأعدت السماعة إلى مكانها ، وأنا أعرف أنه لن يتصل بى ثانية . وقد تحقق ما توقعته تماماً . فلم يتصل بى أحد . ولكن « جمال سالم » هو الذى اتصل بى ، وقد بدت فى صوته لهفة من يريد أن يعرف نتيجة تدخله ووساطته فأخبرته بما حدث ، فبدت على صوته خيبة أمل عميقة . وقال : « إذن نتقابل غداً فى مكتبى » .

ذهبت إلى مكتبه . وفى جيبى إستقالة مسببة . وقد أطلعت عليها « جمال سالم » ، بعد فترة قصيرة من الحديث معه . علمت منه أسفه الشديد لعدم نجاحه . وقد لاحظت أنه بدأ يميل إلى جانب « عبد الناصر » ، بمعنى « أننى هولت من أمر الخطاب ، وأنه لم يكن يزيد عن مجرد إبداء رغبة من مدير لوزيره ، وأننا يجب أن نشجع الموظفين على إبداء آرائهم ، وألا نعتبر كل إعتراض على تصرف من تصرفاتنا تمرداً وثورة من المرؤوسين . أما الندب فلم يكن من حقى ، وأن الوزيرين اللذان افتيانى بصحة إجراء الندب الصادر منى ، قد غررا بى .

فقلت له : « إنى أشكرك على تجشمك متاعب الوساطة . والحق أنى كنت زاهدا فى البقاء فى الوزارة . ولذلك كنت أدعو ، فى سرى ، ألا تنجح الوساطة » .

وكنت أتوقع أن يثير هذا الكلام « جمال سالم » . ولكنه تقبله بروح طيبة . ولما قلت له « أننى لم أكن فى حاجة إلى فتوى من أحد . فالمسألة قانونية وأنا محام .. ومحام أمام مجلس الدولة » . لم يعقب ، ولكنه أخذ الاستقالة وراح يقرأها معجباً بألفاظها ومعانيها . وسألنى : « متى كتبتها وكم استغرقت كتابتها من الوقت ؟ » فلما قلت له : « إذا عرفت يا أخ جمال أننى كتبت ، منذ توليت الوزارة فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢، ما لا يقل عن عشر إستقالات ، وجب أن يخف عجبك . فقد تمرنت على كتابة الاستقالات » .. إنفجر « جمال سالم » ضاحكا .. وراح جسمه يهتز إهتزازاً عنيفاً من ثورة الضحك !! ثم تصافحنا ، وتمنى لى الصحة ومستقبلا سعيدا خارج الوزارة ، ووعدنى بأنه سيزورنى دائما فى مكتبى - مكتب المحاماه - ومنزلى .

وشكرت له هذه المشاعر الجميلة ، وإنصرفت دون أن يخالجنى أى شعور بأن الاستقالة التى أعجبت « جمال سالم » ستقبل . وقد تحقق للمرة الثانية ما توقعته . فقد اتصل بى « الأخ محمد أحمد » وأخبرنى بأنه قد تحدد لى موعد لمقابلة الرئيس جمال فى منزله بمنشية البكرى .

ومضيت إلى الموعد .. فإذا بالرئيس يقابلنى متهللا ، والحق أن هذه

المقابلة ادهشتنى ، فقد ظننت أنه سيبقى فى نفسه أثر من غضبه لقرار الندب الذى اعتبره اجتراء على حقوقه ، من جهة ، والذى عده تمردا عليه ، من جهة أخرى .. اذ كانت ادارات وزارة الأرشاد القومى (الأعلام) تعتبر بالنسبة له (مواقع استراتيجية ومناطق حساسة) ..

بدأ « عبد الناصر » حديثه معي بالضحك بطريقته المألوفة التى سبق أن وصفتها ، والتى تشبه « رشف الماء » .. وبعيدة غاية البعد ، عن جلجلة ، ورنين الضحكات المبهجة التى تعدى السامعين بالبهجة والسرور .

بدأ حديثه بالعتاب قائلا .

– [illegible] نتعامل بالكتابة ؟ .. لقد أفزعنى اذ وجدت خطابا منك ، وزاد فزعى اذ رأيت الخطاب منطويا على اخطارى بأنك أحد المديرين العامين الذين يعينون بقرار جمهورى لوظيفة غير وظيفته . وكان رد الفعل الأول عندى هو أن اكتب اليك خطابا رسميا ، أقول لك فيه أن اجراءك باطل ، وأن ندبك كأن لم يكن . وبالفعل ، ناديت « على صبرى » (وكان مديرا لمكتبه) وقلت له : اكتب لفتحى رضوان حالا خطابا بهذا المعنى ولدهشتى – أعد الخطاب بعد عشر دقائق فقط ، مع أن بعض ما أطلبه من خطابات تتأخر كتابته أياما . وأحيانا لا يكتب أبدا !! فقد أنسى ، ولا أجد من يذكرنى . ووضع على صبرى الخطاب أمامى . وامسكت بالقلم ، وهممت بالأمضاء .. ولست ادرى ما الذى منعنى عن

الأمضاء وعن ارساله اليك ، قلت ماذا يريد « فتحى » من وراء هذا التصرف . أيريد أن يخرج من الوزارة بطلا ؟ .

وهنا قاطعته قائلا :

أية بطولة فى أن استقيل من الوزارة احتجاجا ، أو اعتراضا ، بسبب ندب موظف ؟! لقد كان الناس يتوقعون منى أن استقيل بمناسبة « اتفاقية الجلاء » .. وقد سمعت بأذني ، اذاعات اجنبية تقول أننى استقلت فعلا . وأذاعات أخرى تقول أننى اتزعم مجموعة من الوزراء ترفض هذه الاتفاقية وقد حدثت أشياء كثيرة أعرف أن المصريين لا يحبونها .. ولكننى لم أرد أبدا أن استغل هذه الظروف .

وطابت نفس « عبد الناصر » لكلماتي هذه ، وقال مداعبا :

– صحيح .. لماذا لم تستقل فى هذه المناسبات ، مع أنك كنت غاضبا من اتفاقية الجلاء ..؟؟

– لأننى كنت مؤمنا بأننا سندخل عاجلا ، أو آجلا ، في صدام مع الأنجليز والغرب كله .. وأن المعاهدة ستسقط تلقائيا .. وكنت أحب أن أكون طرفا فى هذا الصدام .

وبدا على « عبد الناصر » أنه نسى ، تماما ، موضوع ندب ذلك الموظف الكبير ، وقال .

– لكن الحقيقة أنك لم يكن لك حق فى أن تتخذ هذا الإجراء . كان لابد من الرجوع الىّ ..

فقلت له ، بإصرار .

– إن ندب الموظف المعين بقرار جمهورى يصح أن يكون بقرار وزارى .

قال ، وهو يريد المصالحة .

– ما علينا .. ولكن أنا أريد أن أسوى معك مسألة أخرى . وهى مسألة استقالاتك . فما يمضى أسبوعان إلا وأسمع من شخص ما ، أو من جهة ما ، أنك استقلت أو ستستقيل ! .

فقلت له :

– إن العمل مع الذين حولك صعب جدا ، وأنا ممن لا يحبون أن يشكو إليك . فإما أن أحسم الأمر ، وإما أن اصبر ، حتى أجد حلا بعيدا عنك .

فقال .

– هذا صحيح .. أنك لم تشك الىّ قط .

وأخذ « عبد الناصر » يسألنى عن علاقتى بكل واحد ممن كانوا حوله . ويسألنى عن أسباب الصدام فأتحاشى أن أذكر شيئا .. بحجة أننى نسيت ، أو أن الأمر اتفه من أن يذكر .. ولكنه عندما ذكر اسم « على صبرى » . ألح الحاحا شديدا فى أن يعرف .

فقلت له .

– لقد حدث عندما سافرت إلى الإتحاد السوفييتى ، أن أصدرت سيادتك قرارا بندب « على صبرى » ليكون وزيرا للأرشاد القومى ، خلال فترة سفرى . ويومها استعملت تعبيرا لم يعجبنى . اذ قلت : « خليه يمسكهم كويس » وكنت تعنى بذلك أن « يضبط موظفى وزارة الأرشاد القومى » كأنى أنا لا أحسن ضبطهم . ولكنى صبرت على مضض .. وسافرت وعدت ، فوجدته قد اتخذ أكثر من قرار لا يمكن تنفيذه .

وهنا تفتحت شهية « عبد الناصر » . وقال :

– أعطنى مثالا لذلك .

فقلت :

– لا داعى للأمثلة فهذه أمور تافهة ، وقد انتهت .

ولكنه أصر على أن يسمع . فقلت له :

– مثلا – أراد أن يعين شقيق أحد زملائه فى الطيران ، مديرا للأوبرا وقد عينه فعلا – فى حين أن هذا المنصب ، عين فيه عبد الرحمن صدقى بوصفه وكيلا لمصلحة الفنون التى انشأتها .. فكأنه عين موظفا على وظيفة مشغولة .. كما أنه أمر مدير السياحة ، أن يعين موظفا فى مصلحة الأستعلامات ، فى أحد مكاتب السياحة بالخارج مع عدم وجود وظيفة خالية .. وهكذا .. وهكذا .. وقد اضطررت بعد عودتى أن الغى

هذه القرارات ولابد أن أكون قد أغضبته ، وأنا لا أقصد أن أغضبه ..

وقد حدث أن اجتمعنا في مجلس الوزراء في مساء اليوم التالى ، فتحدث « زكريا محيي الدين » فى هذا الاجتماع عن إصلاح قام به فى وزارته ، وقال : إن ذلك سيستدعى عزل عدد من مديرى المحافظات ، ومديرى الوزارة ، فندبهم للديوان العام بالوزارة توطئة لعزلهم . وهنا - اضطر الرئيس جمال أن يسأل « زكريا » :

- كيف ندبتهم ؟ .

ولم يفهم « زكريا » القصد فى السؤال .

فقال :

- كيف ندبتهم ؟! . ندبتهم .. أصدرت قرارا بندبهم .

فنظر « عبد الناصر » نحوى وقال :

- ولكن .. كيف تندب مديرين بقرار منك ؟ .

فرد « زكريا » بحسن نية :

- ومن اذن الذى يندبهم ؟ الست وزيرا للداخلية ؟ .

فسأله عبد الناصر:

- وهل يملك الوزير ندب مدير عين بقرار جمهورى ؟ .

فأجاب الوزراء ، فى صوت واحد .. قائلين « طبعا » .

فنظر اليّ « عبد الناصر » وهو يضحك بطريقته المعهودة .. ويقول :

- طيب .. طيب ..



لقاء هام بين عبد الناصر والرئيس السورى اديب الشيشكلى فى مصر .

الفصل العاشر

ثقافة

عبد الناصر

● دق التليفون فى منزلى ذات مساء قبيل الساعة الثانية ، ثم أخبرت بأن الرئيس جمال عبد الناصر يطلبنى ، فقمت لأرد ، دون أن أكلف نفسى مشقة استنتاج الغرض من المكالمة ، موقنا أنه أمر عادى من أمور الحكم . ولكن صوت « عبد الناصر » الذى بدت فيه نبرة مرح واضحة أدهشنى . بقدر ما أدهشنى صيغة السؤال الذى بدأ به المكالمة . فقد قال : « ماذا تفعل ؟ » .. فأجبته بما نسيته الآن . ولكنه على أى حال ، لا يخرج عن « أنه ليس لدى شيء هام يشغلنى » . ثم تزايدت دهشتى حينما سمعت عبد الناصر يقول : « اذن لنذهب إلى الشيطان » ! ذلك أنه على حبه الشديد للمداعبة .. ولتفوق حاسة المزاح عنده ، إلا أنه ، فى الأغلب الأعم ، يبدو رصينا ، متحفظا ، وخجولا .. فلا يتبسط إلا خلال الحديث ، وبعد أن يطمئن ، وينسى تحفظه .

وأدركت ، فى الحال ، ما يعنيه الرئيس ، فقد كانت دار الأوبرا تعرض لى مسرحية (دموع إبليس) . وكانت المسرحية محلا لتعليقات كثيرة وشديدة . ومن هنا كان من السهل أن أدرك مرماه . فقلت له : « كما ترى » .. فأضاف : « حكيم معى – يقصد المشير عبد الحكيم عامر – وقد قلنا لنذهب إلى الأوبرا لنرى ماذا يقول (إبليس فتحى رضوان) ، فهل لديك مانع أن تصحبنا إلى الأوبرا ، لنكون فى ضيافتك » . فقلت له وأنا متأثر ، فعلا ، من هذه المكالمة المرحة ، الفياضة بالود والمجاملة : « هذا شرف حقيقى للمسرحية ولمؤلفها » . فقاطعنى قائلا : « طيب .. طيب ، سنذهب فى الموعد .. متى تبدأ ، أظن التاسعة إلا ربعا » فقلت : « اذن سنتركك لتنهى ما عساه يكون لديك من عمل ، وسنتقابل هناك » .

وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ، واتصلت بدار الأوبرا فورا لأنهى اليهم أن الرئيس سيحضر ومعه نائبه ، فإذا بالدار تعلم . واذا بالأستاذ أحمد حمروش مدير المسرح القومى انذاك ، – قد أخطر ، وقد كانت أكبر المشكلات التى واجهها الجميع فى تلك الليلة ، هو كيف يملأون القاعة ، ليبدو المسرح مزدهرا وليبدو أقبال الجمهور على مسرحياته عظيما أو مناسبا .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلت على عجل لدعوة عدد من موظفى المسرح والوزارة ، فقد بقيت أماكن كثيرة فى القاعة خالية . ولم يشغلنى هذا فى قليل أو كثير . ودخلنا إلى مقصورة رئيس الجمهورية ، ومعه

نائبه المشير عبد الحكيم عامر ، وكلاهما فى أحسن حالاته المعنوية ، يتبادلان التعليقات الضاحكة . وكما استقبلا بالتصفيق الطويل ، حيا الرئيس الجمهور الذى كان فى المسرح بسرور ، وعاد وهو يقول لى : « الناس عادة تقبل على المسرحيات التى بها أسماء كبيرة . فمن ممثلو مسرحيتك ؟ » فذكرت أسماءهم .. فقال « لا بأس بهم . ولكن ليس عدد الكبار فيهم كافيا » ، فقلت له : « إن مهمة وزارة الثقافة أن تغير العادات الثقافية غير المستحسنة ولو تعبنا فى ذلك ، ومن العادات السيئة أن يكون العمل الفنى وقفا على أسماء بعينها . فمهمة الوزارة أن تكشف للناس عن مواهب جديدة ، وأن تقدم لهم أسماء لا يعرفونها ولم يسمعوا بها » . فهز رأسه وقال « هذا صحيح .. ولكن التغيير متعب » .

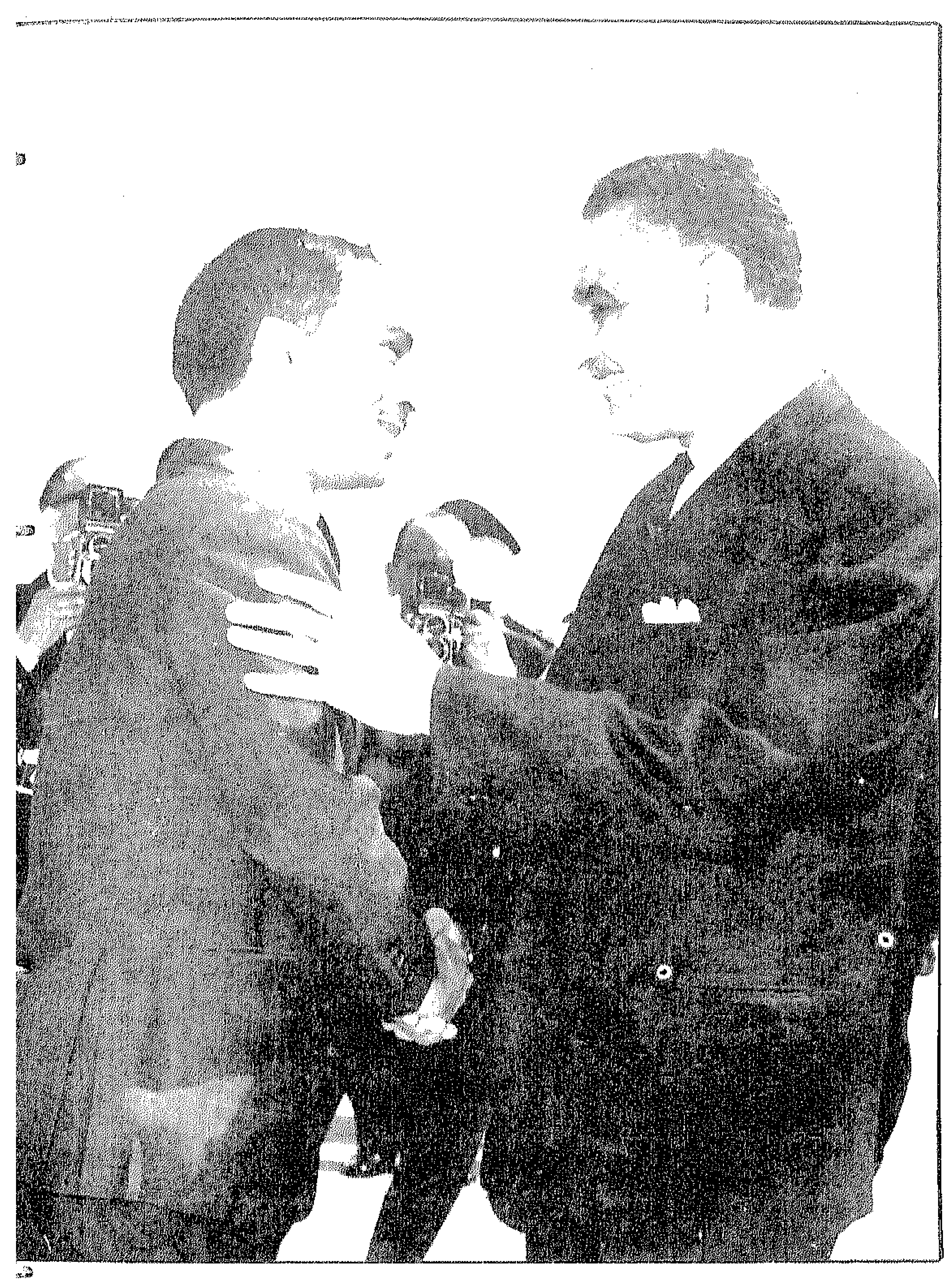
وبدأت المسرحية .. وتوالت مشاهدها وفصولها ، وعبد الناصر ، ونائبه مندمجان تماما مع أحداثها ، لا يكادان يتبادلان طوال الفصل الأول إلا أقل القليل من الكلمات .. مما عددته تحية عظيمة منهما للمسرحية . وبعد الفصل الثانى استأذن مدير الأوبرافى أن يستقبل الرئيس الممثلين الذين يتوقون إلى قضاء بضعة دقائق معه ، فرحب بذلك واصطفوا أمامه فى الصالون الملحق بمقصورته . فتبادل مع كل منهم بضعة كلمات . فلما جاء دور « أحمد علام » أطال معه الحديث ، وكان يبدو على « عبد الناصر » التأثر لأنه لم يعد يسمع « أحمد علام » ، ويستمتع بالقائه العذب .. كما كان يفعل فى الماضى .. وتقدمت

الممثلة « عايدة هلال » - وكانت قادمة من لبنان من فترة قصيرة - فقالت انها باسم فنانى سوريا ولبنان تحيى الرئيس . فسألها : « وهل أنت سعيدة بالعمل فى مصر ؟ فقالت : « بالطبع .. مصر أم الفنون » . فضحك الرئيس قائلا : « أهلا بك » .

وفى فترة الاستراحة ، كان الحديث يدور حول شئون المسرح والفنون في بلادنا ، ولكنه لم يتضمن سوى تعليقات سطحية على هذه الشئون . ولكنا ما كدنا نجلس ثلاثتنا فى عربة الرئيس ، حتى انفتحت شهية الجميع للكلام . وبدأ الرئيس بتعليق على ختام المسرحية ، وقال : « لماذا انتهت المسرحية بوفاة البطل ونقل جثمانه . وهو منظر ، فوق كآبته ، فإنه مرتبك ولا يبدو جميلا ، لقد كنت أفضل أن تختم المسرحية بطعن البطل وبكاء إبليس ، فهو متفق مع عنوان المسرحية ، وما بعده .. لا معنى له « فقلت له . « إن ما بعده يقال عنه بالأنجليزية (انتى كلايمكس) أى (انكسار القمة) ، فاستعاد هذه العبارة وسأل عن معناها . فقلت له . « الغريب أن ما تقترحه هو نفس المسرحية الأصلية ، ولكن المخرج رأى تعديل الحوادث ، ولم أرد أن أعارضه » . فقال عبد الناصر : « أنا أعتقد أن العمل المسرحى ملك المؤلف ، لا ملك المخرج ولا يجوز له أن يخرج ، بالنص عن أصله .. ولكن له أن يفسره كما هو » . ثم التفت إلى عبد الحكيم وقال : هل تعرف يا حكيم أن هذا هو العمل الفنى الثانى الذى أراه لفتحى رضوان ، فقد رأيت له من قبل

فيلم « مصطفى كامل » . فقال عبد الحكيم : « أنا شاهدته معك » فذكرتهما بأنهما رأياه فى حفلة خاصة بسينما (ريفولى) احتفالا بالعقيد الشيشيكلى . فقال عبد الناصر : « ليلتها .. أنا كنت طوال الفيلم خائفا على مصطفى ، ومشفقا من وفاته ، مع أنى أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة . هذا هو سحر العمل الفنى الجيد »

ثم التفت الىّ وقال : « اعمل فيلم آخر عن فريد » - يقصد المجاهد الوطنى محمد فريد - فأكملت له : « وعن عبد الله النديم » .. فتردد قليلا ثم قال : « أنتم عملتم مسلسلة ناجحة عنه فى الأذاعة .. أنا فاكر أداءها » . وكان الرئيس عبد الناصر قد قال لى ، فى مناسبة سابقة ، أنه يسهر مع الأذاعة حتى نهاية برنامجها مع « أم كلثوم » و « أضواء المدينة » اذا لم تكن الذاكرة قد خانتنى . ثم توقف قليلا وقال : « أنا عارف أن فتحى رضوان غير راضٍ عن طول حفلات (أم كلثوم) واستمرارها إلى الرابعة صباحا ، وكثرة ترديد المقطع الواحد ، عشرين مرة أو أكثر ، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد » . وقد عجبت - حقيقة - كيف عرف هذا الرأى . فقد حاولت أن أذكر متى سمع منى هذا الكلام ، ولم أستطع . ولكنه ضحك ، على طريقته التى اسميها (طريقة الرشف) ، وقال : « فى ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم فى نادى الضباط احتفالا بالملك حسين ، ولما خرجنا نوصله ، وكنت أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الأنصراف ، وعدد غير قليل منهم نائم تماما على مقعده .. لا يرضى أحدا . وكانت عيون



جمال عبد الناصر والملك حسين وسلسلة لقاءات ومناقشات حول القضايا القومية .

الملك حسين حمراء ، وكان يتمايل من شدة التعب .. وفى اليوم التالى بدأ الحديث تعليقا على الليلة ، فسمعتك تكلم أحدا على مقربة منى ووصل إلى سمعى كل هذا .. أنا معك .. ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف فى وجه التيار » . فقلت له : « ولكننا واقفون فى وجه التيار فعلا .. ألست تقيم السد العالى ؟ » . فقال : « السد العالى معلهش .. ولكن يأتى على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم . دع لهم وقتا يفرجون فيه على أنفسهم » . فقلت : « ولكن العمل الفنى ، فى كل مكان ، وسيلة لرفع معنوية الناس ، وتزويدهم بجرعة منعشة ، ومنشطة ، ومبهجة ، .. يخرجون ، بعدها ، أكثر أقبالا على الحياة .. ولكن حفلات الطرب عندنا (عملية تعذيب) .. ينام الناس فى اليوم التالى إلى الظهر . ويستيقظون يشكون من الصداع ، ووجوههم صفراء وشهيتهم مسدودة ، ومزاجهم عكر » . فقاطعنى الرئيس : « أنا معك .. معك .. ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيدا شهريا . وفى جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ، ويكونون ، فى اليوم التالى ، بالصورة التى تصفها » . فقلت له : « إن التكرار فى أغانينا أثره الذاتى والخلقى مدمر . أنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل » . فقال عبد الناصر : « لا تخف .. لن يستمر هذا كثيرا » . ثم توقف وقال : « بس أوعى تغضب أم كلثوم » . فضحكت وقلت : « لا سبيل لأغضابها » قال : « هذا حق » .

وفجأة تحول الحديث إلى السيد المسيح . فقد شاهد « عبد الحكيم » على المسرح شيئا يشبه « مهد الطفل » ، فقال متسائلا : « هل قصتك هذه ، هي قصة المسيح .. يعنى مأخوذة عن حياته ؟ » . فقلت له : « أطلاقا .. ولكن المخرج أضاف أشياء إلى المناظر ، أوحت إلى الجمهور بأن بطل المسرحية هو (المسيح) مع انقطاع الصلة بين مسرحيتي وحياة المسيح . ولكن هذا الأنطباع أقوى من تفسيرى وتكذيبى » .

وبدأ المشير يسألنى عن تفاصيل من حياة المسيح حتى أوصلنا الرئيس إلى بيته فى منشية البكرى ، ووقفنا بالعربة أمام بيتى فى مصر الجديدة نحو ربع ساعة يسألنى وأجيب ، وقد أبدى دهشته المفرطة من أن حياته لم تزد عن ثلاثين عاما . فقال : « عجيبة .. هل مات صغيرا إلى هذا الحد .. هذه أول مرة أسمع بذلك » .

وفى جلسة مجلس الوزراء التالية لهذه السهرة المسرحية ، عقد عبد الناصر – عليه رحمة الله – ندوة فنية ، سأل فيها الوزراء عن رأيهم فى مسرحية (دموع ابليس) وكان أكثر من نصف مجلس الوزراء قد شاهدوها ، فأثنوا عليها ، وكان « عبد الناصر » ظاهر السرور بهذه النتيجة . وكلما سمع ثناء عليها من أحد الوزراء نظر إلىّ متهللا وهو يقول : « ألم أقل لك » !! كأنى كنت أنكر ذلك . ولكن أحد الوزراء من أصدقائى أكتفى بالقول « بأن ختام المسرحية فاتر جدا » .

فعقب « عبد الناصر » بقوله : « ليس إلي هذا الحد ، ولكنني كنت أفضل أن يبقى النص على أصله » ! .

ولما أنتهت الجلسة ، ركبت مع ثلاثة من الوزراء سيارة واحدة فقال لى الوزير الذى تفضل بنقد المسرحية : « لقد قلت خوفا عليك من الحسد » ! فشكرته على هذه الروح الكريمة !!.

وقد حدث نقاش آخر في مجلس الوزراء حول عمل فنى آخر ، لم يكن من عملى ، ولكنه كان يتم تحت أشرافى وهو أوبريت (ياليل ياعين) . وقد اشتدت حملة عدد من الكتاب والأدباء والصحفيين على هذه المحاولة الجديدة ، إلى الحد الذى لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ القارىء فى صحيفة أو مجلة نقدا لهذا العمل الجديد . والعجيب أن هذا النقد الحاد ، والعنيف ، والمثابر ، كان يتم خلال أزمة تأميم قناة السويس .. ومع خطورة الموقف السياسى المصرى والدولي . فقد كان هؤلاء النقاد مصممين على مواصلة حملتهم ، والأعجب أن (أوبريت ياليل ياعين) كانت ، انذاك ، تحت الأعداد ، ولم نكن قد فرغنا من تهيئتها . فجاء « عبد الناصر » إلى مجلس الوزراء ، وقال لى فى عبارة جافة : « ونهاية الحملة دى ايه ؟ » . فقلت له : « هل هذا الكلام موجه لى ؟ » فقال : « طبعا » قلت : « هذا الكلام يجب أن يوجه إلى القائمين بالحملة.. أما أنا فلا أملك شيئا أفعله ». قال : « يمكن أن ترد عليهم » . قلت : « أرد على من .. وعلى ماذا ؟ . إن هؤلاء أشبه

شيء بأناس يتسورون منزلا ، وينقدون ما يجرى فيه مما لا حق للناس في أن يطلعوا عليه » . قال : « هذا تشبيه مع الفارق » . قلت بانفعال : « أى فارق . العمل الفني قبل أن يتم ، اسمه – بكل اللغات – تجارب ، بروفات ، بروفس .. فحينما ننتهى ، نسمع كلامهم على العين والرأس » . قال : « ولكن هذه الحملة تنالنى أنا أيضا ، فأنا مسئول عن كل الوزارات » . فقلت له : « يمكن لاحد غيرى أن يقوم بالرد . أما أنا فإن ردى سيكون العمل نفسه .. وأنا واثق من النتيجة « . فقال عبد الناصر :

« اذن .. رد ، وقل هذا الكلام » فأجبته بشيء من الجفاف : « أنا لن أرد .. ولن أقول شيئا » . فعقب عبد الناصر ممتعضا : « غريبة والله « !! .

ثم خرجت فرقة (ياليل ياعين) على الناس ، فأرضتهم إلى أبعد حد ، وكانت بداية باهرة للفن الشعبى والغنائى والتمثيل ، ولفن الرقص ، وأوحت بعشرات ومئات من الأفكار المماثلة والفرق التى نسجت على منوالها .. وحضر الرئيس عبد الناصر حفلة من حفلات هذه الفرقة ، وأبدى سعادته وسروره بها وأصبحت عروضها عرضا ثابتا فى جميع حفلات التحية والتكريم التى تقام لكبار الضيوف .

ولكنى لابد أن أقيم فاصلا بين هذا الكلام .. والكلام الذى يليه . لأننى بودى أن أحدث القارىء فى تصرف صدر من « عبد الناصر » ، وليس لدى ما أفسره به ، إلا أن أقول أن النفس الأنسانية ، أكثر ظواهر الكون غموضا ، وأشدها استعصاء على الفهم ، وأبعدها عن القوانين التى تحكم المادة ، وتحكم الكائنات الأخرى .

« فعبد الناصر « الذى رأيت شواهد عديدة على عظمته ، وقوة شخصيته وبعده عن الصغار ، رأيته فى الموقف الذى سأرويه الآن – على النقيض من هذا كله .. وجملة الأمر أننى حينما كنت فى موسكو ، فى شتاء سنة ١٩٥٧ ، على رأس وفد ثقافى ، الححت على وزير الثقافة السوفييتى أن يبعث الينا بفرقه (البولشوى) فى الربيع التالى . وجاء الرد من مدير (البولشوى) بأن الفرقة مرتبطة فى داخل الاتحاد السوفييتى وخارجه حتى مارس ١٩٥٨ وأنها لا تستطيع أن تحضر إلى مصر بعد هذا التاريخ لأن المستشار الثقافى فى السفارة السوفييتية قال لهم أنه لا يتحمل مسؤولية مجيء الفرقة فى شهر أبريل لأنه شهر « الخماسين » . فحرارة الجو فيه ، والعواصف الترابية .. وما تسببه من احتقان فى الحلق ، كل هذه مخاطر لا يحب أن يعرضها لها ، بل يجب أن يحذرها منه . فلما ألححت على الوزير الثقافة السوفييتى وقلت له أن عودتى بغير الحصول منه على وعد مؤكد بأنه سيرسل

(البولشــــوى) الينا ، تجعل رحلتى إلى الأتحـــاد السوفييتي فشلا كامـــلا . وكان قـد قـــام بيننا أثناء وجـــودى فى ضـــيافـتـه ود ، فأحس بأنه مدين لى بتحية يقدمـهــا ، فـأمســك التليفـــون وطلب مدير البولشــوى - وصــاح وأخذ يكرر كلمة « خمــاسين » ، قـائلا : « خماسين ، خماسين « .. ثم ألقى السـماعة بعنف ونظر الىّ .. وقال : « البولشوى ستكون عندكم فى أوائل ابريل من العام القادم على الرغم من الخماسين . خماسين .. خماسين .. ماذا تكون الخماسين هذه التى يخوفوننا منهــا ؟! » .

ولقد حمدت للوزير السوفييتى هذه الحماسة ، فى محاولة أرضائى . وحدث أن جاء لزيارة مصر ، فى نفس الوقت الذى وصلت فيه (فرقة البولشوى) إلى القاهرة فى يوم افتتاح موسمها ، ووقفت على خشبة مسرح الأويرا أرحب بالوزير ، وبفرقة البولشوى ، ثم عدت إلى مقصورة رئيس الجمهورية ، وما كدت أجلس على مقعـدى بجـواره حتى رأيتـه يتجه إلى (كيسيليف) سفير الأتحاد السوفييتى فى مصر فى ذلك الوقت وقـال : « ألـم أطلب اليك أن تحضــر فـرقـة البـولشـوى » فـأخذ الرجل ، وبدا عليه أنه لم يفهم ماذا يكون الأمر ، فقال : « البولشوى ؟ » فقـال مستفسرا : « أحضـر فرقة البـولشوى إلى مصـر ؟ » . وترجم السـؤال . فـاندفع الوزير السـوفـيـيتى من حيث لا يدرى أن أجابتـه ســــتغضب « عبد الناصر » - وقال ضاحكا : « لولا ضـــغط والحاح

(الجاسـبادين رد فـان) - أى « رضـوان المحـتـرم » - لما جـاء البولشوى إلى مـصـر فقاطعه « عبد الناصر » قائلا : « ولكننى اسأل السفير .. ألست أنا الذى طلبت حضور البولشوى .. وألم تعدنى أنت بمجيئها ؟ » .

وأدرك السفير بأن الأجابة بغير ما يريد « عبد الناصر » ستغضبه . فقال كلمتين للوزير السوفييتي بالروسية ، ثم قال: « بالتأكيد سيادتك طلبت ذلك . طلبت مـرارا » . وسـكت أنا ، وانتـقل الحديث إلى شيء أخـر . وأخـذت أنا اتأمل فى هذه الواقعة طويلا ، وأسائل نفسى : أيكون عبد الناصر برغم مكانته العالمية كلها - محتاجا إلى هذا الشرف الصغير ؟! شرف احضار فرقة رقص وغناء ، مهما بلغت من الأهمية والعظمة .. هو الذى يقيم الدنيا ويقعدها بقراراته المدوية .. يمكن أن يكون محتاجا لشيء كهذا ؟ .

ولم يوجه الىّ « عبد الناصر » كلمة واحدة طوال الحفلة . وحيانى ، بفتور عند الانصراف .

وفى اليوم التالى ظهرت صورة عبد الناصر فى المقصورة بالأوبرا ومعه السفير والوزير ، وعلى الرغم من أننى كنت أجلس إلى جواره ، إلا أننى لم أجد لنفسى وجودا . فـهل محيت صورتى .. وعقابا على أى شيء ؟! ..

لقد كتب الكاتب الفرنسي « فوشيه » أن عبد الناصر قد طالع - وهو لا يزال بالكلية الحربية - عددا من الكتب أورد بها قائمة في كتابه عن عبد الناصر .. ومن بينها كتاب « أرمسترونج » عن أتاتورك المعنون : « الذئب الأغبر » . وقد حدثني الأخ الأستاذ حلمي سلام أن « عبد الناصر » كان ذات يوم في زيارة له بمنزله ، فلما هم بالانصراف .. وقف أمام مكتبة الأستاذ حلمي ، ثم مد يده إلى كتاب « الذئب الأغبر » في نسخته المترجمة ، واستأذن في أخذه ليقرأه . ومعنى هذا أن قائمة الكتب التي وردت في كتاب « فوشيه » ، والتي أمليت له ، لم تكن تحوي الكتب التي قرأها جمال عبد الناصر فعلا ، بقدر ما كانت تحوي الكتب التي كان عبد الناصر يتمنى قراءتها .

ولست أعرف مدى قدرة عبد الناصر على القراءة بعد أن ولي شئون مصر وزادت أعباؤه ، وكبر مقامه . ولكن الذي استطيع أن اؤكده أنه كان حريصا أشد الحرص على تثقيف نفسه ، وتثقيف الضباط الذين من حوله ، وأنه كان صاحب فكرة ترجمة وتلخيص كتب ذات أهمية خاصة في السياسة والاقتصاد وطبعها على الآلة الكاتبة وتوزيعها بعد نسخها على (الرونيو) - على الضباط والوزراء . وهذه الكتب التي

كونت بعد ذلك سلسلة (اخترنا لك) ، والمتابع لهذه السلسلة يرى تنوع الموضوعات فيها ، وشدة اتصالها بمنطقة الشرق العربى ، وبتطور الأحداث السياسية الكبرى فى أيامنا ، وبالأفكار والمذاهب الأشتراكية . وأحسب أن بعض هذه الكتب كانت من بين ما قرأه عبد الناصر .ولكن المؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ الصحف الأوربية المحررة باللغة الانجليزية بنهم شديد ، وأنه كان حريصا على قراءة كل ما يكتب عنه فى صحف بريطانيا ، وأن لغته الأنجليزية تقدمت كثيرا بفضل مقابلاته مع الرجال من طراز « نهرو » و « سوكارنو » ممن يتكلمون الأنجليزية ، فضلا عن هذه الأفواج من الصحفيين ومراسلى الجرائد والسفراء والشخصيات البريطانية والأمريكية وغيرهم ممن كانوا يقابلونه ويتكلمون هذه اللغة .

وذات يوم كنا نتكلم عن الكتب التى تطبعها وتنشرها وزارة الارشاد القومى ثم وزارة الثقافة . وكنت أشكو من ضعف أقبال المصريين على اقتناء ومطالعة الكتب ، على الرغم من أن سلاسل وزارة الأرشاد القومى كانت بأقلام أكبر الكتاب المصريين . وكانت تباع بأرخص الأسعار بعد أن تعلن عنها الصحف الصباحية الأربعة (الأهرام – الأخبار – الجمهورية – الشعب) فضلا عن

المجلات والأذاعة فإننا لم نوزع من كتاب محرر بقلم العقاد أو طه حسين أكثر من ألفى نسخة . فقال عبد الناصر : « كتاب يقرؤه فرد واحد ، ينفع فالعبرة ليست بالكثرة ، فربما فرد يتأثر بالكتاب . ويكون هذا الفرد بمثابة ألف شخص » .

وكان هذا القول من أجمل ما سمعت من « عبد الناصر ».

ووجهت اليه مرة خطابا مفتوحا فى أحدى المجلات ، أدعوه فيه الى العناية بكتب التراث لاعادة طبعها ، مشروحة ومبوبة ومعلق عليها ومذيلة بالفهارس والتراجم ، لأن ذلك هو سبيل البعث الحقيقى لمصر . فجاء إلى مجلس الوزراء غاضبا للجوئى لهذا الأسلوب . وكأنه يقول : « وزير من وزرائى لا يجمل به أن يخاطبنى كأنه أحد الكتاب » . وقد أحسست بأنه محق إلى حد ما فى غضبه .. ولكنى قلت من قبيل المكابرة : « وأنا لم أوجهه إلى سيادتك لتقرأه » . فقال : « ولماذا توجهه الىّ » قلت . « لأثير الاهتمام بما فيه فيقرأه عدد كبير من الناس » . فرضى عن هذا التفسير وسكت .

***

ولقد كانت (السينما) هى احدى هوايات « عبد الناصر » المحببة اليه .. واذكر ، فى صدد السينما ، ثلاث ذكريات . أولاها – وقد كانت

صلتى به فى بدايتها المبكرة - يوم الفنا وزارة الثورة الأولى فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فقد كان حريصا على أن يتم تأليف الوزارة فى ذلك اليـــوم ، وكان يستبعد كل شيء من شــأنه أن يؤدى إلى تأجيل الوزارة ولو ليوم واحـــد . فلما اطمأن إلى أن الوزارة ألفــت ، قال - وهو يتنفس الصـــعداء .. حقيقة لا مجازا « الان استطيع أن اذهب إلى الســـينما .. تصـــور أننى لم أر فيلمـــا واحدا منذ شـــهرين » .

وعرفت يومها أن الحرمان من السينما لمدة شهرين ، هو عقاب شـــديد بالنسبة له ..

والذكـرى الثانية ، يوم حدثنى عن فيلم نســيت اسمه ، واسم بطله وكنت أرجح أنه الفيلم الرائع « أريد أن أعيش » الذى مثلته « سوزان هيوارد » . وقد قيل يومها أن بطلته صهيونية ، أو أنها ذات ميول صهيونية عبرت عنها صراحة ، أو شاركت فى نشاط مؤســسة الجباية اليهودية التى تمــول اسرائيل وتجمع لها التبرعات من يهود الولايات المتحدة .

وطالب بعضهم بمنع عرض الفيلم . ومنع الفيلم فعلا لمدة طويلة ثم قال لى عبد الناصر : « متى تفرج عن الفيلم ؟ » فســألته : « وهل هو



فى حفل رجال البوليس عام ١٩٦٥ يلتقى بالملحن محمد القصبجى .

فيلم جـــيد ، هل رأيته سـيادتك ؟ » فقال بحمـاس : « طبعــــا .. فيلم جـيد ، لاتسـمع كلام هؤلاء الأغبيـــاء » . وبعد تحـــريات قمت بها ، وجـــدت أن التهمـة الملحقة بالممثلة ، لا دلـيل عليها ، ورأيت الفيلم ، فوجدته عـملا فنيا ممتـازا لازلت أذكره ، وأذكر اللحظة التى سيقت فيها البطلة إلى غرفة الأختـنـاق بالغاز وهى تقول للقســـيس . « أبتاه .. أنى خائفة » .. ثم ردت على الجلاد حينما نصحها بأن تأخذ نفسا عميقا ، فإن ذلك يجعل الأمر أيسر فصاحت فى وجهه : « من أخبـــرك بذلك » ؟ .

ولست أنسى أننى حين أفرجت عن الفيلم ، تلقيت تهنئة خاصة من عبد الناصر على ذلك ..

والذكرى الثالثة كانت بالنســـبة لعبد النـاصر ، حرجا مفرطا . فـقد طلب المخرج السينمائى العالمى « سيـسل دى ميـل » بأن يقدم له تســـهيلات هائلة فى مصر عنـد اعادة اخـراجه الفـيـلم الضـخم (الوصـايا العشر) على أن يبـذل (سيسل دى ميل) جهودا خاصة لسرعة ادخال التليفزيون فى مصر .. ونفذ « عبـد الناصر » وعده . وتم اخراج الفيلم الذى يروى قصـة خروج بنى اسرائيل من مصر ، وعلى رأسهم موسى عليه السلام . وعبورهم البحر الأحمر . ولما عرض الفيلم

فى الولايات المتحدة ، ورآه العرب صاحوا : « إن هذه أكبر دعاية لبنى اسرائيل ، وأكبر دعاية ضد مصر ». فاضطر « عبد الناصر » لوقف عرض الفيلم فى مصر . فجاءه « سيسل دى ميل » محتجا وهو يقول : « إن الفيلم يروى احدى قصص القرآن ملتزما نصوص الكتاب الكريم غير محرف لها فى أى موضع ولا مضيف اليها حرفا » . وقال لى « عبد الناصر » : « هل عرض قصة قرآنية أمر يعاب ؟ » فقلت له : « أنا مع العرب ، إن اظهار شعب مصر – ولو من الاف السنين – فى صورة المضطهد للأقلية اليهودية ، واظهار فرعون مصر فى ثوب الطاغية ، يكسب قضية الصهيونية عطفا ، وعرضه الان ليس عملا فنيا بل هو عمل سياسى بحت » . وسكت عبد الناصر .

وقد بدت أثار مطالعات « عبد الناصر » فى مناقشاته مع بعض الوزراء .. ففى احدى الجلسات ، اشار « سيد مرعى » ، وزير الأصلاح الزراعى انذاك ، إلى كتاب لكاتب غربى ، ولخص بعض أفكاره . فأعترض « عبد الناصر » على هذا التلخيص ، وقال : « إن الرجل يقول فى كتابه نقيض ما تقول » . فقال الوزير : « هذا ما فهمته أنا » . فقال له الرئيس : « لابد أنك قرأته بالمقلوب » .

***

وقد أخبرنى أحد رؤساء الوزارات أن مناقشة حادة دارت بين « عبد الناصر » وبين أحد وزراء الاقتصاد . فقد كان الوزير يشكو من الضغوط التضخمية على الاقتصاد المصرى ، ويقترح لمواجهة هذه الضغوط سياسة اقتصادية انكماشية . وكانت العلاقة بين الرئيس والوزير سيئة فى تلك الفترة وقد خرج الوزير بعد هذه المناقشة من الوزارة . وقد أجاب عليه الرئيس : « ماذا حدث يا دكتور منذ سنة واحدة فقط ، كانوا خصوم سياستك يقولون أنها تؤدى إلى التضخم ، كنت أنت تنكر هذا بشدة .. فماذا جد ؟ » قال الوزير : « كان ذلك منذ أكثر من سنة » فقال الرئيس : « لا منذ سنة واحدة فقط . ولكن ، لنقل سنتين .. ما الذى تغير من سياستنا .. السياسة هى هى ، والأرقام هى هى .. وربما الإنفاق الحكومى أصبح أقل .. لا سأخبرك عن السبب .. أنت ذهبت إلى (المومس الفاضلة) .. وشرح الرئيس نفسه وقال . لقد قرأت كتابا لاقتصادى أمريكى كبير يقول فيه : أننا ننهى الدول النامية عن أن تقوم بالتنمية مع التضخم ، فى حين أن أمريكا تعانى من تضخم رهيب ، وتواصل التوسع فى اقتصادها ، فكأننا كالمومس الفاضلة التى

تمارس الرذيلة ، ثم تقف على باب دارها لتعظ الناس وتحذرهم من الرذيلة » .

وضحك الوزراء طويلا . وخرج الوزير بعد قليل من الوزارة .

ويومها قال بعض الوزراء : « إن ازدياد ثقافة الرئيس ليس من مصلحتنا في شيء » .

الفصل الحادى عشر

مجوهرات فاروق من الذى سرقها ووزعها على عشيقاته ؟

● لكم رددت نفسى عن أن اكتب هذا الفصل . لأنه يتعلق بى . ويدور حولى .. ولكم وددت . فى ذات الوقت ، ان اكتبه . لأنه صفحة من تاريخ بلادنا لا ينبغى أن يتجاوزها التسجيل . واذا كان هذا الفصل فيه هزل يدعو إلى الضحك أو الأبتسام . فما أحوجنا ، ونحن نروى التاريخ الصادق . أن نذكر هزله مع جده . وخفيفه مع ثقيله ، وغريبه مع مألوفه . فالتاريخ الأنسانى هو صورة الأنسان وصداه ، والأنسان – كما وصفه كتاب الله الكريم – جامع لمناقضات : خلقه الله بيده . ونفخ فيه من روحه . وسواه على صورته ، ولكنه خلقه من صلصال ، ومن حمأ مسنون . ومن ماء مهين .. فكان فيه اشراقة السماء ، وظلام الطين !

كان عزل الملك فاروق ، ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٢ ، حدثا خطيرا غاية الخطر فى الحياة الدولية . ذلك لأن الملكية المصرية . كما سبق القول أقدم الملكيات طرا . وقد استمرت – بلا أنقطاع – أربعة ألاف سنة ، ولأن موقع مصر ، واتصالها بأفريقيا وآسيا ، وبالعرب والمسلمين والمسيحيين واليهود .. ولجريان قناة السويس فيها ، ولاطلالها على البحرين العظيمين : الأحمر والأبيض . فإن كل ما يجرى على أرضها . ويحدث لرجالها . يعتبر ذا شأن عند الناس جميعا . ومن هنا ، فقد برزت شخصية الملك فاروق على الصفحات الأولى لكل جرائد العالم : شرقه ، وغربه .. قديمه وحديثه . وراحت الأقلام تكتب عنه ، وتحلل ، وتهتم ، وتدافع عن تاريخه ، وتتهكم . وتسخر .. ثم تثنى وتمدح . كل قلم على هواه . وكل صحيفة تبعا لمذهبها . !!

واخيرا .. رأى الملك فاروق أن يتولى بنفسه مهمة الدفاع عن نفسه . وأن يهاجم الثورة وكل من اتصل بها ، فلم يجد شخصا يجسد له هذه الثورة ، ويصلح هدفا لضرباته ، سواى ، فلم يكن « عبد الناصر » قد ظهر بعد ، وكان « نجيب » يبدو أنه لن يكون عدوا لأحد . وقد وجد الملك إلى جانبه ، فى تلك اللحظة ، كاتبا من كتاب التراجم ، والفصول السياسية ، اسمه (وارد برايس waard price) – وقد قرأت له كتابا جيدا بعنوان : « عرفت هؤلاء الطغاة » ، تحدث فيه عن « هتلر » و « موسولينى » . و « ستالين » حديث العارف بهم ، اذ قد زارهم . ووجه اليهم الأسئلة . وقرأ الكثير من الوثائق التى لا تتاح لغيره من الكتاب.

وقد كان (وارد برايس) هذا ، من كبار كتاب صحيفة بريطانية ذائعة الصيت هي (امبير نيوز - Empire news) أى انباء الأمبراطورية - وعلى الرغم من أنى كنت في أول الثورة مشرفا على النشاط الأذاعي والدعائي للثورة . فإنني لم أطلع على هذه الصحيفة .

● مفاجأة نصف الليل :

وفى ذات ليلة سمعت فى حديقة منزلى الصغيرة ، حركة ووقع أقدام لأشخاص كثيرين ، وصوت سيارة تقف فجأة أمام دارى ، فأفقت من النوم ، ونظرت إلى ساعتى ، فإذا نحن فى الثالثة بعد منتصف الليل !! وعلى الرغم من أنى من المتفائلين غير المطيرين . فإنى لم أجد تفسيرا لهذا الضجيج فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، إلا أن تكون الثورة قد انتكست وأن أقواما قد رأوا أن يقصدوا دارى . ولم يطل تفكيرى . فقد قمت من فراشى ، ورأيت نفسى هادئا ، وإذا بالباب يفتح ليدخل شاب لم يقع نظرى على وجهه من قبل ، ولم أستطع أن أقرأ على وجهه شيئا عن الدافع الذى حفزه إلى طرق بابى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وقد سكن كل الأحياء، وناموا ، ورأيت من ورائه جندى الحراسة المعين على باب دارى يحيي تحيته العسكرية . وأنا مستغرب ، كيف سمح الجندى لهذا الشاب أن يدخل بيتى ، ودون إذنى ، فى هذه الظروف الشاذة ؟ .

ولكنى لمحت وراء العسكرى ضابطا - وربما أكثر من ضابط -

فزاد الأمر تعقيدا عندى ، وأصبحت شديد الفضول لمعرفة كل هذه الألغاز .

لقد كانت زيارة متأخرة فى الليل البهيم . فى عهد ما قبل الثورة أمرا مألوفا ، ولا غرابة فيه بالنسبة لى . ولكن .. أن يأتى الطارق ، وأنا فى الوزارة . والحارس المخصص لحمايتى لا يرى فى ذلك ما يدعو إلى مؤاخذته ، ومن خلفه ضباط .. فهذا هو الذى لا عهد لى به ، والذى يحتاج منى إلى تفكير سريع لأعرف بالضبط موقفى من هذه المفاجأة الليلية .

وأخيرا تكلم الشاب . قال أنه لايعرف كيف يعتذر لى ، فقلت له : - وأنا بين الدهشة والضيق - « دعنا من الأعتذار. وقل ما الغرض من هذه الزيارة ؟ » . فقال : « سيادتك ستندهش اذا علمت هذا الغرض » فقلت له ، وأنا أكاد أفقد هدوء أعصابى وأخرج عن حلمى : « يا سيدى إنى مندهش بما فيه الكفاية ، ولست فى حاجة إلى مزيد من الدهشة . تكلم أرجوك » .

فقال : « أنا في الحقيقة فى غاية الخجل ، لأنى لا أعرف كيف أبدا الكلام » . عند هذه العبارة ، تصورت أن الأمر قد انجلى عنه كل الغموض ، ولست فى حاجة إلى الانتظار ، فلابد من أن ادخل إلى حجرتى لارتدى ثيابى وأذهب مع هذا الشاب ، والضباط الذين وقفوا خلفه أيا كانوا . فلا أحد يقتحم منزلا فى الساعة الثالثة صباحا ..

ويتعثر فى الكلام .. إلا أن يكون موظفا مكلفا بألقاء القبض على أى أنسان فى مثل هذه الساعة مما يحرج القائم به ، فإن حرجه سيزداد ولا شك اذا ما كان المطلوب القبض عليه رجلا فى السلطة

فقلت له : « لا داعى للاعتذار .. فأنا قد فهمت » .

فإذا بالشاب قد سرى عنه تماما . وقال . « اذن هم قد اتصلوا بك قبل مجيئنا » .

وتوقفت عن السير ، ونظرت اليه . وقد خيل إلىّ أن فى الأمرلبسا لا محالة . فقلت له فى صوت تشوبه حدة : « من هم ؟ »

فقال : « الأهرام » .

وشرد ذهنى . وخيل إلىّ أننى فى كابوس . فقلت له متسائلا : « الأهرام ! أى أهرام ؟! » .

فقال الشاب ، وهو لا يعرف كيف يجد الألفاظ التى تعينه على التعبير عن نفسه : « جريدة الأهرام » .

فاقتربت منه لاتأكد من سلامة عقله . وقلت له : « الأهرام تكلمنى الساعة الثالثة صباحا .. هل تجرؤ .. هل يعقل أن تفعل هذا .. هل حدث فى البلد شىء ؟ » .

فإذا بالشاب يرتبك – أو يزداد ارتباكا – أننى أوبخه وأقرعه . فقال : « لا .. كل شىء على ما يرام . وإنما نحن .. نحن الذين ارتكبنا هذه المخالفة ، ولكن ليس بأرادتنا .. فقد الزمنا الزاما .. » .

ولا اريد أن استنفد حلم القارىء أكثر مما فعلت ، فقد عرفت آخر الأمر أن « الأهرام » تلقت ملخص مقالة كاملة بقلم « صاحب الجلالة » (الملك فاروق) ، يهاجمني أنا بالذات ، وودت الجريدة أن تسبق غيرها ، وأن تنشر هذه المقالة ، فأبت سلطات الرقابة إلا أن أطلع عليها ، وأن أجيز نشرها ، وأن أرد عليها .

ولم تتردد الجريدة فى أن تنفذ أوامر الرقابة . ولكنها طلبت أن يصحب المحرر عدد من ضباط الحرس ليسمح الحارس الواقف على بابى بدخوله إلىّ ، ولاطمئن إلى أن المسألة ، مسألة تحرير ، وحديث ، ورد .. وأنها ليست مؤامرة وقعت بليل . وعلى ذلك قام الركب المكون من محرر الجريدة الشاب ، ومعه موظف من الرقابة ، وضابطان : أحدهما شاب ، وثانيهما فى منتصف العمر ، وجنديان ، واتجهوا إلى بيتى الذى اعتاد ، من قبل ، أن يستقبل أمثالهم كثيرا وشعرت فى هذه اللحظة بالهوان . اذ أن موظفا ما فى الرقابة ، بدا له أن هذا اجراء لازم من وجهة نظر أمن الدولة ، فلم يتردد فى أن ينفذ ما خطر على باله ، دون أن يحسب لراحتى أى حساب ، ولا لما قد يسببه هذا الاجراء لى من ازعاج !! .

***

ومد الشاب يده ومعه ورقة فيها ملخص المقال ، وترددت فى أن اخذ منه ما قدمه لى .. بل فكرت فى أن أطرد الجميع بغلظة . ولكن غلبت

عليّ طبيعتي . وقد لا يكون لى فضل . فإن فضولى كان قد بلغ أقصى درجاته . اذ لأول مرة فى تاريخى أدخل فى حوار صحفي مع ملك ، ومع الملك فاروق بالذات ، الذى عشنا سنوات نكتب ضده المقالات ، ونحاول ، ما استطعنا ، أن نصل إلى أغراضنا دون أن يقف القانون عائقا فى طريقنا . فأخذت المقال ، ولم أكن أتصور مطلقا أننى ساقرأ فيه ذلك الكلام الغريب ، والممتع ، الذى احتوى عليه .

● الملك يتكلم .. !

بدأ « جلالة الملك » مقاله بقوله : (إن الثورة أساءت الاختيار ، اذ اسندت إلى منصب وزير الدعاية ، لآفتين كبيرتين فيّ .. الآفة الأولى : أننى « شيوعى » .. والآفة الثانية : أننى ، كما يقول المصريون « رد سجون » يعنى : أننى ممن لا يخرجون من السجون إلا ليعودوا اليها . وإن الثورة التى تختار « شيوعيا » ليكون لسانها ، لا يمكن إلا أن تكون حمقاء ، لا تدرى خيرها من شرها اذ كيف تستقيم الأمور فى بلد يكون من وزرائه من هم أصحاب سوابق ؟! .. وأضاف الملك الأخير لمصر : « إننى لن أدخر وسعا فى نشر الشيوعية فى مصر وفى البلاد العربية » ، ولست أدرى ماذا قال الملك حينما أصبحت ، فيما بعد ، هدفا خاصا لحملات الشيوعيين فى مصر ، ولا سيما فى الفترة الأولى لشغلى منصب الوزير . وبطبيعة الحال ، فإن ما قصده الملك فاروق كان مجرد اثارة لمخاوف الغرب منى .. كأن دول الغرب أو الشرق

فى حاجة إلى معلومات من جلالة الملك . وكأن ادارات المخابرات بأجهزتها الحديثة الخارقة للمألوف ، واعتماداتها المالية الخرافية ومئات الألوف من أعوانها وعيونها المنبثين فى كل مكان ، لا تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أى شخص يلعب دورا فى السياسة ولو كان من ادوار « الكومبارس »!!

على أن المقال الثانى كان أكثر طرافة ، مما يدل على أن خيال الملك ، وكاتب مقالاته (وارد برايس) رأيا أن يزيدا الجرعة ، ليستثيرا نصيبا أكبر من اهتمام الناس فى مشارق الأرض ومغاربها . فقال « إن الشيوعى فتحى رضوان نسى شيوعيته ، حينما دخل القصور الملكية .. فرأى مجوهرات الملكة ، ومجوهرات شقيقات الملك وبناته ، من عقود وأقراط وخواتم و (بروشات) ، فقد اغترف منها إلى بيته أكواما وأكداسا » . ولكنى لم أوزعها على الفقراء ، كما كان يقضى على مذهبى ، ولم أعطها للدولة كما كانت تقضى الأمانة .. بل وزعتها على من ؟ على عشيقاتى اللاتى لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة من عمرها !! .

والحق أن هذا الكلام ، وأن كان كله خيال فى خيال ، فانه كان جديرا بأن يسعد وزيرا فقيرا لم يرهذه الأصناف الباهرة من الحلى ولو من بعيد . وما رآه منها كان من الحلى الزائف يسيل له لعاب الناس فى القديم والحديث . خصوصا إذا كانت بهذه المقادير التى تدير الرأس .

متعة أخرى يقتتل الناس فى سبيلها . ويحيكون المؤامرات والدسائس من أجلها . وهى أن يكون لهم (حريم) من الجميلات الكثيرات العدد . وصغيرات السن التى لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة !! ..

وفى المقال الثالث .. اتسع خيال الملك . وكاتب وحيه (وارد برايس) . فقالا أننى حينما علمت أن أفواج السياح ستتدفق فى حجرات وأبهاء القصور الملكية ، أسرعت فوضعت إلى جانب فراشه « كتبا جنسية » .. وزودت مكتبته « بصور شائنة » !! .

وفى المقال الرابع .. قال الملك أننى قدت مظاهرة بعد تولى الوزارة وذهبت بها إلى ميدان المحطة بالقاهرة حيث كان يقف تمثال لوالده فانهلت على شوارب الملك القديم فحطمتها . والحق أن الملك قد بلغ ، بهذا المقال بالذات ، أقصى حدود الجرأة . لأن كل من يقيم بالقاهرة يعلم أنه لم يكن للملك فؤاد فى يوم من الأيام - وحتى فى عهد الملك فاروق نفسه - تمثال بشوارب !! .

والطريف هنا .. أن بعض الذين لم يكن يعجبهم من الثورة ومن زعمائها العجب . ولا الصيام فى رجب . ضايقتهم مقالات فاروق ضدى إلى حد ان أحد زعماء السعديين - وكان نائبا ومحاميا كبيرا - جلس فى حجرة المحامين فى الزقازيق حيث يوجد عدد من أقاربى وأصدقائى وقال : « إن هذه المقالات هى من تأليفى أنا ، وأن الملك فاروق لم يكتب شيئا من هذا الكلام . وأن جريدة (امباير نيوز) جريدة لم يسمع بها

أحد » . وأهاج هذا الكلام غضب أحد ذوى قرابتى فتماسك مع النائب السعدى .. وكلاهما تجاوز الخمسين من عمره !! .

على أن (الملك فاروق) ، بعد هذه المقالات ، آثر الصمت . ولم يعد يكتب أو يقول شيئا . وانصرف إلى حياته الخاصة وإلى استثمار أمواله فى مشروعات مربحة . ولعله ندم اذ تبين أنه تعجل الحوادث ، وأنه كان يجب أن يدخر كلماته للشاب « جمال عبد الناصر » الذى سيسقط الملكية ، ويتعقب أفراد (أسرة محمد على) بما لم يخطر على بال .

الحق أنه لم يخلع ملك بثورة ، بالسهولة التى خلع بها الملك فاروق . ولا تفسير لهذا إلا أن الغرب ، من أنجليز وأمريكان ، كانت قد يئست تماما من اصلاح حال الملك . فقد وعدها كثيرا بأنه سيقصى من حاشيته ذوى السمعة السيئة ، وأنه سيدع فرصة لعناصر جديدة ونظيفة لكى تتولى الحكم فى بلاده ، وتقوم بتقديم المشورة له . ولكنه كان لا يخلو لنفسه ، حتى يعاوده الضعف أمام بطانته ذات التأثير البالغ عليه . فلم تر تلك الدوائر بدا من أن تدعه ليلقى مصيره . وكانوا قد ارسلوا اليه صديقه « عمرو باشا » – بطل « الاسكواش راكت » العالمى الذى كان الملك قد عينه سفيرا له فى لندن – وذهب اليه « عمرو باشا » فى مصيفه « بكابرى أو دوفيل » ونصحه بسرعة العودة الى مصر لأن الظروف فيها أسوأ مما يتصور » . وكان زعماء الأحزاب قد أعدوا عريضة ، ينبهوه فيها على سوء حكمه فى عبارات شديدة اللهجة ، لم

يألف زعماء الأحزاب فى مصر أن يستعملوها أو يستعملوا ما يشبهها في مخاطبة الملك بل فى مخاطبة أحد من كبار موظفى ديوانه ولكنه لم يعبأ بهذه النصيحة وأبدى دهشة من أن رياضيا عالميا كعمرو باشا يهتز لما يقوله الأنجليز الذين لا يعرفون ، طبيعة السياسة فى مصر !! .

والحق أن الملك لم يكن بعيدا عن الصواب كثيرا . فإنه عندما عاد . ومضت بضعة شهور على ثورة هؤلاء الزعماء واحتجاجهم ، حتى تعاونوا معه جميعا . تقريبا ، وألفوا الوزارات فى ظل حكمه . ولو تركوا لأنفسهم ، لبقى الحال على ما كان عليه ، ولكن « الحلبة » كان قد دخل اليها عنصر جديد لم يحسب الملك حسابه ، ذلك هو ظهور غضب شعبى يزداد مع الأيام تشكلا ، ويزداد جرأة ، مع ظهور تشكيل عسكرى على قدر من التنظيم والاستمرار .

وقد أدرك زعماء الغرب عندما تبينوا هذه الحقائق ، أن المراهنة على الملك ، فقدت كل مبرراتها . وكان هو نفسه يحس بذلك قبل ٢٣ يولية بشهور عديدة ، ويقول مازحا مزاح أكثره جد ، إنه ذاهب ، وأنه لن يبقى بعده من الملوك إلا « ملوك الكوتشينة الأربعة » !! .

على أنه يجب أن نذكر هنا حقيقتين : أولاهما ما سمعته نقلا عن المهندس أحمد عبده الشرباصى الذى عمل لسنوات طويلة وزيرا فى حكومات الثورة . رواية لما صرح له به الأستاذ مرتضى المراغى – وزير الداخلية فى آخر وزارة قبل الثورة مباشرة – وخلاصة هذا التصريح أن

الوزارة اتصلت بالسفارة البريطانية صبيحة ٢٣ يوليو ، وتداولت معها في الموقف الناجم عن ثورة الضباط ، وسألت الوزارة : « هل تنصح السفارة بمقاومة الضباط ، الأمر الذى كان ممكنا فى رأى الوزارة لوجود قوات مسلحة ذات قيمة موالية للدولة ، وإن مجرد ظهور بوادر هذه المقاومة سيحمل أكثر الذين انضموا إلى الثورة وآمنوا بها إلى الأنفضاض عنها » . فكان جواب السفارة : « إن رجلا لا يدافع عن نفسه لا يستحق أن يدافع عنه الآخرون » . ولذلك قررت الوزارة أن تنفض يدها منه .

وأذكر أننى استقبلت ، فى الأيام الأولى للثورة ، السكرتير المسئول عن شئون الدعاية والصحافة فى السفارة البريطانية - وكان قد جاء ليحتج على الحملات التى توجهها برامج الاذاعة الموجهة إلى الاستعمار فى أفريقيا ولا سيما فى غربها - وفيما نحن نتكلم ، دخل أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ، الذى سمع هذا السياسى البريطانى يقول : « لو أن بريطانيا كانت تود أن تقمع الثورة ، لكان ذلك من أيسر الأمور، فقد كان فى السويس ثمانون الف جندى بريطانى ، مع قوة طيران كبيرة . ولكنهم كانوا يتمنون للثورة النجاح ، بعد اليأس المتكرر من اصلاح حال فاروق » ! ..

● عشاء .. سجله التاريخ !

ولقد كف الناس عن الكلام عن الملك فاروق ، حتى توفاه الله فى ١٨

مارس ١٩٦٥ ، فى مطعم فى أيطاليا بعد عشاء سجله التاريخ فى كتاب الأمريكى (ميشيل سترن) المعنون : « فاروق ، فى كتاب لم يمر على الرقابة » . فقال عن هذا العشاء : « قد هاجم فاروق طبقا فيه اثنتى عشرة محارة من الصنف الكبير غارق فى مرقة (التابسكو) الشهيرة ، وقد أعانه على ابتلاع هذه الوجبة الضخمة زجاجة كاملةوضخمة حجمها ٣٢ أوقية من ماء « أفيان » ، ثم جاء دور فخدة خروف تساوى أربع وجبات كاملة من اللحم لأربعة رجال . مع البطاطس المحمر تيسر وصولها إلى بطنه بفضل زجاجة من الصودا إما الحلو فقد كان كومة من الصنف المعروف فى ايطاليا (الجبل الأبيض) أو (مونت بيانكو) والمكون من دقيق الكستناء (أبو فروة) المغلى فى اللبن والمخلوط بمحلول السكر ، والمحلى بالقشدة المضروبة المتوجة بالفاكهة ، وقد تبع ذلك زجاجتان من الحجم الصغير من الكوكاكولا . وتبعا للنظام الايطالى . أنهى الملك هذه الوجبة بعدد من البرتقالات ، ثم عدد آخر من زجاجات الكوكاكولا . وبعد هذا ، استحق فاروق - وكأنما هو فى سباق فى حلبة العدو ، ووصل إلى ختام السباق - أن يستريح . فقد اضطجع فى مقعده ، وأخرج من جيبه سيجارا ضخما من تبغ (هافانا) ثم أشعله ، وأخذ منه أنفاسا قليلة عميقة ، وأطلق حوله سحابة من الدخان ، وفجأة شملت عضلات وجهه مسحة من الجمود ، وقد تدحرج السيجار من فمه ، واتجهت رأسه إلى الخلف ، وحدقت عيناه تحديقا خفيفا فى سقف حجرة المطعم . ولما كان فاروق - غفر الله له - صاحب

مزاج خاص فى المزاح الثقيل ، فإن صاحبته تلك الليلة ، كانت واثقة من أنه يمزح . وعلقت على هذه الحركة تعليقا قصدت به المداعبة . ولما لم تسمع على تعليقها ردا مجلجلا كالعادة من صديقها النائم أو المتناوم . فقد كررت المداعبة ، وكانت مداعبة خفيفة هذه المرة ، ولكنها لم تسمع ردا أيضا ، ولما كانت رأس الملك قد اتجهت بعيدا إلى الخلف ، فإن الفتاة لم تستطع أن ترى وجهه فى هذه اللحظة ، لذلك تركت مكانها وذهبت إلى جواره ، وبنظرة واحدة ، أدركت الحقيقة . فصدرت عنها صرخة جاء على أثرها خادم المطعم (اليوبيرمانى) ومديره (ألبرتو ساردى) . كان الملك غائبا عن صوابه . يتنفس بصعوبة ، وقد تعاون الثلاثة فى رفعه عن مقعده وإنامته على منضدتين من مناضد المطعم مستلقيا على ظهره ، ثم فتح عامل المطعم سترة الملك وراح يدلك صدره عند موضع قلبه ، أما مدير المطعم فقد ذهب ليتصل بالإسعاف تليفونيا . وفى دقائق وصلت سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر . كما أقبل الدكتور (نيقولا ماسا) إلى الملك الغائب عن صوابه ، فتبين أن النبض ضعيف ، وأن تنفسه يجرى بصعوبة . وفى الحال ، ملأ الطبيب حقنة بسائل الكافور ، ثم طلب حملة النقالة ونقل « فاروق » إلى مستشفى (سان كاميليو) حيث وضع ، فى الحال فى خيمة أوكسجين لإنعاشه . ثم تقاطر عدد من الأطباء وأحاطوا به فى حين كان نبضه يزداد ضعفا .

وبعد عشرة دقائق .. وبالضبط في الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة من مساء ١٨ مارس ١٩٦٥ ، وفي تمام اليوم الخامس والثلاثين التالي لعيد ميلاده الخامس والأربعين ، لفظ فاروق أنفاسه .

***

بقي بعد ذلك ، أن نعرف أن هذا المطعم الذى شهد آخر لحظات الملك فاروق ، كان اسمه (أيزل فرانس) .. وهو مطعم متواضع فى طريق باريس - أورليان ، وقد استقبله المشرف على المطعم فى ترحيب حار ، وسأله عن صحته ، فقال : « ليست جيدة تماما » . أما صاحبته في تلك الليلة ، (أنا ماريا جاتى) - فهى سيدة منفصلة عن زوجها ، وأم لطفل في الخامسة من عمره .

وقد مضت وفاة الملك فاروق في ذلك اليوم بلا تعليق خاص عليها . فقد كان الملك يشكو من ضغط دم ، ومن اضطراب فى الكبد . ولكن - حينما ثار الحديث حول السموم في مصر ، وتعاطيها ، وقتل الناس بها ، وحينما كثرت الأقاويل ، والاتهامات ، والاختلافات ، والمبالغات ، والأكاذيب .. أصبح جائزا أن يعتبر كل من مات فى السنين الأخيرة ، أنما مات مقتولا بالسم .. انتحارا .. أو غدرا ، فقد نسب إلى كبير فى المخابرات المصرية قوله : « إن السم الذى ورد ذكره فى تحقيقات وفاة المشير عبد الحكيم عامر ، استعملته المخابرات في أحوال ثلاثة معروفة ، منها قتل الملك - فاروق » !! .

ماذا يساوى هذا الكلام .. ؟ وماذا كان دور (أنا ماريانى جاتى) إذا كان لهذا الكلام نصيب من الصحة ؟ .

أهو قول مفترى ؟ .. أو هو حقيقة ؟ .

التاريخ - إلى الآن - لا يعلم .. ولكن متى يعلم ؟ .

الله وحده هو العليم الخبير ..

الفصل الثانى عشر

أزمات صغيرة
ودسائس أصغر

● سلمنى سكرتير مكتبى ، بوصفى وزيرا للثقافة والا رشاد القومى مظروفا ضخما .. يحمل عنوانا كتب بخط عريض (رئاسة الجمهورية). ففضضته ، وأنا لا أتوقع أن اجد بداخله شيئاً مثيرا ، أو خطيرا . فما أكثر المظاريف التى يتلقاها الوزراء من (رئاسة الجمهورية) دون أن تتضمن سوى ما يقتضيه تصريف شئون الدولة من قرارات ، أو خطابات ، أو اخطارات ، أو تحويل شكاوى للوزير أو شكاوى ضد الوزير !! ولكن هذا المظروف كان يحمل (قرارا جمهوريا) باحالة الأستاذ صالح الشيتى وكيل دار الأوبرا إلى المعاش . وكان القرار ، بطبيعة الحال ، ممهورا بالامضاء الشهير « جمال

عبد الناصر » ، وما كدت افرغ من تلاوته ، والوقوف على فحواه ، حتى مـددت يدى إلى القلم الأحـمـر ، وكـتـبت عليـه بخطى الردىء (نظر .. ويحفظ) .

ولما كان سكرتيرى « محمد عقيفى » قد لازمنى سنوات قبل الوزارة، فـقد كـان منى بمثـابة الابن ، ومن هـنا ، لم اسـمـعـه يعـترض على شيء يصدر منى ، وكان خـجـولا .. وعصبيا .. تبدو عصبيته فى وجهه ، وفى اهتزاز رأسه في بعض الأحوال . ولكنى أحسست ، فى تلك اللحظة ، أن (عفيفى) يود أن يمسـك بيـدى ، ويمنعنى من كتـابة ما كتبت . ولكنه منع نفسه . فنظرت اليه متسـائلا : « مـاذا يا عـفـيفى ؟ » . فـقــال الشاب ، وهـو لا يكاد يجـد العبـارة التـى يمـكن أن يسـتـعملها فى هـذا الموقف ، دون أن تجرحنى أو تضايقنى . ثم تعبر عما يجـول بخاطره .. فتمتم . « سيادتك » ! .

فقلت : « نعم »

فعاد يتمتم : « قرار من رئيس الجـمـهورية » ! فقلت بصوت عال ، وكـأنى أود أن يسـمـع النـاس كلهم مـاذا أقـول : « أنا أعـرف أنه قـرار من رئيس الجمـهـورية ، ولانه قـرار من رئيس الجـمـهـورية ، فأنـى أعلق عليه هذا التعليق » .

وقال سكرتيرى كلاما مـعناه : « أن هذه التـأشيرة ليس لها إلا مـعنى واحد ، هو أنك تتحدى رئيس الجمهورية » .

فقلت له ، وكأنى أخاطب نفسى : « وما فائدة الناس من دخولى الوزارة ، اذا لم استطع أن اوقف قرارا جمهوريا ظالما .. كهذا القرار !! » .

وبعد قليل جدا من هذا الكلام .. دق جرس تليفون مكتبى ، فرفعته لاسمع صوت « على صبرى » ـ مدير مكتب رئيس الجمهورية ، فى ذلك الوقت ـ يقول بطريقته الهادئة . « لقد جاءك قرار من (الريس) ، فهل أطلعت عليه ؟ » .

فهممت أن اقول له : « قرأته وعلقت عليه بالنظر والحفظ » .. ولكننى رددت نفسى عن هذا القول ، وقلت : « لقد قرأته ، ولكننى لم أفهمه ، وقد كنت على وشك الآتصال بالرئيس لاسأله عن سبب هذا القرار » فقال ، على صبرى : « لقد اقحم هذا الموظف نفسه فى شئون الرئيس الخاصة ، وفى أمر يتعلق بحرم الرئيس ، وهو خطأ لا يجوز أن يصدر من موظف فى هذا المكان » .

وقد يحسن أن ندع جانبا – ولو مؤقتا – هذا الحوار ، لنروى الحكاية من بدايتها .

كان منصب مدير الأوبرا قد خلا بوفاة المرحوم «سليمان نجيب»، وقد تنافس على هذا المنصب المغرى عدد غير قليل من أهل الفن : موسيقيون ، ورسامون ، واداريون .

ولقد واظب الكاتب توفيق الحكيم ، ومعه صديقه القديم حسين فوزى

الذى كـان يشـغل ــ أنذاك ــ منصب وكـيل وزارة الثـقـافـة والارشـاد القومى ، على ترشيح وتزكيـة أحد موظفى وزارة التربية والتعليم لهذا المنصب . وكـان هذا الأخير تواقا إلى أن يشـغله ، فقد كان مـحبا لجو الأوبرا ، بل كـان مسـتـهـامـاً بهـذه الدار ، وبالحـركة فـيـهـا ، وببـريقـهـا الخـاطف للابصـار ، والمسيل للعاب . وانتـهى الأمـر بتعيين هذا الموظف فى الاوبرا . وكـان فـيـهـا عدد من كـبـار وصـغـار الموظفين ، استـمـروا يشغلون وظائفهم فى هذه الدار . ويعرفون مداخل العمل فيها ومخارجه ، حتى أصبحوا لا يطيقون أن يقتحم عليهم « حرمـهم المقدس » دخيل أو غـريب !! ، ولهـذا ، انقسم الموظفـون فى الدار ــ بالنسـبـة لقدوم المدير الجديد ــ إلى معسكرين . واستطاع هذا المدير أن يعقد صلات جيدة بالعسكريين فى مكتب الرئيس جمال ، فقد واظبوا على الاتصال بى من أجله ، والتـوصية عليه . فكنت أظهـر لهم نفورا شديدا عند سـماع هذه التوصيات ، كراهية منى لهذا الأسلوب الذى يفسد الموظفين ، ويفسد العمل الذى يباشرونه .

وذات يوم ــ أبدت السيدة حرم الرئيس « عبد الناصر » ، رحمه الله ، رغبـة فى أن تشـهـد شيـئـا مـا فـى احدى السـهـرات بالأوبرا . فـاتصل اصدقاء المدير الجديد من العسكريين فى مكتب الرئيس به ، واطلعوه على هذه الرغبة ، فأخـفاها عن جميع الموظفين ليستـأثر بهذا الشرف ، وليمنع منافسة وكيل دار الأوبرا (الأسـتـاذ صـالح الشيتى) من المشـاركة فيه ، والمثول بين يدى السيدة حرم رئيس الجمهورية عند تشريفها الدار .

وكان نظام العمل فى دار الأوبرا يقضي بأن يكون وكيل الأوبرا هو المسئول عن الأمن فيها ــ وهو ، بهذه المناسبة ، يحمل مفاتيح مقصورتى رئيس الجمهورية وحرم رئيس الجمهورية ، (وهما المقصورتان اللتان كان يشغلهما قبل الثورة الملك والملكة) ولكن « الأخبار الخطيرة » لا يمكن كتمها ، اذ أن هناك « مسالك » تتسرب منها تلك « الأخبار » ، للمنافسات والخصومات ، وحرص الموظفون على المباهاة بما يصل إلى علمهم من الأسرار مما يرفع قدرهم ، ويظهر للناس خطرهم !! ومن هنا ، فقد عرف وكيل الأوبرا بخبر تشريف حرم الرئيس الأوبرا قبل مجيئها بوقت قليل ، فتحدث بهذا إلى صحفى فى « الأهرام » مشتغل بالفنون ونقدها ، (المرحوم عثمان العنتبلى) شاكيا من محاولة تخطيه فى مناسبة هامة تلقى عليه فيها أنظمة العمل مهاما محددة ، اذ عليه أن يتأكد من صلاحية المقصورة الخاصة بحرم الرئيس لاستقبالها ، بحيث اذا أصابها مكروه ، أو كانت المقصورة غير لائقة ، حوسب على ذلك ، بل وعوقب ايضاً .

والظاهر أن الرجل كان يتكلم من تليفون متصل بخطوط تليفونات الأوبرا . فأمكن التسمع عليه . ونقلت هذه المكالمة إلى المدير الذى نقلها ، بدوره إلى اصدقائه العسكريين فى مكتب الرئيس ، الذين نقلوها إلى الرئيس ذاته ، وحوروها له فى أقبح صورة ، فغلى الدم فى رأسه ، واعتبر أن كرامة السيدة حرمه قد مست ، اذ أقحم اسمها فى مكالمة تليفونية بين موظف وصحفى ، مقرونا بنقد اساليب الرياسة بالموظفين

المختصين . فكان أن أمر الرئيس باعداد « قرار جمهورى » باحالة وكيل الأوبرا إلى المعاش ، وتسلمت القرار ، وعرفت المقدمات التى أدت اليه .. عرفت أيضاً « الدسيسة الصغيرة » التى أقترنت به ، فكان لى رأى مخالف تماما .

ثم ..

نعود إلى الحوار الذى دار بيني وبين « على صبرى » .

قال : إن الرئيس حر فى شئون زوجته . تتصل فى تنقلاتها بمن تشاء وتتحاشى الاتصال بمن لا تود الاتصال به » .

فقلت له على الفور : « ليس هذا صحيحا ، فحرم الرئيس « عبد الناصر » حينما تنتقل من مكان إلى مكان ، تنتقل بوصفها « حرم رئيس الجمهورية » . فإذا كان انتقالها إلى دار رسمية كدار الأوبرا ، لتشغل مكانا رسميا ، كمقصورة رئيس الجمهورية ، وكان لهذه المقصورة أمين مسئول عنها ، ويحمل مفتاحا خاصا بها ، فالواجب الأتصال بهذا الموظف ، لا برئيسه ، أو بهما معا على الأقل . فإذا كنا لا نثق به . أو لا نطمئن اليه ، ننقله من مكانه ، أو نعزله تماما اذا كان المنسوب اليه يلقى ظلالا على امانته . والمدير الذى أخفى على وكيله نبأ زيارة حرم رئيس الجمهورية لم يفعل ذلك حرصا على راحتها ، بل مكايدة لوكيله ، ومثل هذه الروح لا يجب أن تجد منا تشجيعا » .

فقال على صبرى : « وهل يليق أن يتحدث هذا الوكيل فى التليفون

مع صحفى في شأن زيارة حرم رئيس الجمهورية . وكأنها ارتكبت خطأ ، وأنت تعرف ما يضيفه خيال الناس إلى مثل هذا التصرف اذا ذكروا أن الزيارة ستتم سرا » .

فقلت له : « ومن قال لنا أن هذه المكالمة قد جرت أولا .. ومع هذا الصحفى ثانيا .. وبهذه العبارات ثالثا ؟ » .

فقال على صبرى : « مدير الأوبرا سمعها بأذنه » .

فصحت : « آه كيف عرف أنها جرت ، حتى استطاع أن يسمعها » .

فقال : هل نحن سنحقق .. هو قال أنه سمعها .. وهذا يكفى .

فقلت : « انه يكفى تماما .. ولكن ، لطرد هذا المدير ، على الأقل ، من مكانه » .

فقال على صبرى : « هل سنقلب الوضع ؟ » .

فقلت له : « بل أنى سأصححه .. هذا الموظف الذى يجترىء على القول بأنه تسمع مكالمات مرءوسيه ، وبدون جريمة ترتكب ، يسجل على نفسه خطأ صريحا لا يجوز أن نغمض العين عنه » . والى هنا .. وكان صبر ، على صبرى ، قد نفد . فقال : « والخلاصة .. ماذا أقول للرئيس ؟. فأجبته : « لا تقل له شيئا » .

فصرخ : « كيف لا أقول له شيئا . وقد أصدر قرارا جمهوريا ؟ » .

فقلت له بهدوء : « قل له أن هذه المسألة أصلا من اختصاصى أنا ، وكان يجب أن يترك لى أمر التصرف فيها كيفما اشاء ، ومراعيا كل

الاعتبارات ، بما فيها رغبة السيدة حرم الرئيس . ثانيا ، اؤكد لك أن كل مانقـل إلى الرئيس لم يكن على الأقل دقيقـا . وثالثـا ، فليعلم الرئيس أن حـرص وكيـل الأوبرا على أن يـكون فى شـرف استـقبـال حـرمـه مصـدره حبـه للرئيس نفسـه ، وهو شـعور لا يجوز أن يقـابل بطرد صـاحبه من وظيفته » .

فقال على صبرى متسائلا : « والنتيجة ؟ » .

فقلت : « والنتيجة أننى لن انفذ قرار رئيس الجمهورية ، وأنا مستعد أن ارده اليكم ، وكأنه لم يصدر » .

فقل : « وهل ابلغ ذلك للرئيس ؟ » .

فـقلت : « افـعـل ما تشـاء » .. وبعد قليـل ، قلت له : « ولم لا ؟ .. قل لـه ذلك » .

أذكر أن ذلك كله كان قد جرى فى يوم من الايام شـهـر رمضـان ، وكنت مـدعـوا إلـى تناول الإفطار ، فى نـادى بنك مـصـر تكريما لرئيس محكمة استئناف القاهرة بمناسبة بلوغه سن المعاش ، أى انتهاء خدمته ، وفيمـا أنا اتنـاول طعـام الأفطـار . جاء من اخبرنى أن السيـد زكريا محيى الدين على التليفون . فذهبت وأنا مطمئن إلى أن هذه المكالمة بشـأن « حادث الأوبرا » . وصدق حدسى . فقد قال لى (زكريا) : « ما الذى فعلته .. هل صحيح أنك قلت (لعلى صبرى) أنك لن تنفـذ قـرار الريس ؟ » . فـقلت له : « لقـد قلت ذلك بعد مقدمـة طويلة ، كان لابد أن يسمـعها الرئيس لكيلا يقوم فى اعتـقاده أنهـا مسـألة رفض لقراره .. لمجرد الرفض » .

فقال : « انه عرف بعضها منها . فما هى المقدمة ؟ » فأعدتها . فقال : وما المخرج من هذا المأزق ؟» . قلت : سأنتدب وكيل الأوبرا لمكان آخر ، وسأنتدب فى نفس الوقت مدير الأوبرا خارج الأوبرا » . فأبدى (زكريا) رغبته فى أن ادع المدير فى مكانه .

فقلت له : « لا .. لايمكن .. » . فقال (زكريا) وهو يضحك : « طيب .. ربنا يسهل » .

وتم ذلك .. ولم ينفذ قرار احالة وكيل الأوبرا إلى المعاش . وبقى فى عمله .

ولكن هذه الأزمة ــ أو « الدسيسة الصغيرة » ــ لم تكد تنتهى حتى بدأنا فى أزمة أخرى أو « دسيسة » أصغر منها .

فقد اتصل بى يوما مدير الأذاعة ، واخبرنى بأن فى مكتبه ضابطا كبيرا من ضباط الطيران ، جاء موفدا من مكتب السيد الرئيس ليتسلم الأدارة الهندسية بالأذاعة . والأدارة الهندسية بالأذاعة ، هى عصب العمل الأذاعى ، وبقدر كفاية العاملين فيها ، وحسن ادراكهم لواجباتهم ، ومتابعتهم للجديد فى حقل عملهم ، تكون الأذاعة مؤثرة وناجحة . اذ ما النفع من خطاب سياسى جيد ، لا يسمع إلا فى نطاق ضيق ، أو لا يسمع إلا مخلوطاً وممزوجا بالطفيليات الصوتية . ولم تكن العلاقة بين مدير الأذاعة ، وبين كبير مهندسيها حسنة دائما ، لذلك ما كدت اسمع الخبر ، حتى شممت ــ كما يقول الأنجليز ــ (رائحة فأر ميت) للمدير :

« عجبا ، كيف يتولى ضابط طيار ، أو أى انسان آخر ، هندسة الأذاعة، ومدير هذا القســم لم يعزل بعد ، وهو بحمد الله حى يرزق ؟! » . فقال : « والله مـا على الرسول إلا البـلاغ .. » . فـقلت : « ارسله الىّ فـورا » . فقال : « يعنى لا اسلمه المكتب » . فقلت بشىء من العصبية : « أى مكتب الذى تسـأل عنه .. أنت رجل قانون ، فكيف يتولى شخصـان ادارة عمل واحد ؟ ! ارسله الىّ ولا تشغل بالك » .

وبعـد قليل كـان فى مكتـبى ضابط فـى سـلاح الطيـران برتبة لواء أو عميـد ، تبينت من الحديث أنه حسن الاطلاع على اللغة الانجليزية ، بل انه يتـقنهـا . وقـد د س فى حـديثـه معى اسـمـاء من كبـار الشـخـصـيـات البريطانية السياسية منها « مستر ايدن » وزير الخارجية ، باعتبارهم من معارفه أو اصدقائه . ولم أفهم ، أول الأمر ، ما الحكاية ؟ ! .

وقد ظننت ، بادىء ذى بدء ، أن هذا الحديث « المتوبل » بالانجليزية حـينا ، وبالاشـارات الكثـيرة إلى شــخـصـيـات ذات شـأن على المسـرح الدولى ، انما يراد به التأثير على مـعنويتى . ولكنى عرفت ، فيمـا بعد ، إن هذا هو الأسلوب هذا الضابط الزائر ، ولا شأن له بالمناسبة التى جاء من أجلها .

ثم سـألته : « ما الموضوع بالضبط ؟ » فـقال إنه تلقى أمـراً مباشراً من السـيـد « على صـبـرى » .. مـؤداه أن أذهب إلى الإذاعـة ، وأتولى الشئون الهندسية فيـها ، بناء على رغبة السيد رئيس الجمـهورية . فقد

كان فى استراحة برج العرب الواقعة فى غرب الأسكندرية ، فلاحظ أن بعض الاذاعات المصرية الموجهة إلى الخارج ، والمذاعة على الموجات القصيرة ، يصيبها ما يسمى بالإنجليزية (Fading) ، أى (تضاؤل).. أو (تناقص) ، بحيث يأتى وقت ، لاتسمع فيه مطلقا . فضايقه ذلك ، أى أن مصر تعلق أهمية كبيرة على هذه الاذاعات ، فإذا كانت لاتسمع جيدا داخل مصر ، كان معنى ذلك أن ما ينفق على هذه الإذاعات من الجهد والمال ضائع تماما . وقد رؤى أن يعهد إلى المختصين فى اللاسلكى بسلاح الطيران لمعالجة ذلك .

فقلت له : « ولكن .. هل معنى ذلك أن تتولى ادارة الهندسة الاذاعية ؟ » . فقال مبديا بعض الدهشة : « اذن ماذا يكون معناه ؟ » . قلت : « معناه ، أن سيادتك فى مكتبك بسلاح الطيران ، تطلب من تشاء من الفنيين بالاذاعة ، وماتشاء من المعلومات ، فإذا تبينت أن هناك تقصيرا من الأشخاص أطلعتنا عليه لمعالجته . وإن كان ثمة عيب فى الأجهزة اصلحناه ، واذا كان الأمر مرده ظاهرة طبيعية لاعلاج لها ، قررت ذلك » .

فقال : « ولكن أنا لم أذهب إلى الاذاعة من تلقاء نفسى ، ولم اطلب تولى ادارتها الهندسية وانما أنا أمرت بذلك » .

فقلت له : « دع سيادتك ما طلب منك ، فقد كان ماطلب منك خطأ صريحا . ونحن الان فى أشد الحاجة إلى معونتك ، ونشكرك عليها مقدما » .

فعاد يقول : « ولكن هل هؤلاء الذين ارسلونى إلى الاذاعة ، لم يكونوا يعرفون ماهو الصحيح وماهو الخطأ . لماذا يضعوننى فى هذا الموضع الحرج ؟ » .

قلت : « انهم لم يضعوك فى أى موضع حرج ، فقد احسنوا الظن بكفايتك الفنية ، وأرادوا أن ينفعوا الأذاعة بها ، ونحن مثلهم نرحب بهذه الكفاية . فأنت قد وضعت فى أحسن وضع . خبير من طراز ممتاز ، رشحك مدير مكتب الرئيس للوزير المختص الذى يرحب بك . فما هو الحرج ؟ » .

فقال الضابط الطيار : « اذن اعود ادراجى من حيث جئت » .

فقلت مسرعا : « بل بالعكس تبقى معنا ، وأنا مستعد أن أهيئ لك مكتبا بجوارى تباشر فيه دراستك ، وتأتى اليك فيه المعلومات والخرائط ، والتقارير وكل ماتطلبه » .

فعاد يسأل : « هنا .. فى الوزارة ؟ » .. فقلت بحسم : « نعم ، وبعيدا عن الاذاعة ، ولكننا سنضع تحت أمرك كل ما يلزم لاداء مهمتك . وسنحتاج بطبيعة الحال إلى خطاب من مكتب رئيس الجمهورية ليحدد لنا المطلوب ، مذكورا فيه اسم سيادتك صراحة » .

وهنا .. بدا على « الضيف » فتور شديد . وقال : « لا .. لا .. خطاب ولاحاجة .. أنا سأعود إلى مكانى .. وليبعثوا اليكم بغيرى ان شاءوا » .

فقلت : « لا .. لا .. نحن مصممون على الانتفاع بعلمك وخبرتك . وحينما يصلنى خطاب الرياسة سأكون سعيدا باستقبالك فى مكتبى ثانية » .

وانصرف الرجل ، وبعد نصف ساعة سألني مدير الاذاعة : « ماالذى انتهى اليه أمر القائد الطيار ؟ » فقلت له : « انصرف فى انتظار خطاب يأتينا من الرياسة .. ولاأظن أننا سنلقى خطابا من هذا القبيل » .

وتحقق ماظننت .. وانتهت هذه الحكاية تماما .

أما « الدسيسة الثالثة » .. فقد كانت ، فى حقيقتها ، (فقاعة) - ولكنها مالبثت أن كبرت ، وتضخمت ، حتى بدت « أزمة دستورية » ، شغلت الصحف ، والهمت الأقلام ، أو الهبتها ، وكانت حديث الناس زمنا ، فى وقت افتقد فيه قراء الصحف الحملات الصحفية الحادة ، التى كانت تجدد حياتهم ، وتبعث الدم حارا فى عروقهم .. وجملة القول فى هذه (الفقاعة) ونشأتها ، أن اثنين من المشتغلين بالصحافة والنشر والاذاعة ، كانت تربطنى بهما علاقة قديمة ، بدا لهما أن يخرجا لهما مجلة ، وأن ينشرا فيها برامج الاذاعة كاملة نقلا عن هيئة الإذاعة ، وسبقا لمجلتها ، وليقضيا على هذه المجلة ، التى كانت البرامج الاذاعية أهم عناصر ما تكتبه وتنشره على الناس . ولم يكن فى هذه المحاولة من بأس لولا أنه كان للدولة - لا فى مصر وحدها ، بل فى مصر وبريطانيا - رأى مستقر يجعل من برامج الاذاعة الكاملة التفصيلية وقفا ، أو حكرا ، « لمجلة الاذاعة » التى تنشرها عن هيئة الاذاعة انتفاعا بدخل المجلة فى تحسين موضوعاتها ، ومادتها فى اذاعة الثقافة .

وقد قضت الصدفة ، أن يكون لى قبل ذلك دور فى هذا الموضوع ، قبل أن أتولى أمر الاذاعة بتولى وزارة الثقافة والإرشاد القومى . فقد

لجأ إليّ أحد العاملين فى حقل الصحافة لاعينه على الحصول على برامج اذاعة مصر لانه بسبيل اصدار مجلة تنشر جميع برامج الاذاعة التى توجه اذاعاتها إلى الشرق العربى . وقد تيسر له ، بدون عناء الحصول على جميع هذه البرامج . فلما جاء دور الاذاعة المصرية وبرامجها ، اصطدم بأن هناك أمرا صادرا من « الحاكم العسكرى » يمنع نشر برامج اذاعة مصر إلا فى مجلتها ، فقال لى « هل يعقل أن أصدر مجلة تنشر جميع الاذاعات العربية والأجنبية التى تعمل فى الشرق العربى ، ولا أنشر برنامج الأذاعة الأولى فى المنطقة ، وهى اذاعة بلدى التى انتمى اليها واعمل لها ؟ » . .

فكلمت فى هذا الشأن الرئيس « عبد الناصر » . فقال هذا « الأمر العسكرى » صدر بناء على طلب وزير الارشاد القومى « صلاح سالم » الذى قال أن المجلة فى حاجة إلى دعم لتحسن مستواها بما تحصل عليه من ايراد التوزيع ثم كلمت المرحوم « صلاح سالم » واقترحت عليه أن يعدل « الأمر العسكرى » بحيث يكون نشر برامج الإذاعة المصرية ممكنا بعد نشرها فى مجلة هيئة الإذاعة المصرية بيومين مثلا ، ولكن صلاح سالم رفض هذا الاقتراح . وقال أن مراقبة تنفيذ الأمر على هذا الوجه ، لن تكون بالأمر الهين . فى حين أن المنع البات يحسم الأمور . وانتهت المسألة عند هذا الحد .

فلما تجددت المحاولة . لم تكن مجرد رغبة فى نشر برامج الاذاعة المصرية كما كان القصد فى المحاولة السابقة ، بل كانت مكايدة صريحة

« لمجلة الأذاعة » التى أشرف عليها . وكانت ادارة هذه « المجلة » قد الحقت باختصاص الوزير في عهد المرحوم « صلاح سالم » . كانت دوائر الاذاعة غاضبة لسلخ المجلة من سلطتها .. ومن هنا وجدت هذه المحاولة الجديدة كل تشجيع من موظفى الاذاعة . وفي هذه الفترة ، أو بعدها بقليل ، قدم لى « الأستاذ فؤاد دواره » كتابا يتناول بالدراسة الفنية والتحليلية الاذاعة البريطانية وتاريخها ، وتأثيرها ، إلي آخر مايتصل بها . واطلعني على فصل طريف ، يروى كيف أن الحكومة البريطانية اتفقت مع رؤساء تحرير الصحف فى بريطانيا على أن يتركوا لمجلة « المستمع - لسنر » التى تصدرها هيئة الاذاعة البريطانية ماتذيعه هذه الهيئة من دراسات ادبية وتاريخية . وقد قبلوا ذلك متصورين أن هذه المجلة لن تروج ، وأن الاقبال على مطالعة البرامج الثقافية لن يكون عظيما . لكنهم فوجئوا بنجاح المجلة ، وبتزايد المبيع منها شهرا بعد شهر . فأسفوا على هذه الموافقة التى صدرت منهم على عجل . فلما دعاهم « مستر تشرشل » - وهو على رأس الوزارة البريطانية - وعرض عليهم أن يتركوا لمجلة الاذاعة البريطانية نشر برامجها التفصيلية وأن يكتفوا بنشر رءوس الموضوعات فى الصحف اليومية ، رفضوا هذا الطلب ، ولكنه صمم عليه ، واستطاع بقوة شخصيته أن يقنعهم بقبوله . وعندها زال كل تردد من جانبى فى أن أصدر تشريعا يحدد علاقة الاذاعة بالمتحدثين والمحاضرين والفنانين ، وينظم بالتالى حق نشر هذه البرامج مع مجلة الاذاعة بحيث يضمن لها السبق ، ويبقى على احتكارها البرامج المفضلة .

وتلقف خصومى هذا المشروع بفرحة شديدة ، فقد اعتبروه خروجا على الدستور ، ومساسا بحقوق الصحفيين ، وتحديا لحرية الرأى . وافردت لهذا الموضوع المقالات الطويلة والعريضة ، ولاأنسى أن واحدا منها كان بقلم المرحوم « سامى داوود » الذى اختار لمقاله عنوانا طريفا هو « دستورك ياوزيرالارشاد » .

اتصل بى عدد من الصحفيين الذين كانوا يريدون أن يفهموا الموضوع ، فاستولت عليهم الدهشة حينما علموا أن التشريع الذى اقترحته ، ليس تشريعا جديدا بل آنه تشريع قائم فعلا ، ولكن بدلا من أن يستعان فى هذا التشريع بالاداة الطبيعية – وهى القانون – استعين بالادارة الاستثنائية وهى « الأمرالعسكرى » الذى يستند إلى الحكم العرفى ، وأن هذا الأمر العسكرى صادر من الرئيس « عبد الناصر » من سنين ، وكان قائما إلى أيام مضت . ولم يجرؤ احد من الصحفيين الذين يصرخون الآن يشير اليه بحرف حتى بعد الغاء الأحكام العرفية

ثم رويت لهم ماحدث فى بريطانيا ، الموصوفة عندهم بأنها أعرق الدول الدستورية ، فعقب احدهم على كل هذا : « نقبل أن تكون الاذاعة كلها حكرا للدولة ، ونغضب من احتكار الدولة لنشر برامج هذه الأذاعة نفسها .. هذا عبث !! » .

ولكن الحملة الصحفية استمرت .. فلما عرض القانون ، أو مشروع القانون على مجلس الوزراء . قال لى « عبد الناصر » : « الن تسحب

هـذا المشروع ؟ » . فقلت :« لا » فقال : « وما ضرورته ؟ » . فأجبت : « ضرورته سيادتك اقتنعت بها ، حين اصدرت بها امرا عسكريا » . فقال : « ولكن الأحكام العرفية ألغيت » – وكانت قد الغيت لفترة قصيرة – فقلت له : « الذى تغير هو اداة التشريع ، انما بعض التشريعات العسكرية تحقق للدولة مصالح مدنية ، فلا تلغى بالغاء الأحكام العرفية » . قال : « لكن من مصلحتنا أن تنشر برامج الاذاعة المصرية » .. قلت له : « ولكن سيادتك رفضت هذه الحجة من شهرين فقط ، وقد كنت تدافع عن المبدأ من حيث هو » فقال : « وما الحاجة إلى تشريع والبرامج ملك الإذاعة ، وموظفو الإذاعة يتبعونك ، ولك أن تأمرهم بعدم إعطاء البرامج لغير المجلة » . فأجبته : « أن قانون الموظفين ملىء بالتعليمات . والقيود والتوجيهات التى كان يمكن أن يكتفى فيها بالاوامر الادارية ، ولكن اضفاء (صفة القانون) على بعض الأوامر الادارية ، تقتضيه المصلحة العامة ، أحيانا ، حتى لا تخضع هذه التوجيهات الادارية للتقلبات بتقلب الوزراء . وقد تتسرب البرامج ، وتضيع المسئولية بين عشرات الموظفين » .

أجل البحث فى هذا المشروع من جلسة إلى جلسة ، حتى سحبت الإذاعة نفسها منى . والطريف أن « المجلة » التى كانت تنوى نشر هذه البرامج ، لم تصدر .. ولم تر النور قط . وعادت الأحكام العرفية ، واستمر « قرار الحاكم العسكرى » الخاص بمنع نشر برامج الإذاعة فى غير مجلة الإذاعة قائما ..

والطريف كذلك أن أحد الوزراء قال فى جلسة من الجلسات أن هذا هذا القانون ينطوى على مساس بحرية النشر ، فقلت له : « وهل حرية النشر قائمة فى كل جانب من جوانب حياتنا ماعدا نشر البرامج الاذاعية ؟ » فضج الوزراء بالضحك ، وخجل الوزير ، وانتقلنا إلى شىء آخر ! .

* * *

وحينما انتهت الحملة الصحفية ، وانتقلت هيئة الاذاعة إلى رئاسة الجمهورية ، قابلت بعض الصحفيين الذين اشتركوا فى الهجوم على مشروع ذلك القانون الذى كنت قد تقدمت به ، فسألتهم :« لماذا لاتطلبون ، الان بأباحة نشر برامج الاذاعة ؟ » .. فقالوا ضاحكين : « وهل نجرؤ لقد طلب منا أن نهاجم ..وطلب منا أن نكف عن الهجوم .. فأطعنا فى الأولى ، كما أطعنا فى الثانية » .

الفصل الثالث عشر

من يحاكم الوزراء

أيام عبد الناصر

● عندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ ، كنت معتقلا فى معتقل « الهاكستب » ، الذى كسب شهرة واسعة قبل ذلك التاريخ .. لأنه ضم الأخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والوطنين ، وقد كان هذا « المعتقل » ، اصلا ، مخازن للجيش الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية . فلما انتهت الحرب ، مضى الجنود الأمريكيون إلى بلادهم وسلمت هذه المخازن بما فيها للحكومة المصرية ، وبدأ النشاط السياسى يستعيد وجوده بعد أن وضعت الحرب اوزارها ، وخفضت القيود العسكرية ، ثم رفعت لفترة ، فاحتاجت الحكومات المتعاقبة – سواء كان حكومة اغلبية يؤيدها الشعب ، أو حكومة اقلية يؤيدها الملك – احتاجت إلى معسكرات اعتقال ، تزف اليها الخصوم والمخالفون زمرا .

وقد كان زملائى فى المعتقل ، ممن نسب اليهم شيء يتصل بحريق القاهرة إلا أنا . وقد احتاج زملائى فى خارج المعتقل ، إلى رفع دعاوى متكررة امام مجلس الدولة .. طعنا في امر اعتقالي الباطل ، والذى كانت تعوزه مبررات الواقع ، ومبررات القانون . والاجراءات القانونية فى مصر تقتضى أن من يطعن في قرار اداري ، ويلتمس من المحكمة الحكم بالغائه ، ان يرافق دعوى الالغاء ، دعوى تعويض . ومن هنا كان الزملاء المحامون مضطرين أن يطلبوا الحكم لى بتعويض رمزى ، ولكن الدعوة كانت من اصلها إلى فرعها .. تستهدف فك قيودى ، واطلاق سراحى .

ولم يكن يرد على الخاطر ان نتخذ من هذه الدعوى سبيلا إلى كسب قرش واحد من مال الحكومة . ولما اخترت للوزارة – بعد قيام الثورة – بقيت القضية مرفوعة ، ومتداولة فى الجلسات . وكانت لى قضية اخرى امام محكمة الجنايات .. اذ اتهمت – قبيل الثورة – بالعيب فى الملك . وساقونى إلى محكمة الجنايات . وقد قلت فى التحقيق الذى اجرى معى ، اننى لم اقصد العيب فى الملك ، وانما قصدت نقد ما يجرى عليه الحكم من فساد ، وهذا مطلق حقى وحق كل مواطن حر .

وجاء موعد نظر هذه القضية ، وأنا فى دست الوزارة ، وتلقيت اعلانا بتاريخ الجلسة ، فلم اخبر احدا من موظفى مكتبى بذلك . واخذت سيارتى الخاصة ، وذهبت بها إلى المحكمة وليس معى احد – حتى ولا محام – ولما انعقدت المحكمة ، جلست فى آخر صفوف الجمهور .. حتى اذا ما نودى علىّ ، وقفت وترافعت عن نفسى مكررا نفس الدفاع الذى

قلته فى التحقيق ، قبيل الثورة ، والملك متربع على عرشه . وكان الأستاذ جمال العطيفى ، وزير الثقافة والأعلام فى تلك الفترة ، ممثلا للنيابة ، فرآنى التزم بالدفاع القديم ، ولا أزيد عليه ، فتولته الدهشة ، كما بدا على المحكمة الاستغراب . فقد حسب الجميع أننى سأنتهز فرصة سقوط الملك وانهال عليه طعنا ، وابرر قيام الثورة ، ولكنى رفضت ، وقلت للمحكمة : « ليس لنا دفاع فى ظرف ، ودفاع يناقضه فى ظرف آخر » .

وسمع الناس بما جرى فى محكمة الجنايات . ولكن فى بطء ، اذ لم أحرص ، من ناحيتى ، على اذاعته ، ولم الفت نظر الصحف لنشره . وفى هذه الفترة سلمنى « عبد الناصر » تقريرا من المخابرات ، كان أولى حلقات الدسائس الصغيرة التى سلطها ضدى عدد من الذين ضاقوا بمكانى من قائد الثورة . فقد ظن بعض قادة الأحزاب القديمة أنه لولاى لما اتجهت الثورة إلى حل احزابهم ، باعتبار أن الثورة اعلنت فى أول بيان لها انها تريد أن تقيم فى البلاد حكما دستوريا نظيفا ، وانه لا دستور بغير احزاب ، وأن الأحزاب بعد أن ابدت استعدادها لتطرد من صفوفها الفاسدين والمفسدين ، انعدم مبرر حكم الموت عليها ، وقد انضم إلى هؤلاء عدد من العسكريين الذين نفسوا على أن اكون – دونهم – مستشار قائد الثورة فى بعض شئون الحكم ، وهو مكان لا يجب أن يصل اليه ، فى رأيهم ، إلا واحد منهم .. وآخرون لا أعلمهم .. الله يعلمهم .

وقد اتهمنى كاتب هذا التقرير أنى طامع فى مال الدولة ، مع أنى



جمال عبد الناصر يستقبل الشيخ محمد برهان الدين ضاحى سلطان البهرة بالهند .

أحد وزرائها ، « بدلالة أني رفعت دعوى ضدها أمام مجلس الدولة طلبت فيه الحكم لي بتعويض » !! وانتظرت حتى انتهت جلسة مجلس الوزراء ، واقتربت من « عبد الناصر » ، – وقد درس القانون في كلية الحقوق سنة أو سنتين – فقلت له : « ماذا تريد مني أن افعل بهذه الورقة ؟ » . قال : « هل صحيح أن هناك دعوى من هذا القبيل ؟ » .. فقلت : « انها دعوى مرفوعة قبل الثورة ، وضد حكومة عزلتم انتم رئيسها ووزراءها ، واعتقلتم بعضهم .. وكان لابد لي – لكي ارفع دعوى الغاء قرار الاعتقال – ان يصحبها طلب التعويض » . فأجاب عبد الناصر : « ولكن كل شيء انتهى ، وأنت الان مطلق السراح ، فلماذا يستمر طلب التعويض ؟ » . فضقت ذرعا بهذا الذي بدا لي فقلت له : « وهل تعرف ما هو التعويض المطلوب ؟ » فقال : « تعويض على كل حال .. » فصرخت : « انه قرش صاغ واحد » ، وهنا ، بدا على « عبد الناصر » شيء من الارتباك ، وقال : « ولماذا تجعل لمثل هذا الأمر كل هذه الأهمية ، مادام التعويض بهذه التفاهة ؟ » فقلت : « الأمر يهمني من حيث المبدأ ، هل يجوز أن تكتب ورقة كهذه ، يريد أن يظهر بها كاتبها انه ضبط لي سقطة وانه حريص على المال العام أكثر من حرصي أنا عليه ، وانه رقيب عليّ يهديني إلى الصواب .. مثل هذا لا يقبله إلا رجل احساسه بالشرف معدوم ، وأنا لن اتنازل عن الدعوى ، ولن التفت إلى هذا الأسلوب في الدس الصغير ، وارجوك أن تضع له حدا من الآن ، وإلا فإنه سيستفحل وتهب من ورائه رياح خطرة » .

ولم يهتز « عبد الناصر » لهـذه الخطبة الحـارة ، وإنما هز كتفيه وقال : « لســت معك ، إن الموضـوع صغير جـدا ، وأرى انه لا مبرر لتضـخيمه » .

● ... وتحققت توقعاتى

وما توقعته تحقق تماما . فقد نقلت إلى وزارة المواصلات ، وكان يزعجنى ما كنت اقرأه فى الصحف جهارا نهارا ، وبلا احتشام ، من اعلانات عن تجارة فى التليفونات ، والنزول عنها ، وكأن البلد لا قانون فيه ولا نظام .

لم أر بدا من أن اضع قواعد جديدة لتركيب التليفونات وبدأت هذه القواعد باهدار جميع الطلبات المقدمة قبل تاريخ اسناد الوزارة اليّ ، على أن يقوم الراغبون فى تركيب تليفون أن يتقدموا بطلبات جديدة ، على إلا يسلموها إلى احد فى مصلحة التليفونات بل يرسلون - بها إلى المصلحة بخطابات مسجلة مصحوبة بايصال مرتجع ، وأمرت بإعداد دفاتر جديدة مختومة كل صفحة فيها بخاتم الدولة ، وموقع عليها من مدير المصلحة أو من ينيبه ، وقررت أن يلتزم الدور المطلق فى التركيب بلا أى استثناء ، وحرمت نفسى - بوصفى وزيرا للمواصلات - من الحق فى أى استثناء بالغة ما بلغت ظروف الاستثناء ، وجعلت تركيب التليفون ، بصفة استثنائية ، لا يكون إلا بناء على طلب الوزير المختص بالمجال الذى يشرف عليه ، مبينا به اعتبارات المصلحة العامة . وادركت أن

الوزراء سيحجمون عن استعمال هذا الحق لأنه سيستحيل عليهم مجاملة الأصدقاء . اذ لن يكون فى وسع وزير الصحة أن يوصى إلا على طبيب ، اذ لا حق له فى التوصية على غير الأطباء ، ولن يقبل منه أن يبرر تخطى الأطباء الآخرين إلا بكلام مقنع ، ويدعو إلى الاحترام .

ولم أكن ادرى اننى وضعت يدى - كما يقولون - فى عش « الزنابير » واننى أهجتها ، وكان أول من ثار ضد قراراتى ، مدير عام مصلحة التليفونات نفسه ، فقد كان من أكبر مظاهر سلطته أن يتقدم اليه ، فى الحفلات العائلية ، الأصدقاء والأقارب وأصدقاؤهم واصحاب المصالح ، برجاء تركيب تليفون ، فلا يكلفه ذلك إلا أن يضع « امضاءه الكريم » فى ذيل طلب صغير فى ورقة صغيرة ، فاذا « بالأمر الساحر » يفعل فعله ، واذا بصاحب الطلب يبيت قرير العين .. وربما ملىء الجيب ايضا !! .

وعلى الرغم من اننى حققت لمدير عام المصلحة - رحمه الله - رجاء كان يسعى اليه ، وهو رفع درجته إلى وكيل وزارة ، فانه لم يستطع أن يغفر لى حرمانه من سلطة « من إغلى سلطاته » . وقد كان يظن أننى سأتشدد لبعض الوقت ثم يسترخى النظام الذى وضعته ، لكنه ادرك أن وهمه بلا أساس . فقد اقنع لجنة التليفونات بتركيب آلتى تليفون لوزير سابق فى غير دوره ، كان هذا الوزير قد زارنى فى الوزارة ، وزعم أن « الرياسة » توصى على هذين الطلبين ، فراع المدير أننى الغيت قرار اللجنة ، ولم أحفل بما قيل من أن « الرياسة » توصى عليهما .

* * *

وفى مساء اليوم الذى الغيت فيه قرار اللجنة لصالح الوزير الزميل ، انعقد مجلس الوزراء ، فسألت المرحوم جمال سالم : « هل اوصيت على طلب فلان ؟ » .. وكعادته .. صرخ صراخا عاليا ، وسب الوزير وقال « هل اقطع شعر رأسى .. التى لا شعر فيها ؟ » .

ودخل ، فى هذه اللحظة ، جمال عبد الناصر ، فسأل عن سبب صراخ جمال سالم ، فقال له بأعلى الصوت : « هل وصيت على طلب تليفون للدكتور فلان ؟ » . فلم يرد عبد الناصر على سؤاله ، ومضى إلى مكانه على رأس طاولة الاجتماع وقال : « يا أخوانى بمناسبة سؤال جمال ، ارجو أن تعلموا اننى لا يمكن أن اوصى احدا غيركم .. فاذا سمعتم انى اتصلت بمدير مصلحة ، أو وكيل وزارة ، ليجرى شيئا من أجل قريب أو صديق ، فلا تصدقوا ، وتمتعوا بحريتكم إلى أقصى الحدود . أنا آتصل بكم وأكلمكم .. ولا أظن أن احدا منكم يذكر اننى طلبت منه شيئا استثناء من القواعد أو اتباعا لها .. واذا كنت فعلت ذلك .. فذكرونى ارجوكم » .

وسمعت دوائر وزارة المواصلات بما جرى بشأن طلب الوزير السابق ، وادركوا أن « التعويذة السحرية » : – أوامر الرياسة ، وطلبات الرياسة ، وتوصيات الرياسة – ليس لها سوق فى وزارة المواصلات . فاستقامت الأمور .

ولست انسى يوما اتصل بى فيه استاذى المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الذى كنت احبه ، واحترمه ، وأعجب به ، ورجانى من اجل تليفون

لطبيبه الذى يعالجه .. وقد كنت ارجو أن اجيب هذا الطلب تعبيرا عن المودة والأعزاز اللذين احملهما له . ولكنى غالبت نفسى ، وأنا أكاد أئن . كذلك ، حدثنى الدكتور القيسونى ، وزير المالية آنذاك ، فى شأن طلب لخاله الدكتور غنايم كبير أطباء السجون ، فقلت له : « اننى لا استطيع أن أستثنيه ، هذا من حق وزير الصحة » . وكبر على الدكتور القيسونى أن يرجو وزير الصحة ، وعلق على ذلك بقوله : « أنت خليت رقبتنا زى السمسمة » !! .

كما طلب منى المرحوم « عبد الحكيم عامر » أن آمر بتركيب تليفون لأحد ضباط حرسه ، وكان تابعا لوحدة فى وزارة الداخلية تسمى (حرس الوزراء) . وجاءنى الضابط ، وفى ظنه أنه مادام « عبد الحكيم عامر » ، وزير الحربية وعضو مجلس قيادة الثورة ، قد أوصى عليه .. فمن حقه أن يدخل إلى مكتب وزير مدنى وهو منتفخ الأوداج ، فرفضت أن اقابله .. وحولت طلبه – حسب القواعد الجديدة – لزكريا محيى الدين وزير الداخلية ، الذى ارسل الىّ يقول : « لا تركبوا له تليفونا ، لأننا سنضع لرجال الشرطة نظاما خاصا بشأن طلبات التليفون » .

وبلغ الأمر لعبد الحكيم . فلما قابلنى قال : « ما هذا يا أخ فتحى ؟ ألا استطيع أن اركب تليفونا لحارسى » . فقلت له : « كلم فى ذلك زكريا » . فتولته الدهشة ، وقال : « وما شأن زكريا ؟! » ومضى غاضبا !! .

● ... وتعكرت المياه !

وهكذا تهيأ الجو ، وتعكرت المياه للاصطياد فيها ، فاذا بتليفون مكتبى بوزارة المواصلات يدق ، وما كدت ارفع السماعة ، حتى سمعت صراخا عنيفا إلى الحد الذى خشيت منه على السماعة أن تتمزق . وكان مصدر الصراخ هو المرحوم جمال سالم الذى لم أفهم منه شيئا ، إلا أنه فى أعلى درجات الغضب !! .

وبعد جهد .. فهمت أن ما نشر عن قواعد تركيب التليفونات يتضمن مساسا به ، واتهاما له بعدم الكفاءة ، أو بعدم الأمانة ، باعتبار انه كان « الوزير السابق » علىّ مباشرة . واضاف جمال سالم كلاما معناه « اننى اتعقب تصرفاته فى الوزارة قبل مجيئى تصيدا لأخطاء وقع فيها تثبت خراب ذمته » . وادركت فى الحال ، أن فى الأمر دسيسة محكمة ، فقلت له على الفور : « هل استطيع أن ارد عليك بعد قليل فان لدى ضيوفا ولست قادرا على التحدث معك فى حضورهم » . فهدأ قليلا ، وقال : « حسنا أنا فى الانتظار » .

وتعمدت ألا أرد عليه حتى يهدأ ، ولكنه لم يطق الأنتظار ، فعاود الاتصال بى ، فقلت له : « الضيوف لا يزالون عندى . فهل لديك مانع أن أمر عليك غدا فى مكتبك » .. وبدا لى أن أكثر من نصف غضبه قد زال ، ولم يكن ذلك بالشىء المستغرب عندى .. فأنى كنت أعرف جمال سالم جيدا .. اعرف طيبة نفسه ، وشدة غضبه ، وسرعة صفحه .

وفى اليوم التالى ، قصدت مكتبه .. فوجدت رجلا آخر تماما . فقد كان صافى المزاج .. مجاملا وودودا . وتحدثنا طويلا فى أمور مختلفة ، حتى كدت اتصور أننى لو انصرفت قبل أن افتح حديث الأمس لما استوقفه هذا . ولكنى رأيت ألا يبقى الموضوع معلقا ، فسألته عن سبب غضبه ، فعاودته حدة الطبع قليلا ، وقال : « كيف تنشر انك تضع قواعد لتركيب التليفونات منعا للفوضى . كأن هذا الأمر قد غاب عني ؟» فقلت له - وكنت صادقا - « الواقع أننى لاحظت أن القواعد التى وضعتها وأنت فى الوزارة أهملت ، فأنا أعدت نشرها ، وهذه القواعد الجديدة .. أليست هى قواعدك ؟ » فقرأها بسرعة وقال : « بالضبط .. » قلت : « ما الشكوى اذن ؟ » . فأجاب ، وهو يهز رأسه : « والله ما أنا عارف .. » !! .

وسألته : « وما الأمر الثانى ؟ » فقال« إن مدير التليفونات يشكو من أن مفتشى التحقيقات فى الوزارة يطرقون باب مكتبه كل أسبوع مرة على الأقل ويحققون معه فى شأن احد (السنترالات) بطريقة تشعر بأنهم يشكون فى هذه العملية ، وأن رشوة دفعت فيها له » . فظهرت علىّ امارات دهشة حقيقية ، لأنى سمعت ، يومذاك ، بهذا الإمر لأول مرة ، وقلت له : « انى اسمع عن هذا الأمر ، الآن فقط ، ولا أعرف شيئا عن السنترال الذى تشير اليه . فما الذى يغضبك منى ؟ » . قال : « مدير التليفونات قال انك وراء هذا التحقيق » فسألته - وأنا أكاد انفجر من هذا الدس الصغير : « وهل سألته .. وما هو دليلك على هذا » فقال :

« أنت حتعملها محكمة ؟ » . قلت : « هذا أفضل من أن تغضب من زملائك بلا مبرر » .

وأمسك جمال سالم بالتليفون وهو يكاد يحطمه ، وطلب مدير التليفونات الذى جاء على عجل ، مرتبكا ، غارقا فى عرقه . وسألته : « هل عرفت متى بدأت الشكوى ضدك ، وممن ؟ » . وتعثر الرجل فى الرد . وبعد سؤالين ، اقر أن هذا التحقيق بدأ قبل أن أتولى أمر المواصلات . فانفجر « جمال سالم – رحمه الله – وانطلق المسكين – وقد كان يشكو شللا فى قدميه – وهو يكاد ينكفىء على وجهه . ذعرا من أن يطارده « جمال سالم » .

ومضيت إلى عملى وفى فمى مرارة ..

وانتقلت إلى وزارة الثقافة والأرشاد القومى ، ومن ورائى هؤلاء الدساسون الصغار . وفى ذات يوم ، تحدث الىّ تليفونيا السيد عبد اللطيف البغدادى ، وكان – وقتئذ – وزيرا للشئون البلدية والقروية ، ورجانى أن أمر عليه فى الغد – فى ساعة حددها – ومضيت إلى مكتبه فى الميعاد الذى اختاره . وتحدثنا مليا فى الشئون العامة ، وكان – كعادته – هادئا وبسيطا . وتناول حديث المنافقين ، وحديث المنتفعين من صلاتهم بالوزارة والمسئولين . فقلت له : « إن بعض الناس قد يكون فى غير حاجة الى قربيه الوزير ونفوذه ، ولكنه يعز عليه ألا يستعمله » . ثم قال : « إن أحد خصومه قال له أنه تعقبه فى كل خطوة ، مؤملا أن يجد

له خطأ تورط فيه ، فلم يجد .» فقلت له : « إن هذا منافق يتقن نفاقه » . فدهش « بغدادى » ، .قال : « كيف ؟ » . قلت . « إن العبرة هنا بآخر معنى فى الكلام ، فإن كان مدحا ، فهو نفاق ، وإن كان نقدا ، فهو شجاعة وصراحة » . وهنا مد « بغدادى » يده إلى مكتبه وأخرج ورقة ، سلمها اليّ . وما كدت القى عليها النظرة الأولى ، حتى عرفت ماذا تكون ، وماذا يكون فيها . انها ورقة من هذه الورقات التى تكتبها أحدى الجهات التى تعتمد عليها الدولة لجمع المعلومات فى أمور شديدة الحساسية تتصل بأمنها ، وبنشاط كبار العاملين فيها ، وكبار خصومها واعدائها . واحسست في التو بحسرة تعتصر قلبى ، ومرارة تملأ نفسي ، وحيرة تحيط بي من كل جانب . فلقد كانت « الورقة » صورة من صور ذلك العبث الصارخ الذى يجب أن تترفع عنه أية جماعة انسانية ، ولو كانت من أطفال .حسبك أن تعلم أنه جاء فى هذه الورقة وأننى عينت في الوزارة التى تتبعنى ، ستة من أقاربى . نعم ستة دفعة واحدة !! .

وقرأت أسماء هؤلاء الستة ، فاذا بى لا أجد فيهم واحدا أعرفه ، أو سمعت باسمه ولو مرة واحدة .. هكذا بالضبط ستة أقارب لا أعرفهم ، ولم اسمع باسمائهم .. وبالتالي لا يمكن أن يكونوا قابلونى أو قابلتهم . وحمدت الله أنه عندما بدا لأحد لأن يكيد لى – للاجراءات الشديدة التى اتخذتها سدا لمنافذ الفساد – قد أعماه الله ، فجعله يقول ما لا معنى له . ثم قرأت فقرة أخرى عن اثنين من أقاربى درجا على الكتابة

فى « مجلة الاذاعة » ، مقابل مكافآت يتقاضونها . ولما كنت اقرأ « مجلة الاذاعة » ، واعرف أن هذين القريبين لا يقرآنها ، فقد كنت واثقا انهما لم يكتبا فيها حرفا ، وبالتالى لم يقبضا منها قرشا . وتساءلت ، وأنا أعبر سطور هذه الورقة فى سرعة .. ما غاية كاتبها .. ؟ أيعلم أنه يؤلف قصة من خياله السقيم ؟ ..

اذا كان يعلم ذلك فما الضرر الذى سيصيبنى من هذه المحاولة . أكان يظن أن رؤساءه وسادته سيقرأونها ويقتنعون بها دون أن يطلعونى عليها ؟ ..

هذا هو التفسير الوحيد المعقول لهذا التصرف الذى لا يصدر إلا عن معتوه !! .

ولكن .. بعد أن قلبت الورقة فى يدى اصبحت المشكلة التى تواجهنى كيف اتصرف . هل امزقها امام « البغدادى » ، مع ما فى هذا التصرف من قلة ذوق ؟ وقد يكون « البغدادى » بريئا ولا يد له فى هذا العبث .

ولكن لم البث حتى افقت على كلام من « البغدادى » يقول لى فيه :

« لو أمكن تمر علينا غدا لنأخذ كلمتين ، والأخ محيى الدين ابو العز ، سيقوم بأعمال سكرتارية التحقيق » .

ولم اصدق اذنى : كلمتين ، وتحقيق ، ومحيى الدين ابو العز .. ما هذا الذى يحدث ؟!! .

لقد بذلت جهدا خارقا لكى لا يبدو علىّ ما أحسست به من تقزز .. وقلت له : « سأرد على ما جاء فى هذه الورقة بمذكرة صغيرة » .

وأوصلني « البغدادى » إلى المصعد .. ومضيت إلى مكتبى وأنا اشفق أن يصدر عني تصرف غير لائق . هل اقدم استقالتي ؟ .. إن هذا قد يكون غاية القصد وبلوغ المراد عند اولئك الخصوم الذين لا أعرفهم ، ولا يهمني أن اعرفهم .. وستكون الاستقالة عندهم هي الاقرار بصحة ما جاء في تلك الورقة !! .

وماذا في هذه الورقة ؟! انها أمور ، لو صحت ، فلا تشين حاكما ، فلا هي تمس النزاهة ، ولا الأمانة ، ولا الكفاءة .. وهي اذا قورنت بما أقدم عليه الأقرباء والأشقاء والآباء ، والأصهار ، من صفقات مع الحكومة .. ومقاولات .. ونشاط في الداخل والخارج يتناول الاستيراد والتصدير ، والنقل ، والتعيين بالمئات والألوف ، لعدت من حسنات الأبرار . هل ادع مكتبي وأذهب إلى « عبد الناصر » .. وأوقفه على خطر وخطأ هذا التصرف غير المسئول ، لأن الدستور رسم اجراءات لمثل هذه الخطوة التي قد يظن ان ردى سيحسمها ، اذ سيظهر كل ما فيها ، من بطلان .

وقلت لنفسي بل سأعرضها على مجلس الوزراء ، وأطلب أن يصدر قرار بسحب هذه الورقة واعتبارها كأن لم تكن ومحاسبة الذين حرروها وأقدموا عليها .. ولكني سألت نفسي : « هذا ممكن ؟ » .

وعدت أقول : لابد أن افعل ذلك ، وليكن ما يكون . وهدأت نفسي .. فقررت ، أولا ، أن اكتب ردا قصيرا وموجزا على كل ما جاء في الورقة

مؤيدا بالاسانيد . وكان أول ما أمرت به تكليف مدير المستخدمين فى الوزارة بأن يقدم لى بيانا بتاريخ تعيين كل من الاشخاص المنسوب الى تعيينهم ومؤهله ومرتبه عند التعيين ، ومرتبه اليوم ، والترقيات التى حصل عليها .. لا فى ديوان الوزارة فحسب ، بل فى الوزارة وفى المصالح التابعة لها . وجاء الرجل ، آخر النهار ، متصبب العرق ، مبهور الأنفاس ، يلتمس اعطاءه مهلة ، لأنه لم يعثر - بعد - على اسم واحد من هؤلاء الستة . وهو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يقول للوزير : « أنت تعبث وتضيع وقتنا فيما لا طائل تحته » ! ..

وارسلت إلى « مجلة الاذاعة » لتعطينا بيانا بما تقاضاه قريباى الكاتبان .. ولا أطيل على القارىء ، فقد جاءت البيانات كلها - كما يقول المحللون فى معامل التحاليل الطبية - سلبية . واستمهلت « البغدادى » ، ثم أرسلت اليه المذكرة .

ثم ذهبت إلى « عبد الناصر » . ولعله - رحمه الله - لم يرنى فى حياته اسوأ مزاجا ، واقرب إلى المصادمة منى فى ذلك اليوم . ولست اريد أن أثقل على القارىء ، اذ حسب القارىء أن انقل اليه الجانب العام من المشكلة . فقد قلت له : « إن اخذ الأمور بهذه الخفة ، لا يدل إلا على أن تقدير الشرف عند الدولة التى ننتمى اليها ، ونعمل معها ، هو تقدير غاية فى الضعف . انكم تحسبون انه من الهين أن تقول لأنسان يحترم نفسه انك عينت .. وهو لم يعين ، أو أن قريبك قبض ثلاثة جنيهات - نعم ثلاثة جنيهات - وهو لم يقبض شيئا .

وجلسنا – بعد هذا الحديث – فترة صامتين واجمين ، لا نقول حرفا .. ولكن « عبد الناصر » ، وبعد طول المجاهدة لنفسه قال : « لم يكن امامى إلا هذا . فانهم يظنون اننى أحمى بعض الوزراء لصلة خاصة بينى وبينهم ، فتركتهم يفعلون ما يشاءون ، وفى هذا خير .. على عكس ما ترى أنت » .

وفهمت أن « عبد الناصر » كان مغلوبا على امره . وفى الأيام التالية قرأت أن ثلاثة من الوزراء ذهبوا إلى مكتب « البغدادى » وقضوا وقتا طويلا فى مناقشة بعض الأمور ، وانه كان مع البغدادى ، محيى الدين ابو العز .. وفهمت وعجبت لهؤلاء الذين قبلوا أن يحقق معهم . وقد بلغ احدهم منصب رئيس الوزراء ، والثانى منصبا لا يقل عنه ، والثالث بقى فى الوزارة حتى كتب له أن يقيم الدنيا ويقعدها بقرار منه ..



فى بيت عبد الناصر ولقاء حار بين ناصر
والحاج عبد الحميد ايناس الزعيم الدينى للسنغال

الفصل الرابع عشر

عبد النـــاصر

يتحدث عن رفاقه

● قال لى جمــال عبد الناصر يوما : « أنا هنا (وأشار إلى بيته) أعـيش مع (كـابوس طويل) لا أدرى مـتى ينتـهى ؟ .. لم أكن أعرف ، ولا أتصور ، أنه هكذا ستكون الأمور » .

وصمت طويلا .. كان ذلك فى خلال أزمـة من الأزمات التى لم تكن تنتهى الواحدة منها إلا لتبدأ غيرها ، وتدور كلها حول جذب وشد ، مع واحد من أقرب الناس اليه .

ولقد كانت أول أزمة من هذا القبـيـل ، هى أزمـة الرئيس مـحـمـد نجيب .. وقد حدث قبل أن تنفجر هذه الأزمة ، لتصبح ، بعد ذلك ، زلزالا يهدد الثورة من أساسها ، أنى كنت جالســا إلى جوار عبد الناصر فى

« نادى السيارات » بعد أن تناولنا العشاء ، على شرف الرئيس السورى شكرى القوتلى . وكان الرئيس محمد نجيب يجلس فى الطرف الآخر من الدائرة التى توزع فيها الضيوف والمضيفون .. فنظر اليه « عبد الناصر » طويلا ثم قال : أننى لم أعد أطيق النظر إلى وجه « مطر » .

ولم أكن أعرف أن المقصود باسم « مطر » هو الرئيس محمد نجيب . فسألت بسذاجة وسلامة نية « .. ومن هو مطر » ؟ فضحك « عبد الناصر » ضحكة خالية من البهجة وقال : « اذن أنت لا تعرف .. أنه نجيب .. وبقدر ما كنت أحبه وأثق فيه .. أصبحت لا أقوى على مجرد النظر اليه » !! .

وفاتنى ليلتها أن اسأل عن سر هذه « التسمية » .

وذات يوم كان الرئيس الأندونيسى « سوكارنو » فى زيارة لمصر ، وكانت له طلبات غير معقولة .. وكانت كلها متصلة « بالمزاج » وقد أضطرت الدولة إلى أجابتها له ، وهى كارهة ، ارضاء « لمزاجه » الذى لا يقبل القيود ولا يستسلم لها ، فقال لى « عبد الناصر » : « لست أدرى لماذا يذكرنى سوكارنو بنجيب .. خفته ومزاجه . وتعلق الناس به ، وبساطته التى تخفى ، فى نفس الوقت ، مكرا شديدا !! » .

وفى يوم أخر ، عين أحد المحامين وزيرا ، فقال له عبد الناصر ، وفى حديثه شىء من المرارة : « الحكم أكثر صعوبة بمراحل من المحاماة .. انه عذاب عظيم » ! .

ودعينا لنؤدى اليمين الدستورى فى أعقاب تعديل وزارى . وكان جمال سالم قد خرج من الوزارة فى التعديل ، فلاحظت أن « عبد الناصر » كان يستمع إلى الوزراء وهم يحلفون اليمين - الواحد فى أثر الثانى - وعلى وجهه من آيات الضيق والتبرم مالا تخطئه العين ، مهما كان صاحبها قليل الحظ من الفراسة .. وفى اليوم التالى كنت ازوره فى بيته .. فقلت له :

- لقد كان وجهك بالامس يقطر كآبة وهما .. فماذا كان هناك ؟ .

فأجاب على الفور :

- جمال سالم ياسيدى قرفنى .. وسود يومى .. فقد عرضت عليه الدخول فى الوزارة قبل التعديل . وقد كان غاضبا قبله بمدة لأمور كثيرة أخذها .. على أسلوب الحكم .. فحاولت أن أزحزحه عن موقفه ، وأن نقترب بعضنا من بعض ، ولكنه زاد بعدا ، وزاد هجومه علىّ ، ونقده لى عنفا ، ولكنى صبرت ، فلما أوشك التعديل الوزارى على الاتمام ، وعاودت الاتصال به ، إذا هو يرفض مجرد الكلام فى الاشتراك فى الوزارة بعنف حاسم .. فقررت ألا اتجاوز هذه المحاولة على مضض ، وعرف بغدادى ، وحسن إبراهيم ، بأن الوزارة ستعدل . وأن جمال سالم لن يكون من بين أعضائها . فكبر عليهما ذلك ، وراحا يلحان على « جمال سالم » ليعدل عن قراره ، وبعد أن فرغت تماما من اجراء التعديل ، وتحدد يوما لأداء اليمين .. جاءنى « بغدادى » و« حسن » وقالا لى : « جمال سالم قبل الدخول فى الوزارة » .. فقلت لهما : « وأنا أرفض أن

يدخلها .. نحن لا نعبث ، لقد رجوته ، وأطلت صبرى عليه .. وقد كان رفضه قائما على أنه يختلف معى فى المبادىء لا فى التطبيق ، فما الذى حدث حتى يرضى عنى وعن اسلوبى .. انى أرجح أنكما ورطتماه ، وإن كان هو من الصراحة بحيث لا يتورط ، ولكنه حسب حساب مودتكما له ، ومشاعركما نحوه . وأنا أخشى أن يحدث لنا أزمة بعد دخوله الوزارة بيومين أو ثلاثة فتكون العاقبة وخيمة » .

« وانصرف بغدادى ، وحسن إبراهيم آسفين ، وأعلن التعديل وفى اليوم التالى – المحدد لأداء اليمين – جاءنى جمال سالم مكفهرا ، وغاضبا ، وقضى معى ساعتين كانتا أطول ساعتين فى حياتى .. نقول الشيء ، ونعيده .. ويثور « جمال » ، وتصدر عنه ألفاظا جارحة فأحتملها لأنى لا أريد أن يتسع الخرق ، وأن يتجاوز حدوده

وسرح « عبد الناصر » بعينه ناظرا إلى الحديقة الصغيرة التى تقع أمام داره ثم قال :

– الواقع أن الذى جعلنى أصبر على عتاب جمال سالم المرير ، أنى أحبه لأنه « راجل » ..

وأشهد أننى سمعت هذه الشهادة من « عبد الناصر » – فى حق جمال سالم – مرارا . ولقد حاولت أن أفهم ما المقصود بكلمة « راجل » ، وهل تعني عند « عبد الناصر » شجاعة جمال سالم .. أم صراحته .. أم بعده عن التظاهر والنفاق ؟ ..

وهذه كلها كانت من فضائل « جمال سالم » ، رحمه الله ، ولكن ، بعد

التأمل فى المناسبات التى كان عبد الناصر يقول فيها هذه العبارة فى حق جمال سالم ، أدركت بالضبط ما كان يعنيه بلفظ « راجل » .. وهو أنه « لا يمكن أن يخشى تآمره عليه ، أو التفكير فى ايذائه » . فالرجولة هنا ، معناها الحرص على مقتضيات الوفاء .

ولكن رأى « عبد الناصر » فى « صلاح سالم » – شقيق جمال سالم – لم يكن بنفس الجودة . فقد سمعت منه ، فى مناسبات كثيرة تعليقات على تصرفات لصلاح سالم ، لا تنطوى على الرضا ، فهو لم يكن يعتبره (بتاع شغل) أى أنه قادر على التنفيذ ، وتحمل مشقاته.. لأنه « يحب الكلام » ، ويحسنه ، ولا يقوى على العمل .. ولا يطيقه . قال لى « عبد الناصر » ذلك مرة فى مناسبة ظهور أول فرقة فنون شعبية فى مصر والبلاد العربية ، وهى الفرقة التى ولدت فى سنة ١٩٥٧ ، وعرفت باسم (ياليل ياعين) ، والتى نجحت نجاحا مدويا ، بعد حملة ضارية بل ومسعورة ضدها ، وهى لا تزال فى دور التكوين والانشاء . فقد قال لى « عبد الناصر » :

– لقد قلت لصلاح أن يتبنى فننا القومى ، وأن ينشىء شيئا مثل هذه الفرقة ، وقد وعدنى صلاح بذلك ولم يفعل شيئا .. فهو (مش بتاع شغل) !! .

وذات يوم مر علىّ يوسف السباعى – وكنا وقتها نضع قانون المجلس الأعلى للفنون والآداب – ولم يكن الرأى قد استقر ، بعد ، على الوزارة التى سوف يتبعها هذا المجلس .. وكان « صلاح سالم » وزيرا للأرشاد القومى .. وكانت المسارح والفنون تتبعه . فى حين كان

« كمـال الدين حسين » وزيرا للتربية والتعليم .. وكانت المدارس والمعاهد ، تتبعه . ثم انتهى الرأى عند « عبد الناصر » ، اخيرا على الحاق المجلس بكمال الدين حسين بحجة (كمال شغال . وصلاح مش بتاع شغل) !! .

ومضت سنوات . أصبح بعدها « كمال الدين حسين » - بعد جمال سالم - صاحب أكبر نصيب فى الحكم ، تتبعه المدارس بمستوياتها جميعا ، والجامعات والمعاهد كلها ، ومجالس عليا لا حصر لها ولا عد . منها المجلس الأعلى للفنون .. والمجلس الأعلى للاثار .. والمجلس الأعلى لدار الكتب .. والمجلس الأعلى للجامعات وهكذا وهكذا !! وبالتالى ، بدأت العلاقة تفتر بينه وبين عبد الناصر ، حتى انقطعت . وفى الفترة السابقة على القطيعة التى أدت إلى الخصومة العنيفة ، جلس « عبد الناصر » مع الوزراء بعد تشكيل جديد - لم يشترك فيه « كمال الدين حسين » بطبيعة الحال - يذكر لهم رأى « كمال » فيهم ويقول : « كمال الدين حسين كان يقول أنكم وزراء (غير ثوريين) .. قلت : لابد أن يكون (الوزير الثورى) هو من كان على شاكلة أحمد محرم » ! .

وضحك عبد الناصر طويلا ثم قال : « والغريب أنى لم أر (أحمد محرم) إلا حسبته (حسن بغدادى) مدير جامعة الأسكندرية . ولكن هذا هو الوزير الثورى فى رأى كمال » .

وقد لا يعرف بعض القراء أن الدكتور « أحمد محرم » كان أحد الوزراء الذين أختارهم « كمال الدين حسين » لوزارة برئاسته . وكان ،

قبل الوزارة يعمل استاذا بكلية الهندسة ، وله مكتب خاص يعد من أكبر المكاتب الهندسية فى مصر نجاحا .

أما الدكتور « حسن بغدادى » فقد كان أستاذا بكلية الزراعة جامعة الأسكندرية ، ثم اختير وزيرا للزراعة لبضعة شهور ، ثم عين مديرا لجامعة الأسكندرية لفترة طويلة . ولم أفهم ما الذى كان يضحك « جمال عبد الناصر » فى تشابه « أحمد محرم » و « حسن بغدادى » !! .

ولم تكن العلاقة بين عبد الناصر .. وبين زميله (عبد اللطيف البغدادى) حسنة معظم الوقت . وقد أعددت يوما الخطاب السنوى الذى يلقى فى مساء ٢٢ يوليو من كل عام . وقد جرت العادة فى اعداده أن يقوم على أساس من سرد الأحداث الكبرى التى وقعت فى العام المنصرم ولما كان أنشاء « كورنيش النيل » من أكبر الأحداث التى شهدها العام السابق الذى كنت أعد الخطاب فى ختامه لأستقبال العام الجديد ، فقد ذكرت « كورنيش النيل » .. ووصفته بأنه « نافذة عريضة تطل منه القاهرة على النيل » .. فأمسك عبد الناصر بالقلم وكاد أن يشطب هذه الجملة . فسألته : « لماذا تود أن تشطب هذا الكلام ؟ » . فقال : « لقد سئم الناس الحديث عن الكورنيش » .. بعد أن أسرفت الصحافة فى الكلام عنه ، وفى الحديث عن (عصا البغدادى السحرية) و (مشروعاته) » . فقلت : « هذا سبب أدعى للأبقاء على هذه الجملة ، اذ مادام الناس تكلمت عنه كثيرا ، فهى تنتظر أن تقرأ ، أو تسمع عنه ،



عبد النـاصر يستقبل زوجة الثائر الافريقى
لومومبا ويوافق على ان تعيش فى القاهرة

في الخطاب السنوى ولو جملة . فإذا خلا الخطاب من مثل هذه الجملة ، كان التفسير الوحيد لهذا ، هو أنك غير راض عن هذا المشروع أو عن القائم به » .

ولم أرد أن أقول المعنى الذى عنيته بالضبط .. وهو « أن الأضراب عن الأشارة إلى هذا المشروع يمكن أن يفسر بأنه من (الغيرة) منه ، ومن نجاحه ، ومن صاحبه » .. ولكن « عبد الناصر » أدرك هذا المعنى دون أن أقوله . فبقى ممسكا بالقلم فترة ، ثم قال : « وهو كذلك .. لندعها ولو أنى غير مرتاح لها » .

* * *

وبقيت علاقة « عبد الناصر » بحسين الشافعى ، خالية من الشد والجذب .. وقد كان يذكره ، دائما ، على وجه يدل على اعتقاده بطيبته ، وسلامة نيته . فقد أوفده يوما إلى اليمن – أبان ثورة سيف الإسلام « عبد الله » ، على أخيه الإمام أحمد « إمام اليمن » وكان سيف الإسلام « عبد الله » قد نجح فى تطويق قصر أخيه ، وكاد يطبق عليه ، ويخلعه من عرشه . إلى أن تمكن الإمام أحمد من فك الحصار والقبض على أخيه عبد الله وقطع رقبته .

وانفرجت الأزمة ، وعاد « حسين الشافعى » إلى القاهرة .. وأخذ « عبد الناصر » يروى لنا مجريات الأمور فى اليمن وهو يضحك .. ثم ختم هذه الرواية بقوله : « وقد حصلت ، على كل حال ، بركة الإمام الشافعى » .

ولكن .. روى لى الأستاذ عصام الدين حسونة وزير العدل ، فى الفترة اللاحقة لهزيمة سنة ١٩٦٧ ، عن موقف عاصف بين عبد الناصر .. وحسين الشافعي . فقد فتح « عبد الناصر » الحديث فيما جرى فى أعقاب تلك الهزيمة ، ثم فى أحداث يومى ٩ و ١٠ من يونيو . وطلب « عبد الناصر » من الوزراء أن يعلل كل منهم اسباب وقائع يومى الخامس والسادس من يونيه اللذين شهدا وقائع الكارثة ، ثم حوادث يومى ٩ و ١٠ اللذين شهدا مظاهر الألتفاف المفاجىء حول « عبد الناصر » ، وانفجار التأييد الجماعى له ، فى الوقت الذى كانت تدعو فيه كل الأمور إلى الأنفضاض من حوله .. بل وإلى الأنقضاض عليه .. باعتباره الزعيم والرئيس المطلق السلطة الذى تمت الهزيمة على يديه . فقال حسين الشافعي : « إن نسبةكبيرة من دواعى الألتفاف حول (عبد الناصر) والتمسك به كانت وجدانية ، وعاطفية ، ومن وحى اللحظة » ..

فبدت على وجه « عبد الناصر » آيات غضب كاسح لأن هذا التحليل جرحه .. فحاول « حسين الشافعى » أن يترضاه ، بأن وضع يده على كتفه ، فازداد انفعال « عبد الناصر » وأزاح يد « الشافعى » من كتفه ، واتجه اليه ليقول له بعنف . « أنت تقول أن ما حدث كان بسبب إنفعال وقتى لأنك جئت إلىّ لأرفع الحراسة عن ابن خالتك فرفضت ، فبقيت هذه المسألة تحز فى نفسك إلى الآن » .

* * *

ولقد كان السـبب فى توتر العلاقة بين « جمال سالم » والرئيس « عبد الناصر » مخالفا للسبب الذى قام عليه توتر العلاقات بينه وبين « البغدادى » كانت انفجارات طبع جمال سالم ، هى التى تحرج « عبد الناصر » وتزعجه ، وأذكر فى منطقة « الشلوفة » - على قناة السويس - أنى رأيت عبد الناصر ووجهه مربد ، وكأنه يوشك على الموت ، فلما سألته عن السبب ، لم يجب . وكانت « الشلوفة » معسكرا للأنجليز . وكانت هى أول منطقة يجلو عنها الأحتلال البريطانى تنفيذا لأتفاقية الجلاء ، فقد احتفلت الحكومة المصرية بتسلمها .

ووقتها .. لم يكن « عبد الناصر » قد عرف بأنه « قائد الثورة وزعيمها » - وإن كانت بشائر هذه الحقيقة ، وطلائعها ، قد بدت فى الأفق - ومن هنا كان تجمع الصحفيين حوله ، وتهافت المصورين على تصويره ، وقد حدث أثناء ذلك أن اصطدم أحد المصورين ، وهو يقوم بتصوير « عبد الناصر » ، بجمال سالم ، فهاج هياجه ، وجرى وراء المصور وبيده عصاه . واختفى هذا المسكين وراء مكتب ، ثم تحت أريكة .. و « جمال سالم » يأبى أن يعفيه من العقاب .. والأجانب من الضيوف يشهدون ذلك .. و « عبد الناصر » يكاد ينفجر ، ويبقى على غضبه واكتئابه .. فترة طويلة ، وقد قام أحد أصدقائى من هواة التصوير ، بالتقاط مشاهد ذلك اليوم على فيلم ملون ، أهديته إلى « عبد الناصر » بعدها بأسابيع قليلة ، فلما مددت اليه يدى به ، سأل : « ما هذا ؟ » فقلت : « فيلم الشلوفة » ، فقبض يده قائلا : « لا .. لا أريد أن

أذكر هذا اليوم . فقد كدت أن أعود إلى القاهرة تاركا الاحتفال ومن فيه ، وليحدث ما يحدث » ؟ .

ولكنني ما زلت به حتى هدأت نفسه .

أما علاقة « عبد الناصر ببغدادى » فقد يشوبها ما عبر عنه « عبد الناصر » فى يوم كنا نراجع فيه خطبة من خطب مناسبة الاحتفال بذكرى ثورة ٢٣ يوليو . فقال : « هل تصدق أن بغدادى كان مقاطعا لى ، وبعيدا عن تنظيمنا إلى ما قبل الثورة بستة أشهر فقط . وأنه كان يقول دائما أنه أسبق فى (الحركة) ، لأنه أسس ، من قبل ، تنظيما سابقا على تنظيم الضباط الأحرار ؟ » .

ويبدو أن هذه (الحكاية) بقيت لدى كليهما « عقدة » مستحكمة ... لا تسمح بتطور طبيعى للعلاقات بينهما .

ولست فى حاجة إلى الحديث عن علاقة عبد الناصر بعبد الحكيم عامر . فقد كانا أخوين متحابين . ولكنى حريص على أن أورد شهادة ذات قيمة من « عبد الناصر » فى « عامر » فقد اخترت وزيرا للمواصلات ، بعد فترة طويلة كنت فيها وزيرا للدولة بلا اختصاصات محددة ، فقال لى « عبد الناصر » – وهو يفضى إلىّ بهذا التعديل : « لقد كنت أقول دائما أنه لابد أن يسند إلى فتحى رضوان وزارة محددة .. ليظهر فيها نشاطه محددا . كما يجب أن يدخل « عبد الحكيم » مجلس الوزراء ، ويشهده .. (لأن عبد الحكيم « Bnen » « مخ ») ! .

الفهرس

رقم الايداع : ١٩٩١/٤٧٣٧

I. S. B. N

977-07-0088-6

كتاب الهلال يقدم

أوبرا
تريستان و إيزولدا

تأليف

ريتشارد فاجنر

ترجمة وتقديم

بدر توفيق

يصدر : ٥ أغسطس ١٩٩١

هذا الكتاب

بعد أن قدم « كتاب الهلال » ، سير وتراجم رموز التاريخ المصرى المعاصر ، فقدم كل من محمد على وأحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول ، يشرفه أن يقدم فى هذا الكتاب سيرة جمال عبد الناصر ، بقلم ألمع الكتاب والشخصيات العامة ، الكاتب الكبير فتحى رضوان .

حتى يكون إحياء لذكرى جمال عبد الناصر وفتحى رضوان معاً ويتناول فتحى رضوان ثورة يوليو وقائدها تناولاً نقديا ما أحوجنا إليه هذه الأيام .. لكى نستفيد من دروس وعبر الماضى ، ونتمسك بكل ما هو إيجابى ، ونتطلع إلى مستقبل فى عالم يتغير ، تجرى فيه التغيرات أسرع من البرق وأعجب من الخيال وأعنف من كل التوقعات ، ولابد للجديد أن يحل محل القديم .

وهذا الكتاب إحياء لذكرى المغفور له الكاتب الكبير فتحى رضوان ، الذى تواصلت كتاباته فى مجلة « الهلال » أكثر من خمسين عاما ، وهو الكاتب الموسوعى غزير الانتاج ، والذى يكتب فى الأدب والسياسة ، والتاريخ والقانون والفن .

ويؤلف الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات ، وأسلوبه فى الكتابة عربى فصيح يندر مثله . وكتب مقاله الأول فى عدد فبراير سنة ١٩٢٣ ، ونشر له « الهلال » مقالة عن « تركيا القديمة وتركيا الحديثة » .

ومن يومها وهو يضيف للحياة العامة ، وقدم الكثير للفكر والفن عندما أنشأ مصلحة الفنون التى تطورت لتصبح وزارة الثقافة . وكان جوهر كفاح فتحى رضوان هو الحرية وكانت كتاباته تعبيراً عن مواقف نضالية دفاعا عن الحقوق الوطنية والديمقراطية .

يقول : « ثورة ٢٣ يوليو ، كانت الثورة العربية الأولى التى استهدفت التغيير تغييراً يتناول الأسس ، ونجحت فى أمرين خطيرين : أولهما قيام الثورة ذاته ، والثانى : فى ثباتها واستقرارها » ..

ولنقرأ الكتاب .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية